

# اقرأ

سلامة موسى

# لغة علموني



دار المعارف

0160229



Bibliotheca Alexandrina



اقرا



سلاطین موسیٰ

# هؤلاء عالمون

الطبعة الثانية

« كن رجلاً ولا تتبع خطواتي »

« جيتہ »



دارالمعارف



## مقدمة

المؤلف الذى نحبه ليس فقط صديقاً نأتمس بأرائه ونستفيد بأفكاره ،  
إذ هو أكثر من ذلك .

هو بهذه الآراء والأفكار ، بتسلل إلى قلوبنا وعقولنا فيؤثر فى  
شخصيتنا أو يغيرها . وهو . بهذه المثابة ، نفسى فسيولوجى له دورة  
حيوية فى وجودنا .

ولكن المؤلف العظيم ، ليس الذى يجعلنا نرى الدنيا بعينيهِ  
ونشهد على الناس والأشياء بضميره . وإنما هو الذى يعايننا الاستقلال  
رائين ومشاهدين معاً . وإن لم يكن فى رؤيته وشهادته قد  
فتح بصيرتنا .

إن كل إنسان كون نفسه . ولذلك له الحق فى أن يسأل فى استقلال ،  
وأن يعيب فى استقلال . عما ينعى . وما يجد . وهؤلاء المؤلفون الذين  
تخصصوا فى الرؤية والشهادة حديرون بأن نقرأهم . ولكن يجب أن  
نعذرهم . وهميات أن نخذرهم !

ذلك لأن لكل كاتب إيماءاته التى لا طاقه لنا بالتخاص منها .  
وأحياناً له إيعازاته التى تندس إلى عقولنا من حيث لا ندرى .  
ولكن علينا فى كل حال أن نشهد الاستقلال .

وقد تأثرت هؤلاء الكتاب الذين ذكرتهم فى هذا الكتاب ،  
وأحببتهم ، وأعظمتهم ، ووجدت فيهم النور والتوجيه . ولكنى حاولت  
الاستقلال . وهذا ما أنصح به القارئ الذى يجب أن ينصت إلى قول  
أمير الأدب ، حيته إذ يقول : « كن رجلاً ولا تتبع خطوانى » .





## المؤلفون يغيرون الدنيا

الحياة مشروع نضع تخطيطاته منذ نبداً الوجدان وندرى ما نفعل .  
أو هي خارطة نأخذ في رسمها مائة سبعين أو ثمانين سنة . فنحن المسئولون  
عن إتمام هذا المشروع أو رسم هذه الخارطة . ومع أننا نعرف من  
البيولوجية الحديثة أن سلطة الأبوين ، ووسط العائلة ، وطرار المجتمع  
الذي نعيش فيه ، وتراثنا البيولوجي .. نعرف أن لكل هذا أثره في تكويننا  
وتوجيهنا ، فإن النظر إلى الحياة باعتبارها مشروعاً يخطط أو خارطة  
ترسم ، هذا النظر يستحق الاعتبار . ويجب أن تكون له مكانة في الطاعة  
النفسية لكل إنسان . وإذا كانت « الوجودية » تجعل من الفرد ، المسئول  
الأول عن أعماله . وتزعم أن هذا فلسفة . فلا أقل من أن نسلم نحن  
بها الزعم ونهدف منه لا إلى الفلسفة ، ولكن إلى البناء الأخلاقي .

وحسن في الأخلاق أن نقول إننا مسئولون عما نفعل . وفيما يلي  
بعض الخطوط التي أنقأها إلى القارئ الشاب عن مشروع حياتي أو  
خارطتها . فقد يكون فيها عبرة صغيرة إلى جانب الزبد الكثير .

بدأت أرسم خارطة حياتي حوالي عام ١٩٠٦ حين ساء الوسط العائلي  
وكان يتعقبنى بالعذاب رجل « نيوروزي » جعلني أبيت وأصبح في كرب  
لا يطاق .

فقررت إلى أوروبا . وهناك انبسطت لي آفاق ، وحلمت أحلاماً  
ورأيت رؤى ، وشرعت أدرس اللغتين الفرنسية والإنجليزية ، وأحتلط  
بمناصر جديدة في المجتمعات والعائلات . وأقرأ من الكتب ما يسع النور

فى عقلى ويبحث الشجاعة فى قلبى . فقررت من ذلك الوقت ، وأنا  
حوالى العشرين ، أن أكون متمدناً ومثقفاً . وقب مضى على نحو خمس  
وأربعين سنة وأنا أعانى الخصومات بسبب هذا القرار السرى !

رأيت شعوباً حرة لكل منها الكلمة العليا التى تتضح فى الانتخابات  
البرلمانية . ورأيت مشاكل الشعب تدرس فى البرلمان الذى له وحده  
حق تعيين الوزراء وإسقاطها . ورأيت جرائم تعالج المذاهب وتناقش  
الساسة ورأيت الاجتماعات التى يجتمع فيها الرجال والنساء ويبحثون  
فيها مشاكل العالم . ورأيت البيت النظيف ، والشارع النظيف ، والكتب  
العديدة ، والمكتبات المجانية . واختلطت بكل ذلك ، وتحدثت إلى  
الفرنسيين والإنجليز . وشرعت عندئذ آخذ بأساليب المتمدنين ،  
وأهدف إلى أهدافهم ، وأدرس وأتعلم وأجول وأأمل . . .

وعرفت ، فوق ما عرفت ، أن المرأة يمكن أن تكون إنساناً حراً  
لا يحتاج من الدنيا وينظر إليها من صير الففل ، ولكن يواحبها فى  
شجاعة ، تتعلم وتعمل وتحمل المسئوليات .

ورأيت جمالا فى الحب بين الشبان والفتيات . رأيت التمدن !  
وعنيت أكبر العناية بتعلم اللغتين الإنجليزية والفرنسية . واتصل  
عقلى عن سبيلهما ، بأكبر العقول القديمة والحديثة . وكثيراً ما كنت  
أسهر الليل كله حتى الصبح ، وأنا فى لذة الحماسة بقراءة كتاب  
لنيتشه أو قصة لدستوفسكى أو كتاب للعقائين أعداء القرون الماضية .

والتحقت بالجمعية القابلية . ورأيت برنارد شو فى لحمة ودمه . وكانت  
هذه الجمعية تومئ فى بداية هذا القرن إلى منتصفه . وكانت دعوتها إلى  
الخير والبر ترافقها دعوة أخرى إلى الشرف والشجاعة . وسمعت من  
منبرها رجالاً ونساء من الإنجليز يقولون : « يجب أن نخرج من مصر »

فأحببت الإنجليز . . وكرهت الاستعمار .  
ورأيت بين أعصابها رجالاً ونساء يقبضون على الأدب الروسي  
ويدرسون المشاكل التي خلفها داروين ، ويبعثون « تنازع البقاء »  
ومعاني « العصرية » ويتعمقون الطبيعة لاستخراج ما فيها من أخلاق ،  
من تنازع أو تعاون .

ورسخت نظرية التطور إلى وجداني وتشبع بها ، فصارت مزاجي  
وأساوي . وكبرت قيمة الإنسان في نفسي ، لأنني عرفت تاريخه الماضي  
في مئات الملايين من السنين كما مرت أحس بتاريخه القادم في المئات  
من السنين أيضاً . ونعملت بهاء المعرفة ومسئولية وأحسست ديناً . ولم ينقص  
من قيمة هذا الدين أنني وقفت على مئات الخرافات التي وقع فيها الإنسان  
لا . . بل إن هذه الخرافات قد زادتني احتراماً وحباً للإنسان ، إذ هي  
كانت محاولاته المتكررة للوصول إلى الحقائق . فقد انتقل من السحر إلى  
العلم ، ومن النجامة إلى التملكيات ، ومن الكهانة إلى الضمير ، ومن ذلق الرق  
إلى شرف الإنتاج .

وكان أكبر جزء في « مشروع » حياتي أني احترفت الثقافة ، فكانت  
حرفة وهواية معاً ، لا أبالي ما فيها من تعب وعرق . وقد بنيت بها  
شخصيتي . وأنشجبت بها وجداني . واستعظت أن أنسلخ من عقائد  
الطفولة ، وأن أصل إلى اليقين الجديد بهداية داروين وأينشتين . وأصبح  
مغلي عالمياً عامياً أحس صداقتي لثيرو وخصومتني لشرشل . وأعني  
بدراسة الصحارى ، واحتمال زراعتها في آسيا وأفريقيا . وأفكر في  
مستقبل الأحياء ، وأخشى انقراض بعضها . أجل . أحس أن العالم كله  
قد أصبح وطني ، ليس لي حق التفكير في مصالحه فقط ، بل على هذا  
الواجب . وثقافتي لذلك ليست عربية أو إنجليزية أو فرنسية ، وإنما  
هي عالمية . هي في التاريخ وعلى مستوياته ، قديمة ووسيلة وعصرية ،

مهما اختلفت لغاتها أو مؤلفوها .

ومع أن ثقافتى قد فصلت بينى وبين الكثير من الناس لاختلاف مسؤوبينا ، فإنها بسطت لى آفاقاً شاسعة من الفرح والأمل والتأمل والعبرة . فجعلت حياتى أكثر حبهونه ، وحبى للطبيعة أحم وأعمق ، وفهمى للكون ، أوفى وأنور .

وقد عرفت هذا الفرق بينى وبين سائر الناس حين وقفت أمام الدينصور قبل أربعة شهور فى متحف التاريخ الطبيعى فى باريس . فإلى وقفت عنده وجعلت أدور حوله وأتأمله وأتخيله أكثر من ساعة . وكنت أرى بالطبع الهيكل العظمى فقط لهذا الحيوان الذى كان يعيش على أرضنا قبل نحو مائة مليون سنة ، وكان أكبر من الفيل يزيد عليه فى الحجم نحو أربعة أضعاف . كان لا يختلف كثيراً من السحلية أو الورنة ، وكان يبيض مثلهما . وقد انقرض لأنه كان حسياً بلا منخ أو بمنخ صغير يفضل مخرج البطة أو الكلب ألف مرة . فلما تغير مناخ الدنيا ضاقت حياته . فعجز ومات وانقرض . .

وقد بقيت شهوراً أقرأ وأفكر فى موضوع الدينصور . ثم فى ماضى النوع البشرى ومستقبله بعد إذ دخلنا فى العصر الذرى ، هذا العصر الخطر الذى تكاد تتغير فيه وجهة التطور بإبادة الإنسان ، ثم تحيا الأرض بعد ذلك نحو مليون سنة فى الظلام ، إلى أن يكون الشعبى قد تهيأ للسيادة والتسلط عليها !

ومع أنى احترفت الأدب والعلم والثقافة ، فإن هذه جميعها هى عندى حياة كفاح أكثر مما هى حرفة . ولذلك أنا لا أبالى ما يقال عن أسلوب الكتابة ، ولكنى أبالى أسلوب الحياة . ولا أعبأ ببلاغة العبارة ، ولكنى أعنى بأن تكون الحياة بليغة ، بحيث نحيا متعمقين متوسعين .

ومع انى ألفب نحو خمسه وثلاثين كتاباً فإن كتابى الأول الذى عذبت تأليفه هو حياتى . هذا المسروع ، هذه الخارطة ، التى رسمتها والتى أعود إليها من وقت لآخر بالمحو والتنقيح والتصحيح . بل إن الكتب التى ألفتها هى فصول من كتابى الأول ، من حياتى .

وليس بى حياتى هذا العمر الفصير الذى أحياه بدمى ولحمى . وإنما هى تعود إلى ألف مايون سده مضت . ألم أكن سمكة فى يوم ما ؟ ألم أعش على الشجر ، وقت ما ؟ لقد حمل جسمى آثار هذه الملايين من السنين الماضية ولا يزال بعض هذه الآثار واضعاً ، أراه بعينى إلى الآن كما أرى بعضى وأسمع بأذنى كذاك ، ممر العرونيه وآثارها فى العقائد العامية بل الشعبيه .

وذلك ليس هذا الماضى هو كل العمر ، فإنى أحمل من الاهتمامات باستقبل البشر ما يعاد هموماً شخصيه لى . لأنى أدين بنظرة ، كدت أقول عفاة ، التطور . ولذلك لا أطيق عبث الأطفال الذين يقيدون حريه الفكر أو يكرهون الكتب أو يؤخرون الصناعة أو يستمسكون بالخرافات والتقاليد المؤدية ، إذ هم أعاءاء التطور .

ومن أجل الإحساسات التى أستمتع بها فى فترات اليأس ، والى نيل هذا اليأس إلى رجاء ، أن مؤلفاتى وأفكارى ، ومنهجى وكفاحى ، كل هذا لن يموت بعد موتى . إذ هو سيبقى ويؤثر ويوجه ويفتح النوافذ للنور .

وأنا بذلك أشاوز حياتى . وأحيا بعد موتى .

وفد قرأت أكثر من ألف كتاب . وأخصبت الكتب حياتى ، وجعائتى مشراً مضيئاً ، ولكن الكتاب الأول الذى له فضل الصياغة والتوجيه لشخصيتى هو كتاب داروين « أصل الأنواع » فإنه زاد عمرى

من سبعين سنة إلى ألف مايو سنة وجماعى أحسن الوجدان ، ليس على هذه الأرض فقط ، بل إزاء الكون كله بنجومه وكواكبه وشظايا ذراته وأحسن أن لا نطلب منه أحلافاً .

هذا هو مشروع ، خارطة حياتى . فما هو مشر وعك ؟ كيف رسمت . كيف ترسم ، خارطة حياتك أيها القارئ .

هناك زعم أو وهم يقول بأن السياسة يغيرون الدنيا بالاستعمار والحروب والمعاهدات . وقراءتنا المتوالية للصحف تدعم هذا الزعم أو الوهم . إذ أننا نجد الأسماء البارزة لاساسة ، ونقرأ أختبار الحروب الكبرى الأولى ثم الحرب الكبرى الثانية فيأيد هذا الزعم أو الوهم .

وليس شك فى أن الحروب والمعاهدات تغير - وقد غيرت الجغرافية السياسية للأقطار . كما أنه ليس شك فى أن المماثرين لهذه التغيرات كانوا من السياسيين أو العسكريين . ولكن هذه التغيرات لم تكن تصل إلى صميم النفس البشرية .

ومع ذلك عندها ننأمل وتعمق الأسباب والبواعث لهذه الحروب نجد أنها كانت ثمرة أو نتيجة لابتكارات علمية قام بها مخترعون اخترعوا الآلات ، أو ابتكروا الأساليب ، أو ألفوا الكتب لإعلان نظريات جديدة .

اعتبر هاتين الحربين الكبيرتين الأخيرتين . فإننا نسمع فيها عن رجال السياسة ورجال الحرب . ولكن هؤلاء الرجال قد باشروا هاتين الحربين فقط ولم يكونوا السبب لإثارتها . لأن السبب يرجع إلى الآلة البخارية التى أخرجها رجل مفكر هو جيمس واط فى عام ١٧٧٦ . ذلك أن هذه الآلة قد عممت الإنتاج الكبير ، فى المصنوعات فاحتاج هذا الإنتاج الكبير إلى الحرب والاستعمار .

وما زلنا نحن في حرب واستعمار بسبب هذه الآلة التي أحدثت ،  
ولا تزال تحدث ، مزاحمة دموية بين جميع الأمم الصناعية .

والمعنى والدلالة هنا أن السياسى والعسكرى قد «ار كلاهوا» فى أثر  
المفكر المخترع الذى انبعث إلى التمكيز بقوات اجتماعية أخرى .

وقد غيرت الحربان الأخيرتان تخوم الأقطار ، أى غيرت الجغرافية  
السياسية . ولكنها لم تغير الاتجاه البشرى أو الاتزان النفسى . فالأوربى  
الآن هو الأوربى الذى يعيش قبل سنة ١٩١٤ من حيث إيمانه أو  
طموحه أو تفكيره أو عاطفته .

ولكن الدنيا تغيرت بالكتب ، وعندنا على ذلك المثل الأكبر . فإن  
كتب الدين قد غيرت النفس البشرية إذ عيّنت لنشاطها اتجاهاً  
وأكسبتها أهدافاً لم تكن لتعرفها من قبل . وهذا الخلاف الخطير القائم ،  
الذى قد يؤذن بالحرب الكبرى الثالثة بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية ،  
كتاب ألفه كارل ماركس . وهناك عشرات من الكتب الأخرى لها مثل  
هذا الأثر أو ما يقاربه .

ولكن المؤلف المبتدع لا يبنى على الهواء أو يفكر فى الهواء . ذلك  
لأنه يعيش فى مجتمع معين يكسب منه عواطفه ويتجه اتجاهاته . فلذا  
كان ذكياً تبلورت فيه بعض الاتجاهات البازغة ، فصار يمايز بينها ويختار  
أحسنها ، فيدفعها بتفكيره ، ويزيدها بياناً وقوة حتى تغلب على غيرها  
من الاتجاهات . وهو بهذه المثابة يتفاعل مع مجتمعه ، فينشأ على أوضاعه  
ثم يعود فيحاول نشأة جديدة له ، أى للمجتمع .

وهناك كتب قد غيرت نفوسنا كما لو كانت ديانات جديدة . بل إن  
الاختلاف بشأن نظرياتنا يشبه إلى حد كبير الاختلاف الدينى فإن  
المختلفين على كتب نيتشه فى مذهب القوة يتحدثون ويتعصبون . وكتاب

داروين عن أصل الأنواع لا يزال يحدث مصادمات ذهنية بين التقليديين والابتداعيين . فهو كفر مظلم عند أولئك ، وهو رؤيا مثيرة عند هؤلاء .  
ولانى واحد من أولئك الذين تغيروا بنظرية داروين . . . لأن التطور عندى مذهب سام ، فلدس نفسى وغيرنى ووجهنى . وهوليس عندى تفكيراً فحسب ، وإنما هو إحساس وعاطفة وحب وروحية . فقد كان سبينوزا يقول بالوحدة الوجودية على نحو من المذاهب الصوفية الشرقية ، ولكنه فى ذلك لم يستطع سوى إيجاد الفكرة والفلسفة إذ لم يكن هناك من الأدلة المادية الحسية ما يثبت قوله . أما نظرية التطور فإنها قد غلفت عقولنا ثم استقرت فى عواطفنا ، فهى إحساس وشهوة تنبض بهما عروفاً وتحقق بهما قلوبنا .

ولانى حين أقعد تحت ظل شجرة خضراء وأستسلم للأفكار الخضراء أحس ، بدافع من هذه النظرية ، بتلك الوحدة الوجودية حتى لأقول كما كان يقول ذلك القديس المسيحى : أخى الطير وأخى الشجر وأخى الوحش . بل أحس كأنى أريد أن أنكب على الأرض كما كان يفعل « اليوشا » فى قصة « الأخوة » لدستوفسكى . . هذه الأرض الطيبة ، هذه الأم القديمة .

وهذا كتاب واحد من عشرات الكتب التى غيرتنى . ولم يقتصر التغيير على العقل إذ قد تجاوزه إلى النفس . . فتغيرت رؤياى للعالم وتغيرت نفسى ومزاجى وعاطفتى . وهو تغيير يحسبه الجاهل كفراً وأحسبه أنا إيماناً .

وهناك كما قات عشرات من الكتب البذرية التى تنمو وتتفرع وتتوالد فى كثرة لم يكن يتوقعها حتى مؤلفها .

اعتبر الفكرة البذرية فى أحد مؤلفات برنارد شو ، وهى أن البشر



يجب أن يهدفوا إلى استنتاج السبرمان الذى سوف يتفوق علينا ذهنياً وروحياً وجسدياً بمقدار ما نتفوق نحن على القردة . ما أطيبها من فكرة وما أبرها من مذهب لإنها مذهب من أرقى المذاهب البشرية الجديدة .

أو اعتبر الفكرة البدنية فى كتاب أينشتين . هذا الكون الدائرى ، وهذه الطاقة الذرية ، وهذه المادة التى تذوب فى الطاقة ، وهذه الطاقة التى تتكاثف إلى المادة .

بل اعتبر هذه القوة الجديدة فى هذا العلم الجديد : « علم الطاقة الذرية » . فإن المفكرين الذين أحزنهم وهذضوا فرهم إلقاء القبلة على هير وشما يسمعون الآن فى طرب محاولة الروس نقل المياه التى تذهب عبثاً وخسارة إلى المحيط القطبى الشمالى إلى بحر قزوين المتناخم لإيران حيث تروى خمسة ملايين فدان تستحيل من صحراء قاحلة كالحلة إلى أرض نضرة تبسم بالخيرات .

وكل هذا من أثر الكتب . لإنها لكتب مقدسة هذه التى تغير الدنيا وتغير اللفتة البشرية ، كتب داروين ، ولا مارك ، وأينشتين ، وتولستوى ، وبرناردشو ، وغاندى وأمثالهم من الذين يرسمون لنا خطوات الفهم والشرف نحو المستقبل . والذهن الذى تربى على هؤلاء المؤلفين ، وأكل وهضم من مؤائدهم ، يصبق بصقة الاحتقار على دعاة الرجعية من الكتاب التافهين . .

والذهن الذى تربى على هؤلاء المؤلفين وأمثالهم لا يستطيع أن يتسامح فى جريمة القتل أو الفسق أو البطش أو الخيانة . ولكنه يعرف أن هناك جريمة تعلمو على جميع هذه الجرائم فى الحسة والنذالة والحقارة والخيانة ، هى الحجر على ذهن البشرى ومنعه من التطور بتعيين الكتب التى لا تقرأ .. هذه هى الحياة الكبرى للإنسانية .

والحكومة التي تفتري على مثل هذه الخيانة ، فتمنع كتاباً قيماً من الدخول إلى بلادنا ، أو من الطبع أو التداول ، هي حكومة تخون الإنسانية وتنتهك الفكر البشري المقدس . وهي بهذا الانتهاك تقاوم الفهم والدكاء عند أبناء الشعب كأنها تحاول أن تجعلهم بالمداء أغبياء .

\* \* \*

من الأسئلة التي يضعها كاتب سخييف لقراء سخفاء هذا السؤال : لو أنه حكم عليك بالانفراد سائر عمرك في جزيرة أو سجن ، أى كتاب كنت ترغب في اقتنائه حتى تأنس أو تنتفع به ؟ وسخف هذا السؤال يرجع إل أن العقل العصري الراقى قد أصبح عقلاً مركباً يحتاج إلى التناقض والتناسق ، وإلى المنطق والإيمان ، وإلى الخيال والتعقل ، وإلى التحليل والتركيب ، وإلى الحقائق الموضوعية والأفكار الذاتية . وكل هذا لا يمكن أن يحويه كتاب واحد .

ونحن نختار الكتاب في العادة كي نتزيد في معارفنا ، ولكن المعارف الموضوعية هي المادة الخام للثقافة . إذ ليست الثقافة معارف فقط ، وإنما هي موقف واتجاه وعواطف وعادات في الحياة والممارسة الفلسفية . وصحيح أن كل هذا ينبني على المعارف الموضوعية ، ولكن هذه المعارف هي الدرجات الأولى أو الأسس التي نبني عليها حياتنا الفلسفية . وهناك من الأدكياء من حظوا بمركبات نفسية تبعثهم على الاستطلاع ، فيجدون فيها الإيحاء والتوجيه دون الحاجة إلى من يرشدهم . ولكن معظم القراء يحتاجون إلى المؤلف الذي يثير الاستطلاع ويبحث إليهم بالحمائر ويوجه ويرشد ، إما لأنهم ليسوا على درجة عالية من الدكاء المتسائل ، وإما لأنهم قد خلوا من تلك المركبات النفسية التي صادفت غيرهم لاختبارات أو كوارث وقعت بهم فكانت المنبه والمحرك لنشاطهم الذهني .

والمؤلف العظيم الذى يعلمنا هو ذلك الذى يستنبط من المعارف موقفاً فلسفياً جديداً ، أو خطة واتجاهاً جديدين ، للفكر البشرى . والكاتب هو الذى يوجهنا أو يغيرنا ، وأحياناً يتغير القارئ لأنه انساق فى موجة جديدة قد أحدثها كاتب عظيم قد لا يعرفه هذا القارئ ولكن الموجة التى مست غيره قد انتهت إليه فأثرت فيه وأحدثت وقعاً جديداً فى نفسه وعقله .

وليس كل منا ، كما قلنا ، قادراً على الاستنباط الفلسفى من المعارف . أو ليس قادراً على الاستنباط الأمثل . ولذلك نحن نحتاج إلى المؤلفين المستنبطين الذين يبسطون أمامنا آفاقاً جديدة ، أو يرشدوننا إلى دلالات أخرى غير ما تعودنا ، أو يبرزون لنا الفكرة الإيمائية من بين العشرات من الأفكار المألوفة .

وقد تغيرت الثقافة بهؤلاء الكتاب الإيمائيين من عصر لآخر . وبعض العصور يساعد على هذا التغيير ، لأنه بمركباته الاجتماعية المتغيرة ينشط الدهن بل أحياناً يلهبه . فى حين أن العصر الزراعى مثلاً يعمم الركود ، فلا ينه المؤلف . ولذلك يكثر مؤلفو التاريخ ودعاة التقاليد فى المجتمع الزراعى الراكد . أما المجتمع الصناعى أو التجارى المتغير فإنه يبعث المؤلف على بحث الأخلاق والعقائد والأفكار ، وقد يهتدى فى هذا البحث إلى ما يلائم من خطة أو فلسفة أو وجهة جديدة . وهذه هى النهضة .

وحيث تكون النهضة ، كما فى إيطاليا فى القرن السادس عشر ، أو فرنسا فى القرن الثامن عشر ، نجد التساؤل والاستطلاع . ثم الاستنباط تحليلاً وتركيباً . فالمؤلف يسلط النور والحرارة معاً على المجتمع المتغير الذى يعيش فيه ، فيؤلف عن وجدان اجتماعى وإحساس روحى واختلاق فنى . وقد يحدث من ذلك أحياناً اختلاط وفوضى ، ولكنهما

ليسا أمانة الانحلال وإنما هما علامة النشاط في مجتمع يمرح مرح الطفولة التي تنزخر بالحياة .

وهذا بعكس المجتمع الزراعي حيث ركود التاريخ والتقاليد . فإن مثل هذا المجتمع لا يربى المؤلف المجدد ، بل هو قد يمنع الكتب التجديدية الأجنبية من الانتشار ، ويحظر التفكير في ميادين دينية أو اقتصادية أو اجتماعية . إذ هو كالمرضى يكره الحركة ولا يتمنى أكثر من الهدوء ، ولو كان هدوء الموت . ذلك لأنه لا يجد في هذا التجديد ما ينهيه تنبيه الصحة ، ولكنه يجد فيه ما يزعجه بل يزلزله .

وعلى القارئ أن يختار الكتب كما يختار المعامين والأصدقاء الذين ينشد فيهم النور والنار معاً . وهذه الكتب هي التي تخرج به عن مألفه . وكما يخرج الفقير الذي يعيش في زقاق محدود إلى الحقول ، فيتنعش ويتنفس الهواء الجديد ، كذلك يجب على القارئ أن يخرج عقله من المعارف المألوفة ، أى من الطريق الدهس ، إلى تلك الآفاق الرحبة حيث النور والهواء المنعشان . أجل ، وحيث الوعورة في الطبيعة البكر التي تبعث على التفكير البكر الوعر .

ولكل عصر مناخه الثقافي ، ولكننا نعيش في مصر في مناخ لا يلائم القرن العشرين ، وإنما يلائم القرن العاشر . أجل نحن في عقم ثقافي . ومن هنا كان تخلفنا الاجتماعي والاقتصادي . ومن هنا أيضاً تفاهة التفكير ، في المفكر التافه ، حين يقول إن الطربوش شعار وطني أو إن المكان الطبيعي للمرأة هو البيت ، أو حين يتحدث عن الكم الطويل والكم القصير ، كأن هذا الموضوع يرتفع في اعتباره إلى مقام المشكلة الفلسطينية .

ومرجع هذا أن هؤلاء المساكين لم يرتقوا بكتاب توجهي ينقلهم من الركود إلى النشاط ، ولذلك كثيراً ما أقعد إلى أحد هؤلاء فأجد أنه

قد بلغ الستين من السن الزمنية ، ولكنه لا يزيد على صبي في العاشرة من حيث النضج السيكلوجى . .  
ولا أستطيع أن أقول إن الكتب العربية ترتفع إلى مقام يتيح لها تخريج الرجل الناضج الذى يتساءل ويستطلع ، وإن كان هناك قليل من الكتب المترجمة قد يؤدى هذه الخدمة . وقد كان فى مقدورنا أن نترجم نحو مائة كتاب عالمى من تلك الكتب التى غيرت المجتمع ووجهته . ولكن نجتهدنا الزراعى الحاضر يكره هذا التغيير وهذا التوجيه . ولذلك أقول مرة أخرى إننا فى عقم ثقافى لا نأد ولا نتوالد ، ولذلك أقول أيضاً فى صراحة مؤلمة إن الفارئ المصرى لن يكون متديناً ، على ذكاء نشيط وعلى ثقافة عصرية ، إلا إذا درس لغة أوربية واستمد منها حاجته من الكتب العظيمة والمؤلفين العظماء الذين يستنبطون الفكرة الخصبة من المعارف الخامة فينعطف التاريخ ويتغير وجه الأرض . وهؤلاء هم المؤلفون الإيمانيون .

وقد قرأت فى حياتى مئات الكتب التى زادت وجودى فى الدنيا والتى نحت وتربيت بها . وقد اخترت من مؤلفيها بضعة عشر كان لهم الأثر الأكبر فى ترتيب ذهنى وتنظيم ثقافى . ولكن اختياري لهم لا يعنى أنى أشير على القارئ أن يقرأهم ويعرفهم ، لأننى إنما أردت أن أبسط له بعض الأسباب والنشائج فى تكوين شخصيتى ، وأن أشير إلى الأعلام البارزة فى رحلتى الثقافية عبر عمر قد تجاوز السادسة والستين . وبعض هؤلاء المؤلفين قد عرفتهم قبل أربعين سنة . وإنى بالطبع لا أذكرهم هنا إلا لأنهم كانوا اختبأراً عميقاً أثر فى نفسى طوال هذه السنين . وللقارئ أن ينتقد ، وأن يعرف من إصابانى كيف أصبت ، ومن أخطأتى كيف أخطأت . ثم بعد ذلك عليه أن يستخرج العبرة ثم يستطلع ويتساءل ويختار . ثم يشق طريقه بنفسه .



## فولتير معظم الحرافات



يهفو الذهن إلى ذكرى فولتير كلما هبت على الأمة عواصف الظلام  
التي تقيد الحرية وتسوخ الاعتقال وتمنع الكتب وتراقب الصحف وتضع  
الحدود والسادود للعقول، وتنهك النفوس البشرية بأفطع مما ينهك الفاسق  
الأجسام البشرية .

ذلك لأن فولتير عاش من أجل الحرية . وكانت إيماءة حياته  
احترام الإنسان وكرامته الناس وحريتهم . ومن الحسن أن نقرأ تاريخه ،  
ومن الأحسن أن يقرأه أولئك الذين حملوا النيابة العامة في مصر على  
أن تقوم بأكثر من أربعمائة تحقيق مع الصحف في أقل من سنتين بين  
سنة ١٩٤٤ و ١٩٤٦ ، ثم بعد ذلك منعوا بعض الكتب الأوروبية من  
الدخول إلى مصر ، كما منعوا بعض المؤلفين من طبع مؤلفاتهم ونشرها .

ولد فولتير في عام ١٦٩٤ ومات في عام ١٧٧٨ . وتغير تاريخ أوروبا بحياته ، إذ نقل هذه القارة من التعصب إلى التسامح ومن التقييد إلى التحرير . وغرس بذلك شجرة الديمقراطية ، وحمل على العقائد والخرافات الضارة محطماً ، كما بسط الآفاق لحكم العقول ، فظهرت الحكومات المدنية العصرية .

وقد كان فولتير يمثل الطبقة الجديدة البازغة ، طبقة الصناعيين والتجارين الذين شرعوا يأخذون مكان النبلاء في المجتمع الأوروبي ، ومن هنا كان إحساسه بضرورة الحرية واحترام الكرامة البشرية عميقاً ، لأن النبلاء الإقطاعيين كانوا يستبدون الفلاحين . وعاش فولتير طوال عمره وفي نفسه حزاة ، فإن أحد النبلاء استطاع أن يحبس في سجن الباستيل وأن يراه وهو يجلد انتقاماً منه لبطشة أبيات من الشعر ألفها عنه فولتير . وقد خرج من السجن وهو يبغض النبلاء ويدعو إلى إلغاء النظام الإقطاعي . وسافر إلى إنجلترا وبقى بها أربع سنوات ، فأعجب بشيئين هما الدستور الإنجليزي الذي ينص على أن الحكم للشعب ، وأيضاً العالم الرياضي نيوتن . ولما عاد إلى فرنسا دعا إلى الأخذ بقواعد الدستور الإنجليزي في الحكم . ولو أن الحاكمين تنهوا في ذلك الوقت إلى قيمة هذه الدعوة لعملوا بها . وعندئذ كانوا يتفادون بلا شك من جموح الثورة الفرنسية الكبرى .

وأشوأ ما تصاب به أمة أن يتحد الدين مع الاستبداد ، وأن يتحالف الطغاة مع الكهنة ، بحيث يستند الدين إلى قوة البوليس ، ويستند الاستبداد إلى أساطير الدين . وهذا ما فشا في فرنسا في القرن الثامن عشر . فقد صدر قانون في عام ١٧٥٧ بإعدام المؤلفين الذين يهاجمون الدين . وصحیح أن هذا القانون لم ينفذ ، لأن الذين وضعوه أحسوا بالأخطار التي يستهدفون لها إذا جرموا على تنفيذه ، ولكن حركة التأليف وقفت أو كادت



بسبب هذا القانون . واستمر إحراق الكتب إلى عام ١٧٨٨ أى قبل الثورة عام واحد .

ولكن فولتير استطاع أن يخرج العشرات من الرسائل الحرة بأسماء مستعارة ، أى مزورة ، كى ينجو من خطر الإعدام . وكان فى هذه الرسائل يعظم الأساطير ويعمل على الطغيان الحكوى والكنسى ، وقبل كل شىء يدعو إلى التسامح ، وأن الناس إخوة ولو كانوا مؤمنين أو ملحدين ، مسيحيين أو مسلمين يهوداً ، أو بوذيين .

ولتى فولتير عنتا فى دعوته إلى الحرية ، وخاصة حرية العقيدة ، لأن الكنيسة الكاثوليكية كانت تحالف فى أيامه الحكومة الفرنسية ، وكانت تحمل الحكومة والشعب معاً على التعصب وإيذاء غير الكاثوليك . . وقد كتب فولتير بقلمه وأنفق من ماله كى ينقذ العائلات التى وقع بها الاضطهاد الدينى وكى يدعو إلى التسامح وحرية العقيدة .

واحتال كى يعيش وكى يرصد حياته للكفاح فى سبيل الحرية . وكان من احتماله أن اشترى أرضاً فى سويسرا وأرضاً أخرى فى فرنسا . وكاننا تتجاوران . وذلك ترقباً للاضطهاد من إحدى الحكومتين السويسرية أو الفرنسية. بحيث يستطيع الفرار إلى فرنسا إذا وجد الحملة عاياه من الأولى ، أو إلى سويسرا إذا وجد الحملة عليه من الثانية .

وعاش على هذه الحال السنين الطويلة كى يؤدى رسالته ، وهى صيانة الحرية من الوحوش الآدميين الذين كانوا يكرهون من لا يؤمن بإيمانهم .

وقد كان فى باريس شىء يسمى « برلمان » ولكنه لم يكن يمثل الشعب ، ولذلك كان أعضاؤه يسهرون وينقادون إلى دعاة الاستبداد من الحكومة والكنسية معاً . وقد عنى هذا « البرلمان » بأن يعرق قصيدة لفولتير !

وَأَلَفَ فُولْتِيرَ المَعْجَمَ الفَلْسَفِيَّ ، فَنَعَتِ الحُكُومَةُ الفَرَنْسِيَّةُ . بَلْ ، عَظُمَ  
الحُكُومَاتِ الأورَبِيَّةُ ، تَدَاوَلَهُ وَحُكِمَ عَلَى مُؤَلَّفِهِ بِالكُفْرِ .

وَشَاعَتِ لِفُولْتِيرِ أَخِيرًا شُهْرَةٌ بِأَنَّهُ زَعِمَ الحُرِّيَّةَ ، فَكَانَتْ تَصِلُ إِلَيْهِ  
شَكَوَاتُ المَظْطَهْدِينَ مِنَ الأَحْرَارِ مِنْ جَمِيعِ الأَقْطَارِ يَطْلُبُونَ مِنْهُ الدِّفَاعَ  
وَالْإِسْعَافَ . وَكَانَ يَجْمَعُ لَهُمُ المَالُ كَمَا يَنْقُذُهُمْ مِنَ حُكُومَاتِهِمْ وَمِنْ  
كُنَائِسِهِمْ .

وَمَا زِلْنَا إِلَى الآنَ نَسْمَعُ عِبَارَةَ فُولْتِيرِ : « اسْحَقُوا الخُرَى » . وَهَذَا  
الخُرَى هُوَ اضْطِهَادُ الأَحْرَارِ المُخَالِفِينَ لِلْكَنِيسَةِ .

وَمَعَ كُلِّ مَا أَتَاهُمْ بِهِ فُولْتِيرُ لَمْ يَكُنْ كَافِرًا ، فَإِنَّهُ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ  
أَعْظَمَ الإِيمَانِ . وَلَكِنَّهُ كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ الكَنِيسَةَ يَجِبُ أَلَّا تَحْتَكِرَ الدِّينَ .  
وَأَنَّنَا يَجِبُ أَنْ نَكُونَ « لِلْهَيْئِ » قَبْلَ أَنْ نَكُونَ مَسِيحِيَّينَ أَوْ يَهُودًا أَوْ  
هِنْدُوكِيَّينَ . وَهُوَ يَقُولُ إِنَّ :

« كَلِمَةُ الإِلَهِ هِيَ الوَصْفُ الوَحِيدُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَتَصَوَّرَ بِهِ  
الْإِنْسَانُ ، وَالكِتَابُ الوَحِيدُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَقْرَأَ هُوَ كِتَابُ الطَّبِيعَةِ . وَالدِّيانَةُ  
الْوَحِيدَةُ هِيَ أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ ، وَأَنْ يَكُونَ لَنَا شَرَفٌ وَأَمَانَةٌ . وَهَذِهِ الدِّيانَةُ  
الصَّافِيَةُ المُخَالِدَةُ لَنْ تَكُونَ سَبَبًا لِلْأَذَى » .

وَكَانَ فُولْتِيرُ يَرَى اللَّهَ فِي كُلِّ مَخْلُوقٍ ، حَتَّى قَالَ : « إِنَّ فِي البَرَاهُوتِ  
شَيْئًا مِنَ الأُلُوهِيَّةِ » .

وَكَتَبَ عَنْ نَفْسِهِ فِي المَعْجَمِ الفَلْسَفِيِّ يَقُولُ :  
« إِنِّي أَجْهَلُ كَيْفَ تَكُونُ وَكَيْفَ وَلَدْتُ . وَقَدْ قَضَيْتُ رُبْعَ حَيَاتِي  
وَأَنَا أَجْهَلُ تَمَامًا الأَسْبَابَ لِكُلِّ مَا رَأَيْتُ وَسَمِعْتُ وَأَحْسَسْتُ . وَكُنْتُ  
بِبَغَاءٍ تَلْقَنِي بِبَغَاوَاتٍ أُخْرَى . وَلَمَّا حَاوَلْتُ أَنْ أَتَقَدَّمَ فِي الطَّرِيقِ الَّذِي  
لَا نَهَايَةَ لَهُ ، لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَجِدَ طَرِيقًا مُجِيدًا وَلَا هَدَفًا مُعَيَّنًا ، فَوُثِّتُ وَثْبَةً

أنامل الأبدية ولكننى سقطت فى هوة جهلى » .  
والواقع أننا حين نتأمل حياة فولتير نجد أن الكنيسة الكاثوليكية  
قد انتفعت بعداوتها لها لأنها كفت عن اضطهاد المخالفين . وكان هذا  
الاضطهاد أكبر ما توصم به فى القرن الثامن عشر كما كان أكبر ما يعمل  
لفسادها .

وكذلك انتفعت بفصلها من الدولة ، لأن اعتلاء الدين للدولة يضر  
الدين ويحطه ، إذ يغنيه عن القوة الروحية والأخلاق السامية بما يستمتع  
به من قوة بوليسية وحماية قانونية . والدين يجب أن يتجرد من أى سلطان  
مادى<sup>[١]</sup>، أى حكوى أو بوليسى ، حتى يستنبط قواه الروحية المستقلة  
ويصل إلى القلوب عفواً دون مساعدة خارجية .

وهذه هى مهمة فولتير التى عامها لأوروبا ، مهمة الحرية الفكرية  
وفصل الدين من الدولة .

وليس لفولتير عبء أو دلالة واحدة لعصرنا ، وإنما له عبء ودلالات  
كثيرة ، فإننا نفهم منه أن حرية العقل وحرية العقيدة ، وحرية  
الضمير هى أئمن ما يملكه البشر .

وأن الحكومة أو الهيئة التى تنتهك هذه الحريات ترتكب أفعال  
الجرائم ، وهى جريمة الخيانة للروح البشرى . وعبء أخرى نستخلصها  
من حياته هى أن الأديب ليس رجل القلم والحبر ، وتقليب الكتب واجترار  
الأقوال القديمة ، وإنما هو المكافح المبتكر الذى يشترك فى هموم البشر  
واهتمامات المفكرين دعاء التطور والرقى . وأن أدباء البرج العاجى الذين  
يقفون بعيداً عن معترك الحياة الاجتماعية والأخلاقية والسياسية لا قيمة لهم  
ولا منفعة منهم . بل هم بمثابة الجندى الفار من المعركة .

وعبء ثالثة هى أن بؤرة الأديب شخصيته ، من حيث إنه يكتب عن

إحساس ووجدان بما يحس ويعد . ثم يصدر عن ذلك مفكراً للتنظيم والتوجيه . ولذلك قيل إن أسلوب الكاتب هو شخصيته أو هو أخلاقه . ومن الخيال أن يقنعا كاتب فاسق بضرورة الطهارة . أو كاتب يتعاق بالمستبدن وينتفع منهم بضرورة الديمقراطية .

ولقد عشت حياتي وهنت أيا هناء، وتعزيز أحيانا أيا عزاء، بمرافقة قولير وتأمل كلماته وتتبع حياته في أخطائها وأخطارها وتطوراتها . وعرفت منه معرفة الإحساس والوجدان معاً أن حرية العقل هي قدس الأقداس في النفس البشرية .

كانت حياة قولير كفاحاً نجح فيه . ورد إلى الإنسان حربته بعد أن كانت قد حرمتها إياها الكنيسة والدولة . واستطاع أن يحمل جماهير أوروبا على الإيمان بالطبائع بدلا من الغيبات إلى حد بعيد . كما استطاع أن يرد إلى التاريخ مكانته ، وأن يجعل للتقريب التاريخي فضل الاهتمام إلى الحق والباطل في العقائد . ودعا إلى العقل دون العفوية . وأكبر لذلك من شأن « بيكون » داعية التجربة و « ديكرت » داعية العقل . وكان على وجدان برسالته التاريخية من حيث إنه رائد العصر الجديد ، عصر العقل والعلم . وقد كتب في عام ١٧٦٠ إلى « هيلفيتبوس » يقول : « إن هذا القرن بدأ يرى انتصار العقل » .

ولقد عشت في هذا الوطن الأسيف ، مصر ، نحو ثلاثين سنة من عام ١٩١٤ إلى عام ١٩٤٩ في أسر الأحكام العرفية والرقابة القلمية ، وذلك كي يعبش المستعمرون من الإنجليز . والمستبدون من المصريين . وهم في تحالف لمنع الحريات عن الشعب . وقد ألقت كتابين عن الحرية هما « حرية الفكر » وهو تاريخ للأبطال الذين كاضحوا التعصب والاستبداد والرجعية والجهل . ثم « حرية العقل في مصر » وهو دعوة إلى إلغاء إدارة المطبوعات التي تمنع إصدار الجرائد والمجلات إلا بعد تأدية غرامت.

مالية ( فى صورة نأمين ) وفى كلا الكتابين أنعام تتردد من ذكرى فولتير .

وفد كان فولتير يقول : « إني هالما أتعلمق ، ولكنى واضح الفكره على اللوام » . وهذه كلمه أستطيع أن أقولها أنا أيضاً . وإذا كنت فى حياى الأدبية فد وصلت إلى أن أختص بأسلوب ، فإنى أعترف هنا بأنى لم أذهب فقل إلى هذا الهدف . وإنما كانت غايى أن أصل إلى السهير البلى الذى يوضح فكرى . وأظن أنى نجحت فى ذلك .

وعند الفرنسيين مثل يقول : « ما ليس واضحاً لبس فرنسيّاً » . ولهم الحق فى ذلك . وهذا الوضوح يعزى إلى التزامهم المنطق السليم الذى تعلموه من فولتير وأمثاله .



## حيته ... الشخصية العالمية



المشهور عن حيته أنه أديب عظيم . وقد نقل إلى اللغة العربية من مؤلفاته قصة « آلام فرتر » ، ودرامة « فاوست » ، وله أشعار رائعة تذكر أبياتاً وقصائد ، لأن كثيراً من سطورها يحوى الحكمة العالية .

وقد كان حيته يكتب يومياته . أى أنه كان يدون الحوادث التى مرت به فى أيامه يوماً بعد يوم ، كى يحاسب نفسه على ما أنجز من أعمال . ونحن ننقل هنا يومين فى حياته كما دونهما .

\* \* \*

فى الصباح انتهيت من المقطوعة الرابعة وأرسلتها للنسخ .  
قرأت « فروشموذر » عن أنواع الحشرات .  
تجارب فى الكهربية الجلفانية .

فى المساء مع شيلر : أثر العقل والطبيعة فى سلوك البشر .  
ثم فى الصباح المبكر صمحت فصيدتى . . ثم قمت بتشريعات  
الضفدع .

استراحة فى الصباح فى حديقة شيلر الجديدة . . . نتحدثنا عن  
تخطيطها . . . وقبل ذلك أعدت النظر فى المقطوعتين الأولى والثانية .  
وفى الصباح صنعت جدولاً للألوان .

" " "

والمأمل لهذه التدوينات فى يومين من أيام جيته يحتاج إلى التساؤل :  
أديباً كان جيته أم عالماً ؟ وهذا السؤال هو موضوع بحثنا هنا .  
إن عبقرية جيته لم تكن فى الأدب أو العلم أو الفن . وإنما كانت  
فى شخصيته . وصحيح أن له مآثر فى هذه الثلاثة . ولكن مآثرته الأولى  
هى شخصيته . فقد عيب عليه ذات مرة أنه لا يعنى كثيراً بموهبته فى  
الشعر والأدب ، فكان جوابه : إن من حق أن أعنى بشخصيتى ، وهى  
أكبر من أدبى .

إن همّ الأديب الصغير أن يصقل قصيدة أو يحسن تأليف قصه  
أو مقال ، ولكن هم جيته كان تأليف شخصيته وتربته نفسه .

وجمهور القراء يعرف أدب جيته . ولكن قليلاً منهم من يعرفون  
أبحاثه العميقة فى العلوم . فإن له مكتشفات فى الجيولوجية والبيولوجية  
والبصريات ، وقد سمى نوع من الصخر باسمه برهاناً على فضله فى  
الجيولوجية . وكان كبير الاهتمام بأصل الأنواع . وهى المشكلة التى أرصد  
« داروين » بعد ذلك حياته لحلها وقد استطاع جيته أن يكشف عن أن  
المخ هو امتداد للنخاع الشوكى . وما يذكر عنه عقب هزيمة نابليون  
أنه قدم إليه نبيل ألماني ، فسأله عن رأيه فى الزعزعة الجديدة التى تعم



أوروبا . فأجابه النبيل بأن «الحلفاء» قد ساءوا نسبة في مؤثرهم وأن نابليون . . .

ولكن لم يكد السيل يتم حملته حتى صاح به حينه : لا أشأ عن هذا . لست أبالي هذا . إنما أسأل عن هذا الخلاف بين سنتين وكوبه ولا مارك عن أصل الأنواع وتطورها .

وكان هذا الموضوع يزعزع نفس جيته . وكان يهتم به أكثر من كره يهتم بالسياسة الأوروبية التي زلزلها نابليون . ومن هنا اهتمامه بتربية الحشرات وتشريح الضفدع والطاقة الكهربائية . إلخ .

• • •

ومن الخطأ أن يقال إن جيته كان يهتم بالآداب والعلوم . لأن همه الأول كان بالحياة . فكان يحب ويختبر ويسبح ويملا المصائب الحكومية . بل إنه لم يجعل الأدب أو العلوم هدفاً . لأن الهدف الوحيد الذي سدد إليه نشاطه هو شخصيته ، وتعبيره حين كان يقول إنه ينشئ «هرم» شخصيته ، يدل القارئ على أن الثقافة كانت عنده وسيلة ونيس عية .

وإذا كان لكل كاتب عظم رسالة ، فإن رسالة جيته لم تكن لشعر أو القصة أو العلوم وإنما كانت الشخصية باعتبارها التحفة الأولى للإنسان المثقف الذي يحيا حياة الوجدان والعقل . ومن هنا كلمة «برانديس» الأديب الدانمركي : إن حضارة الأمم تقاس بمقدار تقديرها لجيته .

والمعنى أن الأمة التي ارتقت في ثقافتها إلى المرتبة التي تستطيع أن تفهم فيه أن رسالة الحياة هي الحياة نفسها . هي الأمة الراقية . أما إذا كانت تجعل الحياة وسيلة لأشئ نشاط أو هدف آخر . مثل الثقافة أو الصناعة أو الثراء أو غير ذلك . فهي غير راقية . بل إنما حين نقول إن الحياة هي الهدف إنما نستوعب بهذا التعريف جميع الألوان الأخرى

للنشاط البشرى . ونستوعبها مع ذلك فى تناسق تتفق والحياة العالية .  
وستبقى قيمة جيته خالدة على هذا الأساس ، وهو أننا يجب أن نحيا  
حياتنا فى تعلم واختبار واستمتاع .

ولد جيته فى سنة ١٧٤٩ ومات فى سنة ١٨٣٢ . فعاصر روسو  
وديدرو وفولتير ودالمبير . هؤلاء النحوم الذين أحدثوا النهضة الأوروبية .  
الثانية . ثم رأى مناض العصر الحديدى فى الثورة الفرنسية ، وفى سهاياها  
الساطع نابليون . ورأى - عقب هزيمة نابليون فى عام ١٨١٥ - المؤتمرات  
الأوروبية تولى إلى الاتحاد الأوربى . بل لقد رأى هذه الفكرة تختتم  
أيام نابليون .

أجل إنه عاش فى عصر عاصف . ولكنه لم يترك العواصف تمر  
به وهو جامد ، بل استجاب لها وتفاعل معها ، وقد درس القانون فى  
الجامعة ، وعرف دوق فيار الذى أحبه وعينه وزيراً لهذه الدوقية الصغيرة .  
ولم يقبل جيته هذا المنصب لما فيه من أهبة ، وإنما قبله لأنه وجد فيه وسيلة  
للتدخل فى السياسة الأوربية وفهمها . وزار إيطاليا ، فعرف فيها  
جمال الشمس وجمال الفن . وتزوج . واستمتع بمسرات العائلة  
كما كابد همومها . ومارس الزراعة واقتنى ضيعة ، وأشرف على المسرح .  
وأحب فتاة حباً كان يحملها على البكاء وهو فى السبعين .

وكان مفرحاً يحب الاجتماع . ولكن هذا المزاج المرح كان أحياناً  
— كما هو الشأن فيه — يحملها على الاعتزال والاعتكاف . ولكن أوقات  
نشاطه وإطامه كانت تنحصر فى أيام المرح والاجتماع .

\* \* \*

من علامات النضج فى الإنسان أن يميز بين المعارف والحقائق  
إذ ليس كل ما نعرف حقيقةً .

وأن يجمع معارفه واختياراته في فلسفة أو دين . أى يستخرج العبرة البشرية والسلوك الأمثل مما عرف واختبر .

وأن يعتاد استخراج الكليات من الجزئيات بحيث لا يشتغل بالشجرة قدر ما يشتغل بالغابة .

وأن يحس حركة التاريخ في كل يوم من أيامه .  
وأن يكون على إحساس واتصال بالدنيا ، هذه الدنيا ، وهذا الكون .

وأن يكون مند وصل بما لديه من حقائق وبما تربى عليه من تفكير في الكليات إلى تفاؤل بمستقبل البشر .  
فالرجل الناضج هو الرجل المتفائل . وتفاؤله يحمله على كفاح ما لمصلحة البشر .

والرجل الناضج متدين . يحترم الحياة .  
وكي نحترم الحياة يجب أن نعمل لرقمها ونطورها إلى أعلى .  
ومقياس العاو في التطور هو مقياس بشرى على كل حال .  
وفد كان جيته يجمع كل هذه الصفات التي يتكون منها الرجل الناضج .

° ° °  
ومن علامات النضج في الإنسان أن يرتفع من هومو الشخصية إلى الاهتمامات العالمية .

ومن علامات النضج في الأديب أن يرفع الأدب من آراء وإحساسات تكتب إلى ممارسة في الحياة . ففن الكتابة عنده يستحيل عندئذ إلى بعض الفن في حياته هو . ومن علامات النضج أيضاً أن يتعرف الأديب إلى قوات الخير البازغة فيؤيدها وينضم إليها ويكون من جنودها أو قوادها .

وقد حقق جيته كل هذه الأنواع الثلاثة من النضج ، فإن اهتمامه بالعالم طغى على كل اهتمام شخصي آخر : نظرية التطور . قناة السويس اتحاد أوروبا . الديانات الشرقية .

وحقق الفن والحب فى حياته ، فإن كلمة الحب لم تكن من كلمات القصص التى كان يؤلفها وإنما كانت عاطفته الغالبة التى كان يمارسها . وقد عاش فى أيام الانتقال من حكم البلاء والنظم الإقطاعية إلى حكم الصيرافة والصناعيين والتجارين ، هذا الحكم الذى عمم الديمقراطية والحرية فانضم إلى هذه القوة الجديدة ودعا إلى تأييدها . بل إننا نستطيع أن نجد هذا الاتجاه فى قصته « فاست » ، بل لعل هذا الاتجاه هو التفسير الحقيقى لهذه القصة .

وهناك بالطبع من يسأل عن مذهب جيته فى الحياة والأدب والحضارة . ولكننا نحن الذين أحببنا جيته لا نكسب منه معارف ، لأن معارفنا أكبر جداً من معارفه ، كما هى أكبر من معارف أرسطوطاليس أو أفلاطون وإنما نحن نكسب منه منهج الحياة الذى اتبعه ، وهو منهج التعلم والاختبار والاستمتاع .

نكسب منه الحياة الفنية ، أو كما كان يقول حرية الروح : « إن أى إنسان عرف وفهم مؤلفاتى وشخصيتى حق الفهم يضطر إلى الاعتراف بأننى قد حققت لنفسى حرية الروح » .

• • •

كيف كان يعيش جيته ؟ وكيف كان ينظر إلى نفسه ؟ أى ما مقدار وجدانه بشخصيته ؟

كان جيته ينجش الشتاء لأن النهار يقصر والليل يطول . وكان يتعب من القراءة فى ضوء الشموع . وكان هو الذى يقص بنفسه فتيلة الشمعة .

وكانت آخر كلمة نطق بها قبل الوفاة : « النور » لأن النور كان عنده وسيلة التثقيف والتفكير والحياة الحيوية . ولذلك كان يحب الصيف ويكره الشتاء .

وكان يعيش نهاره كله ، فلا ينام ، أى لا يقبل . وكان يفطر في الساعة الحادية عشرة بفنجان من اللبن والشكولاتة ، ثم يتغذى في الساعة الثانية . ثم يتنزه ، ثم يكون العشاء ، فالقراءة والدراسة .

ولما بلغ الثمانين كتب في يوميته : هل بلغت الثمانين ؟ وهل يجب على ذلك ألا أتغير ، بل أعمل كل يوم مثل اليوم السابق ؟ إلى أحسن كائنٍ اختلف عن سائر الناس وأبذل مجهوداً أكبر منهم كى أفكر كل يوم في شيء جديد ، حتى أتجنب السأم . أجل ! يجب أن نتغير على الدوام وأن نجدد شبابنا على الدوام . وإلا تعفنا ! »

ومن أقواله في شيخوخته أيضاً : « إلى أمتاز بالحظ الحسن في شيخوختي لأنى أجد في ذهني أفكاراً . لو أنى شئت أن أوليها حتى تنكشف لاحتجت إلى أن أعيش حياتي مرة أخرى » .  
وكان يكتب يومياته ، وكأنه يحاسب نفسه على درجات رقيه وبناء شخصيته يوماً بعد يوم .

وكانت حياته خصبة بالحب ، ولم يكن يعرف النسك أو التقشف . ولم تكن فترات اعتكافه عن رغبة في النسك ، وإنما هى بعض المزاج العام في الفرحين وكأنها ادخار للقوة للانتفاع بها أيام السرور .

وكانت اختياراته كثيرة واستمتعته الإحساسية شاملة كما كانت ثقافته موسوعية لم يحصر ذهنه في تخصص . فقد أحس الحب الحنانى وهو في التاسعة عشرة فألف قصة « آلام فرتر » ، ثم جعلها لأنها تحفل بالحنان والياس والضعف . وكان يقوم إنه يخجل منها علماً أينعت شخصيته

وأخذ وجدانه وتعقله مكان إحساسه وعاطفته .

\* \* \*

بدأ جيته حياته الذهنية تتعلم القانون وتأليف قصة الأس والموت في « آلام فرتر » وانتهى في سنى بضجه وإيناعه باتجاه إيجاني بنائي للحياة البشرية فدعا إلى وحدة أوربا ، وألف قصيدة في مدح نابليون قال فيها : « إن الذى يقدر على كل شىء . يقدر أبضاً على السلام » . ما أبدعه هنا ! وكان يفكر فى قناة السويس وقناة بناما . وبشئى أن يعيش خمسين سنة أخرى كى يراهما مخفورتين مسلوكتين . ذلك أنه اتخه الوجهة العالمية . فأصبح يقول ، كما كان يقول شيار : « وطنى هو العالم » . ولذلك صار يهتم بهندسة هذا العالم وتنظيمه كما لو كان مملكته الخاصة .

" " "

جيته هو واحد من أولئك الذين تعلمت منهم . ولم أتعلم شيئاً أو أدباً أو علماً وإنما هو منهج الحياة التى عاشها جيته كان يجهى من وقت لآخر كى أعيش على مستواه .

ولست أجد فى جميع مؤلفات جيته من الشعر أو القصص شيئاً عظيماً سوى القليل من اللائى\* . وهو من حيث الشعر يدمن ذلك الطراز الذى يذكر له البيت الذى يتوهج بالحكمة ، ولا تذكر له القصيدة التى تعالج موضوعاً . ولذلك نحن لا ندهش ولا نتعلم كثيراً حين نقرأ مؤلفاته ، ولكننا نتعلم ونشبه ونحس كأننا كنا نياماً ثم استيقظنا حين نقرأ حياته .

هو منهج الحياة الذى يعيد إلينا ذكر « دافنشى » الرسام المثال الجيولوجى المهندس الفيلسوف الأديب الرياضى العاشق ، الذى تعددت اهتماماته لا لأنه تعمد هذا التعدد ، وإنما لأنه نظر إلى الطبيعة النظرة

الموضوعية الموسوعية التي تثير الاستطلاع وتبهيء المشكلات الثقافية التي يشتغل بها الذهن .

وكان جيته مثل دافنشي ينظر إلى الطبيعة ، بل إلى الفنون ، هذا النظر الموضوعي . ومن هنا زاد استطلاعُه وتعددت اهتماماته ، وأصبحت ثقافته موسوعية . والحق أن الأدب لم يكن عند جيته فنياً ، وإنما كان الفن الذي اهتم به هو فن الحياة . ثم كان الأدب جزءاً من فن الحياة .

\* \* \*

نتعلم من جيته أن غاية الحياة هي الحياة . أي ترقية الشخصية برهيمتنا ، وبسط الآفاق أمامنا للتعلم والاختبار حتى نزداد فهماً لأنفسنا وللطبيعة ، فنزداد بذلك استمتاعاً .

ونتعلم منه أننا يجب أن نؤلف شخصيتنا قبل أن نؤلف أي شيء آخر ليس هناك ما هو أهم منها عندنا . وذلك بأن نطلب الاختبارات . ولو كان الخطر فيها .

ونتعلم منه أن التخصص ضرر ، وأن الآفاق للثقافة لا حد لها . فيجب أن ندرس الأدب كما ندرس الكيمياء والقبلة الدرية . بل كما ندرس جنون الشيزوفرانيا وقوانين الوراثة .

ونتعلم منه أننا يجب أن نشترى الاختبارات إذا لم تصادفنا . فنقرأ ونسبح ونحب ونمارس السياسة ونختلط بالمجتمع ونشتغل برقيقته . ونتعلم منه أننا - حتى في الشيخوخة - يجب أن نستبق شهاب الذهن والعاطفة . ولن يكون هذا إلا بتهيئة سابقة . وأخيراً نتعلم منه أننا أبناء هذا الوطن الكبير : العالم .

\* \* \*

قلنا إننا لا نكسب من جيته معارف ، وإنما ننتفع به من حيث أسلوب حياته : حياة فلسفية تتغذى بالثقافة وتهدف إلى تربية الشخصية

بالتو الذى يستحيل إلى نصيح .

ولكننا مع ذلك نحد أن لجيته عبرته ودلالته فى الموقف الثماني  
الأوربي بين عامى ١٨٠٠ و ١٨٢٩ .

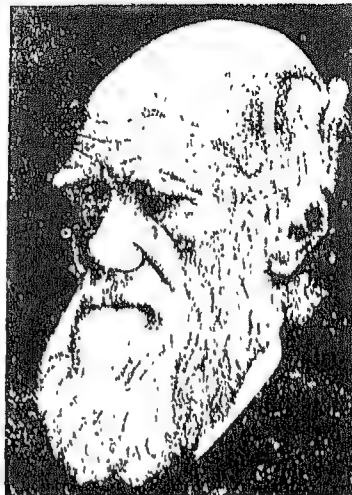
ذلك أن المذهب الانفصالى كان لا يزال قائماً بين النفس والجسد ،  
أو العقل والمادة . وداعية هذا المذهب الثنوى هو أفلاطون الذى فحصل  
بين الفكرة والمادة . وقد أيدت العقائد الدينية هذا الانفصال ، ولكز  
جيته رأى غير ذلك . بل ربما كان هو أول أديب دعا إلى الوحدة الوجودية  
فى أوربا ، أى أن الجحاد والنبات والحيوان والإنسان والمادة والعقل كله  
شئ واحد . وأن الإنسان ليس مخلوقاً منفصلاً وإنما هو تعبير خاص  
للطبيعة العامة التى فى الجحاد والحيوان والنبات ، وأن الحقيقة الأولى فى هذا  
العالم هى التغير والاستحالة . فالطبيعة دائبة فى التغير والتشكل بأشكال  
مختلفة . وأن الفكر البشرى نفسه قد نبع من الطبيعة التى نهضت بالحياء  
الأولى .

وقد قال ذات مرة إن أعظم ما يصبو إليه أن يهتدى إلى قانون شامل  
عام تنظم به التغيرات والاستحالات فى الجحاد والنبات والحيوان  
والإنسان .

ولو كان جيته يعيش فى عصرنا لعبر عن هذه الشهوة بأنه ينشد  
التفسير الدرى للجحاد والحياة والفكر البشرى والماء السائل .  
وهذا هو ما ننشده جميعاً ونوشك أن نهتدى إليه .



## داروين ... عار العائلة



« أنت لا تعنى إلا بصيد الكلاب . واقتناص الجرذان ، وسوف  
تُحوّل عاراً على نفسك وعلى عائلتك » .

هذه هى الكلمات التى تلقاها داروين من أبيه فى وقت كان يلوح لأى  
إنسان يتأمل داروين أنها صحيحة ، وأن هذا الشاب قد خاب الحيلة التامة .  
فقد تسكّع فى دراسات مختلفة ، ولكنه لم يستقر على واحدة منها . فقد  
التحق بكلية الدين ثم تركها ، والتحق بكلية الطب ثم تركها . وفى غضون  
ذلك كان يلعب . أو على الأقل كان يبدو كأنه يلعب . يخرج إلى  
الحقول ويجمع النبات ويصيد الحشرات ويقارن بين الأحياء ، ويفكر  
تفكيراً سرياً كأنه يتأمل على الكون كله ، كى يغيّره أو يغيّر البصيرة  
البشرية فيه .

والآن بعد أكثر من مائة سنة من هذه الكلمات القاسية التي قالها أبوه عنه لا يعد داروس عاراً على عائلته . بل هو فخر أمته يتباهى به التاريخ الإنجائزي . وبعدها نحو خمسين سنة من هذا التوبيخ الأبوي تأمل داروين حياته الماضية . ومبالغ ما أتمه من الخدمة في التوجيه الذهني للعالم فقال : « أظن أن أبى قد قسا على بعض القسوة » .

ومات داروين في عام ١٨٨٢ بعد كفاح ثقافى ملوول . ونحن الآن بعد وفاته بأكثر من نصف قرن . نستطيع أن نقول إنه أكسبنا فهماً جديداً للطبيعة والكون والإنسان . وزودنا بمنهج للتفكير لم نكن نعرفه من قبل . فإن كتابه « أصل الأنواع » الذى أخرجه في عام ١٨٥٩ حمل إلى القراء شيئين : أولهما معارف تكاد تكون حقائق عن أصل الأنواع في الحيوان والنبات . وأنها جميعها ترجع إلى أصل واحد أو أصول قليلة . وثانيهما منهج للدراسة هو أن الاستقرار لا يعرف في الطبيعة . وأن الإنسان والحيوان والنبات في تغير مستمر .

ونحن الآن لا نهالى الحقائق أو المعارف التي شرحها داروين لأننا نعرف أكثر منها . ولكننا قد اتجهنا الوجهة التي عيها لنا . ونحن هنا : بهذه المثابة نفسها نحو أرسطوطاليس . فإننا نعرف أكثر منه من حيث الكم في المعارف . ولكنه أكسبنا المنهج . فنعن نفكر في التطور الدارويني ونفكر متطورين . وقد أصبح التطور حقيقة علمية نقيها بالمجتمع والمليجرام في الحيوان والنبات ، كما أصبح أيضاً مذهباً دينياً . أو مبدأ أخلاقياً عند المثقفين . وانفسح به التاريخ البشرى آفاقاً إلى ملايين السنين ، بل مئات الملايين خلف البشر وبعد البشر .

لقد قيل إن جاليل ( جاليليو ) حط الإنسان من عالياه . حين أعلن أن الأرض ليست مركز الكون . وأنها كوكب صغير يدور حول الشمس . بل الشمس أيضاً نجم صغير لا يختلف عن ملايين النجوم التي

نراها كل ليلة في السماء . ولكن داروين رفع الإنسان إلى هذه العالما من جديد ، وأثبت أنه لم يكن عالماً فسقط ، وإنما هو كان ساقطاً يعيش على حضيض الطبيعة ، حيواناً كسائر الحيوانات والحشرات ، ثم ارتفع . وبهذه الكرامة الجديدة انتقل من أسر القدر ، وأحس أنه تاج التطور ، وأن له الحق في تدبير هذا العالم ، وفي تعيين السلالات القادمة . بل ماذا نقول ؟ في إيجاد البشرية الجديدة . . .

ومع ذلك لا أعتقد أن داروين نفسه ، كان يقدر الطاقة الكامنة في نظريته . ولا يتقص هذا من عظمتة ، فإن تفكيرنا الشخصي يسير بقوات اجتماعية ، لا نكاد نبصر بها أو نتعمق أصولها . ذلك أننا نفكر بعواجز من المواطن التي نكتسبها من المجتمع . بما يفرضه علينا من القيم والأوران ، وما يرسمه لنا من المطاعم والآمال . والمجتمع يطالبنا باستجابات مختلفة تستحيل في كيانات النفس إلى عادات عاطفية لانستطيع الخروج منها . فنفكر في منهج خاص هو ثمرة هذا التوجيه الاجتماعي الذي لا نحسه لأنه لا يرتفع إلى وجداننا وتعلنا .

ولذلك نستطيع أن نقول إن نظرية داروين وجدت الحافز الأول على التفكير فيها من المجتمع الذي عاش فيه داروين . ذلك أن داروين قضى زهرة حياته إلى نضج الشباب وإيناع الكهولة ، فما بين عامي ١٨٢٠ و ١٨٦٠ ، وكان عمره وقتئذ بين العشرين والخمسين ، وكانت إنجلترا في تلك السنين ترضى وتزبد بالحركة الصناعية الجديدة . فالمصانع تحتشد بالعمال من الرجال والنساء والصبيان . والثروات تنمو ، والمزاحمة على أقصاها . وإنجيل النجاح يدرس بل يعبد . والسياسة تحدم الاقتصاد . وتضرب الأمم النائية وتؤسس الأسواق والمستعمرات . وأصبحت إنجلترا سيدة البحار لأنها احتاجت إلى أكبر أسطول يحمي مستعمراتها وأسواقها التي تباع فيها مصنوعاتها الفائضة .

وعاس داروين في تنازع البقاء هذا الذي لا يفتر في لئمة  
رغير لنكشير من الأقاليم الصناعية في إنجلترا .

وفي تلك السنين أيتماً قواً كتاباً أحبه ونعاني به لأنه وجد في  
الاستجابة لظريسات عما تكهّن له من عوالم أوحشها الوسط الع  
الإنجائزي ، هو كتاب التيسيس « مالوس » عن السكان . فإد  
التيسيس كان من المحافظين الإنجائز الذين يكرهون العامة ، ولا يرود  
سوى غوغاء . فاما انفجرت الثورة الفرنسية واستول بها الشعب على  
السادة من الملوك والعظماء ، ثم أعلن رجاءاً مبادئ الإنشاء والمساواة -  
فكر مالوس كثيراً بحافز من عوالمه . فأخرج كتابه عن الس  
وكان المعنى الذي قصده إليه أن هذه الأموال الفرنسية في الإنشاء و  
والحرية لن تتحقق لأن الدنيا لا تخفي الناس الذين يتوالدون على  
تضاعف ٢ و ٤ و ٨ و ١٦ إلخ في حين أن المحصولات لا تنتج إلا  
نظام حسابي ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥ إلخ . فإذا عاش الناس بلا مرض أو -  
لم تكفهم المحصولات ، وإذن فالمرض والحرب والحرمان رحمة با  
أو ضرورة لهم . وتأمل داروين هذا الكتاب الذي ألفه مالوس  
المجتمع البشري فتساءل : لم لا ينطبق هذا الكلام على المجتمع  
والحيواني في الطبيعة ؟ فإن الطعام لا يكفي جميع الأحياء التي  
أو تتكاثر بالألوف ، فهي يجب أن يزاحم بعضها بعضاً . فتكون ا  
بينها ، أي تنازع البقاء ، كما في لنكشير ومصانعها تماماً .

وفي عام ١٨٣١ أنفذت الحكومة البريطانية سفينة « البيج  
كي تطوف حول العالم وتسير الأعماق وتدرس الشواطئ وتقيس الآب  
ولكن لماذا عمدت الحكومة البريطانية وحدها دون سائر الحكوم  
إلى الاهتمام بهذا الموضوع ؟ ما هي العاطفة الحافزة إلى هذه ال  
التي لم تفكر فيها ألمانيا أو روسيا أو إيطاليا ؟

العاطفة الحاضرة اجتماعية أيضاً . ودلائل أن الحكومة البريطانية في تلك السنين كانت تخدم الصناعات البريطانية ، لأن السياسة على الدوام تسير خلف الاقتصاد ، وكانت أسواق العالم وفقاً على المصنوعات الإنجليزية . لأن الحركة الصناعية الإنشليزية سبقت الحركات الأخرى في جميع الأمم . فمن هنا كان الاهتمام بالسحار والملاحة والأفطار النائية ، ومن هنا أيضاً كانت الفرصة لداروين في أن يلتحق بالسفينة « بيجل » كى يدرس الحيوان والنبات .

ولم يكن داروين جديداً في هذا البحث أصل الأنواع . فإن لامارك الفرنسي سبقه إليه ، وهو صاحب القول بأن عنى الزرافة قد طال لأنها . بالمرانة التي ورثت جيلاً بعد جيل . قد اشتربت وسمحت للوصول إلى الغصون العليا في الأشجار . فكأن ما يكسبه الحيوان بجهده من صفات يورث جيلاً بعد جيل . بل إن حد داروين قد بحث هذا الموضوع ، فكانت النظرية « في الهواء » تحتاج إلى من يرتب أصولها وفروعها ويعمل مظاهرها . بل كانت أكثر من ذلك . فإن جديته الأدب الألماني كان يشغل بها ويسأل عنها . وكان يتابع النقاش السامى بين كوفيه الذي كان يقول بثبات الأحياء . وبين سانت هياير الذى كان يقول بتحولها .

كان داروين شاباً في الثالثة والعشرين حين شرع في رحلته على البيجل . فاداً وصل إلى أمريكا الجنوبية ، وجد حيوانها ونباتها يختلفان عما هما في القارات القديمة . ثم لما وصل إلى الجزر المنعزلة غرب أمريكا الجنوبية وجد أن انعزال الجزيرة يؤدى إلى انعزال الحيوان ، فتكون له أشكاله التي ينفرد بها من الأشكال العامة على القارات .

وإلى هنا يكاد يتوهم القارئ أنه ليس هناك أى فضل لداروين في تحليل النظرية . فقد سبقه إليها جده كما سبقه إليها لامارك الفرنسي .

ثم هناك الظروف الأخرى : دالتوس وقاه الإنتاج العادي لإراء تضاعف السكان . ثم تنازع البقاء وبقاء الأدياح وبقاء الصعوبة في المراحلة العنيفة في لانكشير حيث الحركة الصناعية في ندمها .

ولكن لا ! لأننا مع التسليم بأن الوسط الاجتماعي أو البيئة الثقافية ، في أوسع مراحليها ، حين تعمل المعيشة والاحاد أو العادات والعواطف ، هي الحافز للتفكير . فإننا مع ذلك نحس ألا يعمل الشعب . إذ لو لم يكن داروين ذكياً لما فخر في هذا الموضع . الحظير . والمجرب هدفه في الحياة .

لقد قال داروين عن نفسه : « إن الحقائق الضعيفة ، بل الاعراض بأن عقلي لم يخلق للتفكير » .

ولكن داروين ظلم نفسه في تواضعه بهذه الكلمات . لأن الحقيقة أنه لم يعرف نفسه . إذ أن الواقع أنه لا يقول هذه الكلمات إلا أجل مفتخر قد أسرف في التفكير وعنى العناية الكبرى بعرضه الحديث من الممارس . وعرف الصعوبة الكبرى في هذا الجهد . ولو أنه لم يحس بهذا لما قال هذه الكلمات ، إذ أنها ما كانت انخطر في باله .

الحقيقة الواضحة من حياة داروين أنه احس الصعوبة وأنه كان مريضاً أو متهرباً ، في نفسه حرارة قديمة هي روح الضمير . هذا الجرح الذي أحدثه أبوه وعييره به كما يرى مثلاً من وديع أنه أنه سوف يكون عاراً لعائلته . فقد كان لا ينام في الليل إلا بعد أربع ساعات . وكان في هذه الساعات يفكر ويؤلف . فإذا جاء الصباح لم يكن القليلة . ثم يبق سائر نهاره مريضاً . ومريضه هو هذا المرض النفسي الذي يخترعه السيوروزي ويعيش به ويستقر عليه . كأنه يقول : ألمه من النجاح والتفوق . وكيف أستطيع هذا وأنا مريض ؟

مرض يصون الكرامة المبرومة ( أنت عار لعائلتك ) وفي الموت

د. « يهيئ الفرصة للتفكير في حضارة ليلية يسميها الأصحاء أرقاً . ولو أن داروين نجح وصار قسيساً أو طبيباً كما كان يشتهي أبوه لكسب العالم قسيساً أو طبيباً يمارس حرفته ويكسب منها . ولكن العالم كان يخسر عندئذ هذه العبقرية المرضية التي زعزعت الثقافة العالمية من أساسها ، بل رزلتها . وعينت أهدافاً جديدة للإنسان ، وأكسبته بصيرة جديدة لرؤية الماضي ورؤيا المستقبل .

لقد بقى داروين نحو ثلاثين سنة وهو يفكر في التطور ، ولكنه لا يخرج كتاباً عنه ولا يكتب مقالا . ثم حدث حادث أزعجه فانتفض منه . هو أن « وولاس » كان في بعض الجزر التي تقع في الجنوب الشرقى من آسيا يجمع الأزهار والحشرات ويحفظها ويبيع بها إلى الجمعيات العلمية . وكان مشغولا بالموضوع نفسه ، أى التطور . وكان يعرف أن داروين مشغول به أيضاً . فأرسل إليه رسالة علمية يشرح فيها رأيه في هذا الموضوع . وصبق داروين إذ وجد أن وولاس قد سبقه إلى تعاليل التطور بأن الطعام قليل في الطبيعة ، وأن التوالد كثير بين أنواع الحيوان والنبات . فلا بد أن يكون هناك تزاخم أى مسابقة من أجل الطعام ، وفي هذا التزاخم أو المسابقة لا يبقى غير الأقوى الأصلح للبقاء حين يموت العاجز الضعيف وينقرض .

وسارع داروين إلى إبلاغ الهيئات العلمية في إنجلترا عن رسالة وولاس . وشرع هو أيضاً يؤلف كتابه « أصل الأنواع » . ونستطيع أن نتخيل داروين في حزنه ونزاهته معاً . ولكن وولاس بعد ذلك بسنين اعترف بأن العالم كسب ولم يخسر بتزعم داروين لهذه النظرية . لأنه كان أوفى منه معرفة وأنصح بياناً وأدق منطقاً . وأخرج داروين كتابه « أصل الأنواع » في عام ١٨٥٩ فتغيرت الرؤية والرؤيا البشريتان .

وكثير من النظريات التي غيرت التفكير البشرى تبدو غاية في السهولة والبساطة ، حتى ليتساءل الناس : كيف جهل السالفون هذه النظرية على وضوحها ؟

فإن داروين يتحدث عن الحمام والكلاب وغيرهما مما يربيه الناس ، وكيف استطاعوا أن يخاقوا العشرات والمئات من السلالات الجديدة وما استطاعه الإنسان في مئات السنين القليلة قد استطاعته ، وأكثر منه الطبيعة في ملايين السنين الماضية . حتى أخرجت الأنواع فضلاً عن السلالات فهناك ، في الغابات والبحار والسهول ، إنتاج محدود من الطعام . ولكن هناك توالداً يتضاعف بين الحيوان والنبات . ولا يمكن أن يكتفى الطعام هذه الملايين بل ملايين الملايين من النبات والحيوان . فلا بد إذن من أن تتنازع الأفراد لأجل البقاء ، أى لأجل الحصول على الطعام . وقد يكون السبب للتفوق في هذا التنافس ثم البقاء خفياً . هو كما في النفس الأخير ، في الثواني القليلة ، في صراع يدوم الساعات ، أو في القدرة على الجوع أو العطش ، أو في طرق الحماية للنسل ، أو في القدرة على التطفل ، أو في الحرارة والبطش .

وما دام كل فرد يولد مختلفاً عن الآخر في الحيوان والنبات ، فإن هذا الاختلاف ينطوي بلا شك على ميزة أو عجز . فهو يساعد في الحال الأولى على البقاء والانتصار في معركة الحياة . وهو يهيئ الهزيمة في الحال الثانية . ولا نعرف الأسباب لهذا الاختلاف ، ولكننا نشاهده ونسلم به . ولذلك لا بد أن يستمر التغير جيلاً بعد جيل . فإذا تراكمت التغيرات أحدثت السلالات الجديدة . وإذا زاد الاختلاف بين السلالات ظهرت الأنواع الجديدة .

وعلى هذا يجب أن نسلم بأن الأحياء ، نباتاً وحيواناً ، ليست الآن كما كانت قبل مليون أو مائة مليون سنة . لأن التغير والتطور هما طبيعتهما



ونستطيع أن نستنتج أنه مادام لنا تاريخ ماض في التطور فسوف يكون لنا تاريخ قادم أيضاً تتغير فيه الأحياء .

وهذه هي الدلالة الخطيرة التي انتهى إليها قراء داروين ، وهي أن الحياة في بوتقة لم تتجمد قط . وأن البوتقة لا تزال تصهر وتخرج عناصرها مركباتها . وهذا هو التوجيه الحديد الذي سدد داروين عقولنا إليه ونحن في بداية هذا ، هو التوجيه الذي يخشى كثير منا دلالاته لأنه يعمل في طياته مشروعات بشرية خطيرة . ولأنه يضع النظام المادي للإنسان والحيوان والنبات مكان النظام الغيبي .

لقد عالج داروين تطور الأحياء ، وحاول تعليل التطور ، ونجح إلى حد ما في هذا التعليل ، ولكنه لم ينجح كل النجاح . وذلك لأن عواطفه الاجتماعية التي اكتسبها من المزاومة الصناعية التجارية في لنكشير ، ومن كفاح الإمبراطورية لحطف الأسواق وإذلال الأمم ، هذه العواطف هي التي حملته على أن يكبر من شأن التنازع ، تنازع البقاء . وحال هذا بينه وبين رؤية التعاون في الطبيعة ، لأن الواقع أن البقاء عن طريق التعاون بين الحيوان والنبات أكبر وأوسع من البقاء عن طريق التنازع .

ونحن نعرف الآن كثيراً ، أي أكثر مما كان يعرف داروين ، ولكن لداروين فضل التوجيه وتعيين الخطط للبحث . وأنه زودنا برؤيا بشرية جديدة وأطلق أذهاننا من أغلال العقيدة إلى حرية البحث والدرس . فقد نقلت نظرية التطور من الأحياء في الطبيعة إلى الناس في المجتمع ، وصار من المألوف أن نجد دراسات منظمة عن الأخلاق والأديان وفق النظرية التطورية ما كنا نراها لولا داروين . وانبسقت للبشر آمال في المستقبل ، وتغير معنى الارتفاع البشري لأننا قللنا هذا المعنى من وسط الإنسان إلى الإنسان نفسه . كما أصبح التطور فناً نمارسه في إيجاد

سلالات جديدة من القطن أو القمح أو الفاكهة ، وقد اجتراً هتلر وأعوانه على أن يفكروا في سلالات بشرية جديدة .  
ويجب ألا يعمينا الاستغراض الديمقراطي عن هذا الابتكار النازي الذى دعا إليه هتلر . فإن نظرية التطور لا بد أن تخرج من التفكير إلى التطبيق . . . بل هى كذلك الآن ، ومنذ مئات السنين فى حيواناتنا ونباتاتنا ، ونقلها إلى النوع البشرى لن يعدو وثبة كبيرة .

\* \* \*

أرأى بعد كتابة ما تقدم أنى التفت إلى شخصية داروين وتحليلها أكثر مما التفت إلى تحليل نظريته ودلائلها . ولذلك أحتاج إلى الإشارة إلى التنقيحات التى طرأت على هذه النظرية . وأولها وآخرها هو الرجوع إلى لا مارك : « إن الصفات المكتسبة تورث » . وداروين نفسه لم ينكر هذه الوراثة ولكنه لم يبرزها كما أبرر « تنازع البقاء وبقاء الأصلح » . ومع أن داروين التفت كثيراً إلى الدواجن ، وكيف أن الإنسان استطاع أن يخرج مئات السلالات من الحمام والدجاج والكلاب والخيول ، ومع أنه نقل هذا المنطق من الإنسان إلى الغابة ، باعتبار أن تنازع البقاء يحى ويميد ، ويقف من النبات والحيوان موقف الإنسان فى اختيار الصفات التى تعمل لبقاء الأفراد ، فإن الموقف البيولوجى ينكر هذه الأيام قيمة هذه المقارنة بين التنوع فى الدواجن والتنوع فى الأوباد . ذلك لأن المشاهدة تثبت أن التنوع فى الطبيعة قليل جداً أو يكاد يكون معدوماً ، كما يثبت أن ما أحدثناه نحن البشر من التنوع فى الدواجن إنما هو عن بعيد مصلحة هذه الدواجن . وهو أشبه بالمرض منه بالصحة وقد أحدثناه بحياة غير طبيعية لهذه الدواجن .

ولذلك نحن ننزع هذه الأيام إلى « داروينية جديدة » تعتمد على أن عادات الآباء يرثها الأبناء حتى إذا تراكت أوجدت العضو الذى

يؤديها . كالجمل الذى عاتى فى الصحراء وكان يحتاج إلى أن يبرك على  
الحصا الذى يعرج بجاده . فتضخم الجلد فى أمكنة الملامسة وأصبحت  
هذه الخاصة وراثية . وكاللجاة ( التى كانت مثل الداحف على اليابسة )  
احتاجت إلى السمك طعاماً فزلت إلى البحر . وما زالت تمارس السباحة  
حتى استحالت يداها إلى زعنفتين . . إلخ .

\* \* \*

ولا أعرف كاتباً تأثرت منه أكثر مما تأثرت من داروين . فإنه  
أعطانى القاب الذى أزن به أحياناً . وأحياناً أهدم به التقاليد . وجعل  
التطور مزاجاً تفكيرياً ونفسياً عندى . بل جعله عقيدتى البشرية التى  
تنأى عن الغيبيات . وقد أصبحت أقيس الأمم بمقدار تطورها ، وأقيس  
آمالى الاجتماعية بمقدار ما أجد من قدرة على التطور . ذلك أن التطور  
فى أساسه منطق علمى ، ولكنه قد استحال عندى إلى عقيدة قلبية .  
ولإذن يجب أن أعد داروين المعلم الأول الذى علمنى .



## فيسمان . . . المؤلف الذى أفسد ذهنى



أفسد ذهنى نحو أربعين سنة ، بل لعله أفسد أخلاقى أيضاً من حيث أنه غرس فى نفسى فلسفة اجتماعية خاطئة . فجفت عندى ينبوع السخاء البشرى ، وتولدت عندى نظريات بشأن تنازع البقاء ما كنت لأومن بها لولا هذا المؤلف الألمانى المدعو « فيسمان » . ذلك أنى كنت فى الأول من هذا القرن مشغول الذهن بنظرية داروين عن تنازع البقاء وبقاء الأصلح . وكانت هذه النظرية فى ذلك الوقت هى ، عند جميع المفكرين ، علة التطور . فإن أوروبا المثقفة كانت قد سلمت بأن الأحياء تتغير وتتطور ، وأنها تعود كلها إلى أصل واحد ، ولكن كان هناك خلاف بشأن العلة أو السبب لهذا التطور . . .

وكان لامارك ، قبل داروين ، قد علل التطور بالعادات . أى أن

الحى عندما يتغير وسطه الذى يعيش فيه ، سواء أكان ذلك بتغيير المناخ أم الطعام أم الأعداء ، هذا الحى يتعود عادات جديدة تلاءم هذا الوسط الجديد . ويتغير بذلك جسمه بعض الشيء ، ثم يأتى نسله فيرت شيئاً من هذا التغير . ثم تتراكم التغيرات على مدى الأجيال المتعاقبة بالمثلث والألوف فتظهر سلالات جديدة تختلف من أسلافها . ثم تتراكم هذه التغيرات فى هذه السلالات حتى تفصل ما بينها وبين الأسلاف . وتعود السلالات القريبة أنواعاً مستقلة منفصلة .

هذا ما كان يعمل به لامارك التغيرات التى تؤدى إلى التطور . وقد سلم داروين — إلى حد ما — بهذا التعليل ، ولكنه لم يقصر التغيرات التطورية عليه ، بل اعتمد على ماسماه « تنازع البقاء » . والقارىء لمؤلفاته يفهم أن التغيرات تحدث لأسباب نجهلها ، ولكنها تورث فإذا كانت الصفة الموروثة حسنة فإنها تؤدى إلى انتصار الفرد المئصف بها من الحيوان أو النبات فى تنازع البقاء ، أى فى مباراته لغيره من نوعه أو الأنواع الأخرى ، ولكن مع كل ما قاله داروين هنا يجب أن نذكر أنه قال إن تأثير الوسط فى الحى لم يدرس الدراسة الكافية ، وبذلك ترك الباب مفتوحاً للشك والبحث شأن الباحث العلمى المئصف .

وفما بين سنة ١٩١٠ وسنة ١٩١٠ كان النقاش يدور حول الصفات المكتسبة ، أى العادات ، أتورث أم لا تورث ؟ ولزيادة الإيضاح نقول : هل طال عنق الزرافة لأنها تعودت مد هذا العنق إلى الغصون العليا من الأشجار أو الأعشاب السفلى على الأرض ، ثم أودت ذريتها هذه العادة حتى طاللت أعناقها ؟ أم أن هناك سبباً أو أسباباً أخرى لهذا الطول ؟ والمعقول الذى يسلم به المفكر لأول وهلة أنه لا يمكن أن يكون هناك سبب آخر لهذا التغير والتطور سوى الذى كانت تعيش فيه الزرافة . أى أنه إذا لم يتغير الوسط ، ويؤدى تغييره إلى أن يغير

الحى عاداته ، فلن يكون هناك سبب ما للتغير والتطور . ومعنى هذا أن لامارك كان مصيباً كل الإصابة فى تعليقه للتطور بالهادات التى يتعودها الفرد .

هذا هو المعقول . ولكن إذا لم يتفق المعقول مع الواقع ، وجب أن نسلم بالواقع ونرضى بالنزول عن هذا المعقول . لأن ماعقلناه ربما قد خفيت عنا فيه أشياء .

وقع فى يدى حوالى سنه ١٩٠٩ كتاب يدعى « الجرثومة المنوية » للمؤلف الألماني فيسمان . وكان هذا المؤلف علمى الذهن ، لا يسأل ما هو المعقول ؟ وإنما يبحث عن الواقع الذى تثبته المشاهدة والتجربة . وقد وجد بالمشاهدة المكروسكوبية أن الجراثيم المنوية ، أى التناسلية ، فى الحيوان مستقاة تمام الا استقلالاً عن الخلايا الجسمية . وهى تسكن فى أجسامنا وتتغذى من دمائنا ، ولكنها لا تتأثر بحياتنا أقل التأثير . ونحن نتسلم هذه الجرثومة من آبائنا ونسلمها لأبنائنا . وهؤلاء يسلمونها للأحفاد دون أن تتأثر بالأجسام التى التصقت بها وعاشت عليها .

وقد وصل فيسمان إلى هذه النتيجة بالمشاهدة . فإن الجنين فى أولى ساعات تكوينه يتألف من خليتين : إحداهما خلية تناسلية والأخرى خلية جسمية . والأولى تبقى راكدة لا تنمو إلا عند المراهقة ، حين تنشط وتتكاثر . أما الثانية فتتكاثر منذ الساعات الأولى لتكون الجنين . وهى التى ينبى منها الإنسان أو الحيوان أو النبات .

وإذن فهما تغير الوسط من البرد إلى الحر ، أو من السهل إلى الجبل ، أو من الرطوبة إلى الجفاف ، ومهما تغير الغذاء من النبات إلى الحيوان أو العكس ، ومهما تغيرت حركات الجسم بالعمل والكفاح ، ومهما تغير نشاط العقل بالدراسة أو عدمها ، ومهما تغيرت عاداتنا السلوكية ،

فإن الجرائم المنوية التي تسلمناها من جدودنا وأسلافنا سنسلمها لأبنائنا وأحفادنا كما هي دون أن تتأثر بما تأثرت به أجسامنا نحن . ولذلك ليس في ترقية الوسط أية ترقية للإنسان . لأن التفاوت في الكفايات لا يعود إلى تفاوت في الوسط ، وإنما إلى تفاوت في الوراثة ، هذه الوراثة التي لا نعرف في زعم فيسمان كيف تؤثر فيها أو تغيرها .

وقد كافح هربرت سبنسر هذا القول ، وكانت عباراته : « إذا لم يكن الوسط سبباً لتغير الأنواع فلا أعرف سبباً آخر للتطور » . ومع أن هذه الكلمات ينادى بل يصبح بها المنطق والتفكير السليم فإنني لم أستطع إلا التسليم بما قاله فيسمان ، لأنه قائم على المشاهدة التي هي بيئة العلم .

ثم عرفت بعد ذلك تجارب الراهب « مندل » ، التي كان قد أجراها في القرن الماضي في اللوبيا أو الفاصوليا وبعض الحبوب الأخرى ، و« أثبت » أن الوراثة صارمة . وأنها تجري على أرقام معينة كأنها لا تتأثر بالوسط بتاتاً . وانتهيت أنا إلى الإيمان بهذه الوراثة الجامدة ، وبأن الوسط لا قيمة له أصلاً في تغير السلالات وتطورها . ذلك لأنني اعتمدت على ما كان يقوله الثقات . ولست أنا ثقة مجرباً في هذه العلوم ، فيجب أن أقبل ما يقوله المجربون .

ولكن بقي التطور عندي بلا تعليل لأنني أخرجت منه تأثير الوسط . لا ، بقي شيء واحد هو تنازع البقاء أي يجب أن نسلم بأن الأفراد من الحيوان والنبات والإنسان تتفاوت في الكفايات ، ونحن -- مع أننا نجهل المصادر لهذا التفاوت -- مضطرون إلى التسليم به . إذ هو واقع يشاهد ، وإن كان هذا التسليم يشبه التسليم بالغميئات التي لا تعمل أو بالقدر الذي لا يحتسب .



وكان لهذه العقيدة مركبات نفسية عدى تتلوها مركبات اجتماعية . ذلك أن تنازع البقاء في الطبيعة يجب أن يكون له صداه في مجتمعه ، كأن تقتل العاجز العليل أو تتركه يموت دون أن نعمل على شفائه . فهؤلاء العاجزون عن التفوق يستحقون تخلفهم ، وليس من الواجب علينا أن نساعدهم على أن يرتقوا ، لأنهم إنما ولدوا وارثين لهذا العجز الذي يصلحه الوسط . ثم لماذا يبقى هؤلاء الزنوج أحياء مادامت هناك شعوب أرق منهم ؟ وما دام لإصلاحهم بإصلاح الوسط غير ممكن لأنه غير علمي ؟ فزوالهم إذن خير من بقائهم . وفي هذا القول بالوراثة تحليل علمي ، وتسويغ اجتماعي ، للاستعمار والاستغلال ، لأن الأقوياء بالوراثة هم الذين يستعمرون ويستغلون الضعفاء بالوراثة . وقد التهمت نيتشه التهاماً لأنه كان يدعو إلى إبادة الضعفاء . ومضت على سنوات كنت أحس عندما أرى إنساناً يتصدق على سائل بقرش أنه جنى على المجتمع وأفسد الأجيال القادمة . لأنه بهذا الإحسان قد استبقى الضعف واستولده .

ولكن يجب أن أعترف أنني لم أسلم كل التسليم بأن الطبيعة كافرة إلى هذا الحد . ولكنني كنت أقف متردداً ، أكاد أحبس نفسي عن السخاء والحنان والرفقة العطف . وكنت أظن أنني بذلك قد أصبحت « علمياً » . وذلك أنني كنت على الدوام أهجس بالماجس الفسافي المنطقي ، وهو أنه ليس هناك سبب لتغير الحيوان أو النبات سوى تغير الوسط ، أي أن عادات الفرد في حياته ، وصفاته التي اكتسبها من هذه العادات ، ترثها أعقابها ثم تتراكم وتتبلور حتى تصبح صفات جسمية أو غريزة جديدة .

وأخيراً التفت إلى الهرمونات الجنسية ، تلك المركبات التي تفرزها الخصيتان في الرجل والمبيضان في المرأة وتؤثر في قوام الجسم وشكله بحيث

غير شكل الجسم حين نقطعها ( كما نرى في الخصىان ) فرأيت أنه ليس من المعقول أن تؤثر هذه الجراثيم المنوية في أجسامنا دون أن تتأثر هي بأجسامنا .

وقرأت بعد ذلك كتاباً للأستاذ «وود جونز» عنوانه « العادة والوراثة » أوضح فيه أن العادات التي يتعودها الحيوان بل الإنسان تنهى إلى أن تكون وراثية . وقد ذكر حقيقة كبيرة القيمة جداً تنقض ما قاله فيسمان من أن خلايا الجسم تنفصل من خلايا الجرثومة المنوية . وهي أن الرحم قد نزع من بعض الفيران والأرانب فعادت إلى النمو . بل ذكر أن مثل هذا قد حدث لبعض النسوة اللاتي نزعن أرحامهن . وبذلك أثبت أن نزع الجرثومة المنوية من جسم الفأر والأرنب والمرأة ، وهي الجرثومة التي ينمو فيها الرحم هذا النزع والحشو لا يمنعان الجسم من إتمام جرثومة أخرى . وإذا كان الأمر كذلك فإن تأثير الجراثيم المنوية في الذكر والأنثى بخلايا الجسم لا يترك مجالاً للشك . ومن هنا يجب أن نسلم بأن الصفات المكتسبة ، أى العادات التي يتعودها الجسم ، تتأثر بها الجراثيم المنوية فتعود هذه العادات وراثية .

وقد ذكر فيسمان أنه قطع أذنان الفيران لعدة أجيال فلم يستطع إيجاد سلالة من الفيران خالية من الأذنان . ثم ضرب مثلاً بالختان عند اليهود فقال : إنهم على الرغم من ممارسة هذه العادة أكثر من ثلاثة آلاف سنة لا يزال أطفالهم يولدون وهم غلف لم يتأثروا بالختان .

ولكن هذين المثالين لا يدلان على أن فيسمان كان بصيراً بمعنى التطور . فإن قطع أذنان الفيران وختان اليهود لا يزيد في دلالته على ما نفعل نحن عندما نقص شعور رءوسنا ، إذ ليست هذه الأعمال عادات .

ذلك أن معنى العادة أكبر من هذه الأمثلة . فالحيوان يتعود العادة

لأنها تنفعه ، فهو يجد أولاً متكلفاً جاهداً حتى تسهل عليه بالمرانة ، ثم تصير المرانة عادة يؤديها وهو لا يكاد يلتفت إليها . كعارف الكمان ، يبدأ متعلماً متعباً متكلفاً ثم ينتهى بالمرانة إلى أن يعرف وهو يتحدث إليك لا يلتفت إلى الأوتار .

وهكذا الشأن في الزرافة . حين كانت قصيرة العنق تمدّه إلى الأغصان فتشد عضلاته ، أى تمطها . ثم تكبر هذا بالمرانة حتى صارت العضلات تطول بالوراثة . وهذا هو الشأن في ثغفات الجمل ، أى تلك الأجزاء المتجلدة الخشنة التى تلاصق الرمل عندما يبرك ، فإننا نعرف أن أقدامنا تتجلىد وتخشن عندما نمشى على سطح خشن ، أو عندما يضيق علينا الحذاء . والإخشيشان في ثقة الجمل هو عادة نشأت من مقاومة الجسم للرمل الخشن ، ثم صارت بعد ذلك وراثية . بل هذا هو الشأن في عنق الجمل الذى يمدّه كى يصل إلى أعشاب الأرض .

فالزرافة والجمل احتاج كلاهما إلى خواص مكتسبة ، صارت بعد ذلك مورثة ، لأنها نافعة . أما قطع ذنب الفأر ، وحتان اليهود ، وقص شعورنا ، فليس منها أية منفعة لنا وللسنا نجهد في تعودها . ولذلك ليس هناك ما يدعو إلى أن تكون وراثية .

» \* «

ثم عدت إلى قواعد مندل في الوراثة فوجدت أنها ليست محكمة ، أى أى ليست علمية ، حتى أصبح المندليون أنفسهم يقولون إن هناك شذوذاً في بعض الصفات المورثة . وهذا كلام لا يستطيع الذهن العلمى أن يسيغه لأن القاعدة العلمية لا تتسع لأقل الشذوذ .

ثم انظر إلى النبات الذى استغله الإنسان لغذائه كالقمح مثلاً ، فإنه إنما نشأ في بقعة صغيرة في الأصل ، ولكنه يزرع الآن في الأقاليم

الثلجية التى تتاخم القطب الشمالى . وفى الأقاليم الحارة بأفريقيا . وليس لهذا من سبب إلا أن القمح قد تعود مختلف الأقاليم التى زرعه الإنسان فيها ، وأورث عاداته ، أى صفاته المكتسبة ، لسلالته المختلفة .

وهكذا الشأن فى البقر الذى يعيش فى السودان الحار ، وفى نروج الباردة ، مع أن الأسد لا يعيش إلا فى أواسط أفريقيا لا يتجاوزها . ولو كان الأسد مدجنا كالبقرة ، ينقله الإنسان معه إلى مهاجرة البعيدة . لكان قد تعود المناخ البارد وعاش فى نروج كما يعيش الآن فى أفريقيا .

وحیوان الیابسة الذى نزل إلى البحار مثل : القیطس والفقمة والدولفين یبین بوضوح کیف أن الوسط قد غیره ، وكيف أن سلائل هذا الحیوان قد ورثت التغير . بل إن هناك إمارات تدل على أن كفاح الحیوان للأمواج قد غیر فى وضعه التشریحى .

مثال ذلك أننا عندما نسبح يكون همناء رفع الرأس حتى لا نختنق بالماء . وهذا الرفع یجعل العنق مشدوداً من الأمام مشتماً إلى الخلف ، فتندفع فقاره إلى الأمام فى العنق . وهذا هو مانراه إلى الآن فى الفقمة . فإن فقارها أقرب إلى نحرها منها إلى قفاها .

وقد كان « بوربانك » الأمريكى یطعم الأشجار بغصون من أشجار أخرى فكان یجد الفواكه التى تنشأ على هذه الغصون تكتسب صفات جديدة من الشجرة الظئر أى الأم ، ثم تورث سلائلها هذه الصفات . مع أن الغصن لم يأخذ من الشجرة سوى الغذاء . وهو بعض الوسط . وهذا الذى حققه بوربانك قد حققه أيضاً « ليسنكو » على أبعاد كبيرة . الغصن يؤثر فى الشجرة الظئر ، والشجرة الظئر تؤثر فى الغصن .

وهذا الفهم الجديد بشأن الوراثة والوسط قد عاد فأحدث لى مركبات نفسية واجتماعية أخرى . وأكسبني فهما آخر للتطور . وهو أن داروين

مد أخطأ خطأ فادحاً عندما زعم أن «تنازع البقاء» هو كل شيء أو يكاد يكون كذلك . وإن كان فهمه لتنازع البقاء ليس ساذجاً أو ليس محض القوة والعداوة كما يتوهم الآثري . وشرعت أبصر أن التعاون في الطبيعة أكبر أثراً من التنازع . بل لا يكاد يكون هناك تنازع في عالم الحيوان بالمعنى البشري الذي نفهمه من هذه الكلمة . فالأسد لا يقتل الأسد ، والحروف لا يقتل الحروف . وقد يكون هناك صراع دموي بشأن الأنثى ، ولكنه لا ينتهي بالموت في كل حال . ثم هو صراع قصير الأجل . أما الإنسان فيقتل الإنسان بالملايين ، لا بمحض طبيعته ولكن باتجاه حضارته ، أو بما نشأ عليه من عواطف اجتماعية .

ونحن نخطئ خطأ كبيراً حين ننقل هذا المعنى المتوحش لتنازع البقاء من مجتمعه إلى الحيوان في الغابة ، لأن الطبيعة ليست كما قال «هكسلي» أو غيره وهو متأثر بداروين : «حرب بين الناب والمخلب» .

وهذا الفهم الجديد للتطور يحملنا على الإكبار من شأن الوسط البشري وصورة ترقيته حضارياً وثقافياً ، لأن العادات التي يتبعها الإنسان بكفاحه لمصاعب الوسط سوف تنتقل كما لو كانت غرائز إلى الأجيال القادمة . وليس ما نسميه غرائز طبيعية سوى عادات تباورت بتعاقب الأجيال .

والدلالة الأخلاقية لهذا النظر الجديد هي أننا إذا تركنا الناس أو بعض الفئات تعيش في عادات سيئة ، فإننا سوف نرى السوء لا يقتصر على الجيل القائم ، بل ينتقل إلى الأجيال القادمة بالوراثة .

والوراثة في جمودها الذي اعتقده فيسمان تشبه القدر ، لأننا نعجز عن تغييرها . والإيمان بها يدعو إلى التشاؤم وإلى اليأس من إصلاح الطبيعة البشرية بغير الوسائل الإنتاجية التي لا تتفق دوماً وما نفهمه من العدالة والانسانية . وقد كانت الوراثة هي المركب السيكلوجي السيئ الذي ختم

على عقل «لومبروزو» وجعله يقول إن إصلاح المجرم غير ممكن لأنه يرث النزعة الإجرامية .

وإنى عندما أقلب صفحات ذاكرتى أحد مركبات ذهنية كبيرة انتفعت بها ، ولكن المركبات التى نشأت فى ذهنى من الإيمان بالوراثة قد أفسدت تمكبرى نحو أربعين سنة . بل أفسدت أخلاقى وجعلتنى أتنشأ ككثيراً .

أما إيمانى بالوسط فقد أعاد إلى اتزانى الذهنى والأخلاقى ومالئى تفاؤلاً بمستقبل البشر .

هذه هى قصة الكتاب الذى أفسد ذهنى . ولكن المناخ الذهنى فى بداية هذا القرن كان يهيئ للإيمان بالوراثة ويؤيدها .

## هنريك إبسن . . . داعية الشخصية



هذه ياك إيبسن هو داعية الاستقلال الروحي للإنسان عامة وللمرأة خاصة . وفاء ألف درامته « لعبة الميت » في دعوة المرأة الأوروبية إلى أن تتقلد وتنشد الآفاق . وتجرب التجارب ، وتختبر الدنيا ، وتربي نفسها ، بدلاً من أن تعيش خلف الرجل يكسب حوطها ويحوطها برعايته ويدللها في الميت ويقدر حياتها على الزواج والأمومة .

والإنهاء القديم للمرأة . سواء في الشرق أو في الغرب ، كان ينظر إليها باعتبار أنها تابعة للرجل . وأنها خلقت للميت . وفي أعم الشرق القديمة بولع في هذا الاتجاه حتى انتهى إلى أن المرأة أنثى فقط تزود الرجل ببلذاته الجنسية . وفي هذا قال شاعر عربي :

والقراءة والخطابة والنساء

هذا لنا وهن منا ..... .

ولم يكن العرب منفردين في هذا النظر فإن أوروبا على الرغم من المظاهر الخادعة كانت تنظر أيضاً إلى المرأة هذه النظرة في القرون الوسطى ، ولكن أوروبا كانت تمتاز بميزة كبرى هي أنها لم تفصل قط بين الجنسين في المجتمع ، ولم تعرف الحجاب إلا في أيام الإغريق . ومع ذلك لم يكن هذا الحجاب الإغريقي يغلق الأبواب إغلاقاً محكماً كما كانت الحال عندنا أيام القرون الوسطى .

ولكن مظهر الحرية الأوروبية كان خلافاً خادعاً أكثر مما كان واقعياً حقيقة إلى بداية القرن التاسع عشر . فإن كثيراً من الأمم الأوروبية كان يحرم المرأة الميراث ، كما كان يحرمها التعلم في الجامعات . ولذلك بقيت محرومة من الاحتراف والاستقلال والكسب بممارسة الطب أو الهندسة أو سائر العلوم والفنون .

ولكن الضمير الأوروبي كان في بداية القرن التاسع عشر قد تنبه إلى وجدان جديد هو استقلال العقل البشري وطرح التقاليد بفصل الدين من الدولة . كما أن الحركة الصناعية كانت قد جذبت آلافاً وملايين العمال الزراعيين من الريف إلى المدينة . والمناخ الذهني في المدن هو مناخ الحرية والاستقلال والتساؤل والشك . ولذلك وجدت الأفكار التحريرية تربة خصبة في المصانع والمدن . وقد جذبت الصناعة أيضاً عدداً كبيراً من النساء إلى المصنع . ووجدت المرأة في هذه المصانع جوّاً منعشاً بعث فيها الإقدام والاستقلال .

واحتاج هذا التطور إلى ألسنة تنطق وتعبّر في بلاغة الأديب وقوة المنطق ونظريات الفكر . فظهرت قصة « مدام بوفاري » للكاتب الفرنسي



جوستاف فلوبر ، كما ظهر كتاب ستورات ميل « إخضاع المرأة » ، ومدام بوفارى قصة امرأة تزوجت أحد الأطباء فى الريف ثم وجدت الحياة دون نشاطها وأمالها فحطمت ما تعلمته من أخلاق واندفعت فى تيار من الشهوات . قضى عليها فى النهاية فانتحرت . وكأن المؤلف يقول لنا إن حال المرأة الأوروبية سيء ، وإنما لا نفتح لها أبواب الرق ، ولذلك تنزلق إلى مهاوى الشهوة الجنسية كى تخفف من سأم العيش المبتذل بين جدران المنزل . وكأنه يقول أيضاً : افتحوا أبواب العمل والنشاط الاجتماعيين للمرأة .

أما كتاب « ستورات ميل » فهو تاريخ لاستبداد الرجل بالمرأة ، وأن هذا الاستبداد لا يضر المرأة وحدها ويعطل كفايتها ويحول دون رقيها باعتبارها إنساناً ، وإنما هو يعطل المجتمع كله نساء ورجالا .

جاء إيسن حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، فتبلورت فيه هذه الآراء وأخرجها درامة موجهة سامية اهتزت منها المجتمعات الأوروبية وأصبحت « نورا » بطلانة هذه الدرامة قدوة المرأة الناهضة ومشعلا تهتدى بنوره .

وقد عاش إيسن فيما بين عامى ١٨٢٨ و ١٩٠٦ ، وقد غير أوربا الأدبية وأحاطها إلى الآراء العصرية ، إذ غرس فيها بذرة « البشرية الدينية » كما أبدل أخلاقها من تراث التقاليد إلى القيم البشرية التى توزن بميزان العقل . ودعا إلى الاستقلال النفسى ، وإلى ضرورة الجدل فى الحياة ، بحيث نربى أنفسنا ونكون شخصياتنا أحراراً مفكرين مكافحين مستقلين . وإيسن نروجى نشأ فى بيت ريفى ، ولكنه قضى صباه خادماً أو مساعداً فى صيدلية . ولم يكن شىء يفتح العين وينبه العقل إلى الأكاذيب الاجتماعية مثل الخدمة فى صيدلية وتركيب العقاقير فيما بين عامى

١٨٥٠ و ١٨٥٠ ، لأن الصيدليات فى تلك السنين كانت تعيش بما يقارب النصب ، إذ لم تكن عقاقيرها سوى مواد غريبة الأسماء معدومة النفع ولم يكن المريض ينتفع منها بأكثر من الوهم .

ولا بد أن إبسن قد تعلم تحطيم الأصنام من هذه المرازة الأولى فى الصيدليات ، ثم احترف الصحافة فى « كرسيتانيا » ، والتحق بالمرشح فى « بيرجن » ، وبقى متصلاً بالمرشح للإدارة والإخراج والتأليف مدة طويلة فى كلتا هاتين المدينتين : بيرجن وكرسيتانيا التى كانت وقتئذ عاصمة نروج .

وهذا الاتصال بالمرشح أكسبه بصيرة فى الفن كما أكسبه رؤيا فى التأليف . فإن دراماته غاية فى الدقة الفنية . وكثير منها يجرى على الأسس الإغريقية للفن المسرحى وهى أن الدراما لا تزيد على أن تكون جاسة فى مكان وزمان معينين لا يتغيران من الفصل الأول إلى الفصل الأخير .

وقد نقل الدراما الرومانية إلى الواقعية ، وجعلها اجتماعية تعالج المشكلات التى يعانها المجتمع . ففى إحدى الدرامات يعالج مرض السفلس وعواقبه الوحشية ، وفى أخرى يعالج المسيحية واللوثنية ، وفى أخرى يعالج استقلال الشخصية إلخ . .

ولكنه كان فى كل ذلك شاعراً ، يرى الرؤيا فتمتد نظرتة إلى الآفاق البعيدة . وفيما بين عامى ١٨٧٠ و ١٨٩٠ كان يعيش فى ألمانيا مستوحداً لا يكاد يعرف الأصدقاء . وكان يخرج دراسة واحدة كل سنتين تقريباً . وقد أوجد مسرحاً جديداً فى أوروبا . وعندها نقرأ « برنارد شو » نجد أن إبسن مضمهر فيه . فقد ألف « شو » كتيباً فى الدفاع عن إبسن وأسلوبه الواقعى . وكما أن إبسن كان يرى رؤيا الشاعر ، فإنه أيضاً كان يلتزم

الحقائق . وهذا هو شأن برنارد شو .  
أما أفكاره وفلسفته فتتلخص في قيمة الشخصية البشرية وضرورة استقلالها وتربيتها ، وأن هذا هو الواجب الأول على الرجل والمرأة . ومن هذه البؤرة تتشعب واجبات أخرى ، هي أن نأخذ أنفسنا بالجد وأن نعتمد على العقل ونحيا . الحياة الشريفة الفنية الراقية . وألا نخضع لأطراف الماضي وأشباحه . وقد كتب إلى أخته خطاباً قال فيه : « أحب أن أرى كل شيء في وضوح وصفاء ، ثم أحب بعد ذلك أن أموت » .

وهو يعنى بهذه الكلمة الإيمانية أنه يجب أن يرى المشكلات الاجتماعية مكشوفة ، واضحة ، خالية من المركبات التاريخية والتقليدية التي تحول دون رؤيتها على حقيقتها . أى يجب على الأديب أن يكون واقعياً ، يرى الواقع الملموس ثم يبني خياله على أساسه ، ويرى رؤياه من خلال عدسته .

وأبعد ما كان يبتعد عنه إبسن هو البرج العاجي الذي يعيش فيه الأديب السخيف ، يحلم ويتخيل في عزلة عن المجتمع ومشكلاته . كأنه الأدب للذة موسيقية فقط ، وكأنه يجب أن يترفع عن معالجة الجوع والبغاء والمرض والظلم والاستبداد .

« الشخصية البشرية » هي لإنجيل إبسن .

ولإذن لم يكن مفر من أن يسأل عن شخصية المرأة . وهل الحضارة في عصره كانت تهملها أن تكون إنساناً راقياً مجداً . لها أهداف شريفة تعيش من أجلها وتحس أنها تؤدي رسالتها في الحياة ، كما أن لها أسلوباً فاسفياً تتخذه في عيشها ، أم لا ؟

هذه هي المشكلة التي عالجها إبسن في درامة « بيت الدمية » أو « لعبة البيت » . واللعبة هنا هي الدمية التي تلعب بها الطفلة وهو يرى من هذه التسمية إلى أن المرأة الأوروبية ( حوالي عام ١٨٧٠ ) هي لعبة الرجل عام يقومها ويقدرها بما تتسم به من سذاجة وجهل . وهي تولد في بيت

أبويها فتعامل منهما كما لو كانت لعبة تزخرف بالملابس الزاهية وتلدب على إنكار نفسها . فلا تتحدث عما يتحدث عنه الرجال فضلا عن أن تمارس أعمالهم . فتنشأ محدوده الفهم فلبلة المعارف قد سدت في وجهها أبواب العمل الكاسب الذى يعمل به الرجال وبكسبون منه أرواقهم كما يكونون به شخصياتهم .

و «نورا» هى هذه الفتاة ، تترك بيت أبويها إلى بيت زوجها فى جمال وبراءة وطهارة وسناجدة لها وجه كأنه ماء صانع من وريقات الورد وكأنه قد خلق للقلبات فقط . وجسم قد شبهته الطليعة كأنه يمثل النمل والروعة . وهى تتحدث بلغة قد هذبت كاماتها ، فلا تنطق بما ينطق به الرجال . أما العقل فهو العقل الساذج الذى لم يشتر الدنيا ولم تمر به الأخطار والأخطار فيتعلم ويتدرب . ويتألفها زوجها فجاملها كما كان يعاملها أبواها . فهى حتى عندما تباع الأربعين أو الخمسين سنين طفلة .

وليس يتور على هذا الوضع وينساءل : لماذا تمفين طفلة ؟ أين شخصيتك وذكائك ؟ ولماذا تحرمين اختبارات هذه الدنيا ؟

وتجربى الدرامه فى سياق النمبل الذى يوضح لنا أن المرأة لن تكون نحو ما نحب أن تكون المرأة عايه . لأن كل هذه الصفات تعنى فى النهاية إنساناً إلا عندما ترفع نفسها من الأنثوية . وأن هذا لن يكون إلا عندما تأخذ نفسها مأخذ الجلد ، فتسفل بمخيمتها وتعلم وتحتبر . ونحن الرجال لا نتعلم ونرتفع إلى المقام الاجتماعى أو المكانة الذهبية أو الفهم الخيط . كما لا نكون لما شخصيه . إلا لئلا نختلط بالجميع وبالعالم الخطأ ونقع حتى فى الخطر . وليس هناك رجل يفخر بأنه ساذج أو طاهر أو براء على نحو ما نحب أن تكون المرأة عليه . لأن كل هذه الصفات تعنى فى النهاية أننا نحب جهل المرأة وإفقادها طفله أو « لعبه » كما يقول إدس

ونورا بعد أن نتكسف لما حالها هذه تترك بيت الزوجية . تترك

لزوج والأطفال ، بعد أن تشرح أزواجها أنها طفلة ، وأنها لن تقبل أن تعيش سائر حياتها في هذه الطفولة ، وأنها ستخرج إلى الدنيا كي تعامل بتحيز حتى تنجز لنفسها وعد حياتها ، وحتى تؤدي حق إنسانيتها ، بأن تبني شخصيتها بالمعرفة والاختبار والدرس مهما ارتكبت من أخطاء أو وقعت في أخطار . ذلك لأن رسالة الإنسان في هذه الدنيا أن يعرف الدنيا ولا يحاط بسياح من الواجبات الاجتماعية يحول دون فهمه أو بائه لشخصيته . وقد أحدثت هذه الدرامنة ضجة كبرى في العالم الأوربي لأنها صدمت لعقائد والتقاليد . ولكن الضجة هدأت أو انفثأت عن انتصار المرأة المسلمة بأن جمالها القديم ، جمال الوجه والصدر والقامة والفخذين ، هو جمال الأنثى .

وأما جمال المرأة الجديدة فيجب أن يعلو على ذلك ، أي يجب أن تطوى على العقل النير والشخصية الراقية التي تدرّب بالمجارب والاختبارات ، ارتقت بالثقافة واشترك في شؤون المجتمع ، وقد كان إيسن رؤياي لميرة حين كنت حوالى العشرين ، أتمس المثلثات الأوروبية والقيم المصرية ، وأبني شخصيتي الذهنية . وكان مركز المرأة المصرية يحز في مدري كأنه خزي أبدي لولا هذه المحاولات الصغيرة العظيمة في مثل كتابي قاسم أمين ثم ، بعد نصف قرن ، في نشاط هدى شعراوى وسهرا راوى ودرية شفيق وأمينة السعيد وأمناهن .

ونحن الشرقيين قد ورننا نرائاً سيئاً من القرون المظلمة ، هو تراث روف والخصيان والحجاب . وأولئك الذين يدافعون عن الحجاب بنسوان عصاء الزوج كي تتممه ، أى ينمم الحجاب ، ولعلمهم يتجملون حين كرون ذلك .

لقد تعلمت من إيسن سرفاً جديداً لم أكن أعرفه حين تركت بلادى في أوروبا في عام ١٩٠٧ ، هو شرف الإنسانية التي يجب ألا يحدها حجاب

المرأة . هو شرف الرواح الذى يقوم على الاخاء والمساواة ، ليس فيه سيد وعيد ، وهو شرف الأمة التى ترفع نفسها إلى مقام الوزيرات والنائبات وتفتح لهن المدارس والجامعات .

قبل خمسين سنة كنا نقعد إلى المرأة فنجد الجهل مع السذاجة ، جهل وسذاجة يبعثان الاشمئزاز الدهنى فى الرجل الناضج . ولا تزال هذه الحال باقية فى معظم أوساطنا . ولكن الدنيا تتغير ، وهى تتغير لمصلحة المرأة ورفعتها وترقيتها ، ولن ترتقى المرأة المصرية وتبلغ النضج أو الإيناع إلا عندما تختلط بمجتمعنا نحن الرجال وتمارس أعمالنا وتعب من اختباراتنا وتشارك فى الصناعة والتجارة والسياسة وتواجه الأخطاء والأخطار .

وليست عبرة « لعبة البيت » مقصورة على المرأة ، فإنها تمس الرجال إلا القليل من الناضحين . ذلك أن الرجل العادى فى كثير من تصرفاته يعيش بلا استقلال ، وليس له من الشخصية سوى الاسم . يخضع للتقاليد وينساق فى تيار العرف . وصحيح أن الدنيا تربيته وتصلب عوده وتخصب شخصيته بالاختبارات والاصطدامات التى تحرم منها المرأة . فهو يخطئ ويصيب ويتعلم ويقف على كثير من الأكاذيب الاجتماعية التى تفتح ذهنه وتثير رؤياه ، وكل هذا لانصيب المرأة منه شيئاً لأنها محبوسة بسياج أو حجاب من التقاليد .

ودعوة إبسن هنا : لتكون لكل منا شخصية ولينظر كل منا إلى البغيا كما لو كان هو محورها ، ليس لأحد ولا لعقيدة سلطان عليه إلا ما يرى بعد التفكير الاستقلالى أنه نافع له ولجمعه .

إننا نطلب الحرية من القوانين واللساتير ، ولكن كل ما تستطيع هذه أن تمنها من حقوق هو على الدوام دون ، ما نهب أنفسنا . لأن قيود التقاليد واصطلاحات العرف الاجتماعى تقيدنا أكثر مما تقيدها به مظالم المستبدين التى تحاول اللساتير والقوانين محوها أو مكافحتها .

وحق حين يستبد بنا حاكم ظالم ويستعين بالقوة المادية على تقييد  
حريةتنا نستطيع الاحتفاظ بكرامتنا والإحساس باستقلالنا . لأننا نقاوم  
ونكافح استبداده وجبروته ونحن على وجدان بأننا أرقى منه . ولكن استبداد  
التقاليد ينغرس في نفوسنا . ويعين مزاجنا . ويعودنا عادات ذهنية ونفسية  
تجعل كلاً منا أسيراً . أجل . وأسير نفسه مع ذلك . فالمرأة التي نشأت على  
الحجاب لا تحس هوانه كما لا تعرف جهاتها . وهى لذلك لا تقاوم ولا  
تكافح . وكذلك شأن الرجل الذى يعيش فى أسر التقاليد وكأنها من  
طبيعة الأشياء التي لا تتغير . بل لا تحتاج إلى التغيير .

والفرق بينه وبين المرأة هو فرق الدرجة فقط إذ هو فى حجاب نفسى  
وذهنى . وهذه الدنيا هى ملك الإنسان وعلينا جميعاً رجالاً ونساء أن نتعلم  
وننضج ولا نكون لعبة الأقدار أو لعبة المجتمع . وعلينا أن نستقل  
وندرس ونختبر الحقائق . وليس هذا واجب « نورا » وحدها ولا واجب  
النساء وحدهن وإنما هو واجب الرجال أيضاً .

ونعزم هذا الدرس الذى علمنا إياه إبسن ، درس حق كل إنسان فى  
تقرير مصيره وتربية شخصيته .

” ” ”

كنت قبل سنوات أخطاف بالإسكندرية ، وكنا نقعد رجالاً ونساء  
فى اجتماعات عائلية على الشاطئ نتجاذب الحديث . وما كان أسخف  
ما كانت تتمحدث عنه النساء .

شئون الخدم ، وزواج هذه الأنسة أو تلك الأرملة . وهذا الخطيب الثرى  
المنتظر لهذه الفتاة ، وخاتم الخطبة ، ومبلغ المهر لتلك الفتاة الأخرى .  
والسكنى فى الزمالك والأثومبيل الحديد عند فلان « بك » وهذه الحياطة  
البارعة وذلك القماش الحديد إلخ . .

أحاديث تافهة من شخصيات تافهة . واهتمامات راقية نشأت من حبسة البيت وحبسة النفس . فلم يكن بين هؤلاء السوة من كانت لهم بمبحث العبرة والدلالة للطاقة الذرية ، أو لمحنة الأمم المتحدة . أو لفلسفة برتراند سِل أو للمخترعات الطبية أو لمستقبل المرأة في الهند ومصر . أو لمعنى الدين أو براءج المدارس . وكأنهم لم يكن يقرأ الجرائد فصولاً عن الكتب .

ولكن كان في هذا الوسط فتاتان لم ننزولهما وإنما احترقنا الترفيف في أحد المستشفيات بالقاهرة ، وكنت عندما أقعد إليهما وأتحدث أحس أني إزاء شخصيتين عالميتين . فقد اكتسبت كل منهما نظرة عالمية أخرى غير المنزل والخدم والطبخ وأحمر الشفاه والفستان الجلديد .

وقد استمعت إلى حديث إحداهما عن المرضى والأمراض . واختلاف الناس في استقبال الموت ، أو الحكم بالموت ، عندما يعرف المريض أن سرطاناً قديماً قد نبت وتفرع في جوفه .

ووصفت لي إحداهما كيف رأت رجلاً قبيل النزاع وكيف خففت عنه .

وكنا في سيدى بشر وهي تبعد عن الإسكندرية بنحو عشرة كيلومترات ، فافترشنا على أن نهض ذات صباح ونسير على الأقدام بجذاء الشاطئ إلى الإسكندرية .

وكنت أحس وأنا أتحدث إلى كل منهما أني إزاء إنسان قد استحال إلى شخصية ناضجة تمتاز بجمال وكرامة وذكاء . وذلك لأن اختلافهما بالاجتماع ونحدهما له قد زاد ذكاءهما وكون شخصيتهما . ولو أن كلا منهما كانت قد نشأت النشأة المألوفة عند غيرهن . اللاتي يعشن في البيت وينتظرن الزوج ، ثم يتزوجن ويقصرن اهتمامهن على الألباس والخدم وقصص الزواج والثراء ، لما كانت لها هذه الشخصية .



والذكاء ينهض على أساس طبيعي ولكنه يربى بالمجتمع . ونحن الرجال بما نمارس من اختبارات ونكايد من كسب أو خسارة ونصادف من أخطار ، بل بما نرتكب من أخطاء ، نتعلم وننمو ونزيد حكمة . والمرأة كذلك لن تكون إنساناً حكماً إلا إذا مارست جميع الأعمال التي يعملها الرجال واقتحمت ميادينهم وتعرضت للأخطار مثلهم .

وهذه الصورة الجديدة للمرأة قد لا تعجب بعض الرجال الذين يؤثرون جهل الزوجة على معرفتها وقصورها على نصيحها . وهم يحسون سيطرة ويمارسون تسلطاً عليها في هذه الحال ، ويأتون هذه المرتبة أو الميزة العالية طمعاً عليها . ولكن المرأة الرشيدة يجب أن تنبه وترفض أن تكون لعبة الرجل كما رفضت « نورا » .

ونحن الرجال نعرف أن المدرسة والجامعة لا تربيانا وإنما الذي يربينا هو هذا المجتمع الذي نختلط به وبصطدم بمشكلاته . ونحن لا نستقطر الحكمة ، وننضج النضج الفلسفي ، إلا بعد أن نخطئ ونصيب ونخسر ونكسب ، ونساق ساعة الهوى ، ثم نفيق عقبة سنين لأننا عرفنا الحقائق بالخبرة ومارسنا هذه الدنيا في حرية واستقلال بلا خوف من سيطرة أو تقاليد .

وهذه الحكمة التي نلناها نحن الرجال من اختياراتنا لهذه الدنيا يجب أن نلناها المرأة بمثل الوسائل التي نتوصل نحن بها ، أي بالعمل والإنتاج والاختلاط والاستقلال والاختبار .

وهذه الصورة الجديدة التي رسمها لنا إيسن في نورا قد تحققت في المرأة الأمريكية إلى أبعد حد . وكذلك تحققت إلى حد ما في المرأة الانجليزية والإسكندنافية والروسية حيث تعمل المرأة إلى جنب الرجل وتستقل بما تكسب . ولم يعد الرجل يعولها ، وقد أصبحت شخصيتها قوية جليلة تواجه الدنيا في شجاعة وتحترف الحرف التي ترقمها وتبه ذكاءها

وتقتل عضلاتها . وهى فى كل ذلك لم تهمل مهمتها البيولوجية فى الزواج والحمل والولادة .

وقد جدت ظروف جعلت هذا الاتجاه نحو استقلال المرأة يسير بسرعة . ذلك أن وفرة الآلات الميكانيكية فى البيت الأمريكى أغنت المرأة عن العمل فى المطبخ والغسل . فزاد فراغها الذى احتاجت إلى أن تشغله بالعمل والكسب خارج البيت . ومعنى هذا أن التغير فى الإنتاج المنزلى قد أحدث تغييراً فى أخلاق المرأة . وحقت هذه الآلات الكهربائية دعوة إبسن من حيث لم يكن يتظرها .

والمقارنة بين المرأة الأمريكية التى تعمل فى المصانع والمتاجر والمكاتب ، وتستقل بعواطفها ، وترسم بيدها خارطة حياتها ، وتقرأ وتناقش وتكسب وتحسر وتصيب وتخطئ ، وقد تكونت لها شخصية رصينة بصيرة قوية من هذه الحياة ، نقول إن المقارنة بينها وبين المرأة الأوروبية فى الأقطار الجنوبية مثل إسبانيا وإيطاليا ويونان حيث لا يزال المطبخ يجرى على تقاليدهِ وحيث يستأثر المطبخ والغسل بمعظم الوقت ، وحيث يسود الرجل المرأة وله عليها الكلمة العليا ، بحيث يقرر لها ، أو يكاد يقرر لها ، مصيرها ... هذه المقارنة توضح لنا سمو المرأة الأمريكية الجديدة ، باعتبارها إنساناً عاقلاً مستقلاً ، على هذه المرأة الأوروبية الجنوبية لا التى تزال مقيدة بالتقاليد .

إن العمل والكسب والاختبار والإصابة والخطأ والاختلاط بالمجتمع قد ربى المرأة الأمريكية ، فى حين أن الانزواء فى البيت قد قيد النمو الذهني للمرأة الأوروبية الجنوبية . ولا نذكر المرأة الشرقية .

## نيتشه أو فتنة الشباب



اثنان انخدعت بهما سنوات كثيرة . أولهما فيسماد الذي غرس في ذهني أن الصفات المكتسبة لا تورث . وإحساسى الآن نحو هذا الرجل هو البغص . أما الثانى فهو نيتشه الذى خدعنى . فافتنت به سنوات ، قبل أن أخلص منه . وإحساسى نحوه هو الحب . وقد عرفت نيتشه فى عام ١٩٠٩ وكنت منغمساً فى نظرية التطور .

وكان « تنازع البقاء » و « بقاء الأصلح » و « الطبيعة حمراء بين الناب والجناب » من المعانى التى أقباها فى صمت وتسليم . وهذه المعانى جميعها تنقص البيانات التى تقول بالرحمة والتعاون والإخاء البشرى بحماية الضعيف .

وهبط على نيتشه كما لو كان وحياً أو كشافاً . نثر ساحر كأنه أبيات

من الشعر . وحيال يرتفع إلى آفاق المستقبل . وجراً تكاد تجسد دهن  
الناشئ رهبة وجراً أو تنفضه حماسة وطرباً . ثم إلى ذلك فلسفة تعلمو  
على برود المنطق ، وتأخذ بحماسة الإيمان وغلواء التناؤل . وفي كل ذلك  
ارتباط بالتطور .. « إلى أعلمكم علم السبرمان . أو الإنسان الأعلى .  
ما هو القرد إزاء الإنسان ؟ أضحوكة أو خزي . . وكذلك يجب أن يكون  
الإنسان إزاء السبرمان ، أضحوكة أو خزي ؟ . إنما الإنسان معبر أو حسير  
بصل بين القرد والسبرمان . سوف يكون السبرمان اردماراً وخيرا  
وتعبيراً لها ثباتاً للأرض . أستحلفكم أن تكونوا أمتاء للأرض . وأن تكلموا  
عن التطلع إلى النجوم تنشدون منها الأمل ومكافآت . إن عليكم أن تضحوا  
بأنفسكم للأرض حتى يتاح لها أن تنجب يوماً ما السبرمان . الإنسان  
شيء يعلى عليه ، فإذا فعلتم كى تعلموا عليه ؟ »

كلمات رائعة كان وقعها في نفسي . وأنا حوالى العشرين ، وحيأ أو  
كشفاً ، فتعلقت به . وكتبته عنه مقالاً في مجلة المقتطف في عام ١٩٠٩  
بعنوان « نبشّه وابن الإنسان » .

وقد كانت نظرية التطور جديدة في أوروبا ، وكانت تكشف عن  
صورة وحشية للتطور . وقد استأهم منها أعداء المسيحية برهاناً جديداً  
يقيمونه لنقضها ، وكانوا قبل ذلك يقنعون بالمقارنات التاريخية بين الأناجيل  
يوضحون زيف الأساطير في الدين . ولم يكن يجزأ أحدهم على القول  
بأن الأخلاق المسيحية ليست هي الأخلاق المثلى أو أنها تؤخر  
البشرية أو أن هناك ما هو أرقى منها . ولكن نبشّه لم يبال الأساطير أو  
المعجرات . إذ عمد إلى دعوة المسيحية التي امتازت بها . وهي الرحمة وحب  
المساكين والضعفاء . فحمل عليها ووجد فيها ميداناً لبحث القيم والأوزان  
التي يعيش بها الأوروبيون المسيحيون . فقال إن هذه الأخلاق تعارض  
بقاء الأقوياء « الصقور » وتصدهم عن حقهم الذي تنطق به الطبيعة وهو

أن الصقر يجب أن يأكل العصفور . فإن بين البشر عصافير ضعفاء يستحقون الفناء ، كما أن بينهم صقوراً قوية تستحق البقاء . وهو في هذا المنطق لا يذكر داروين . مع أن القارئ لمؤلفاته لا يبالئ أن يذكر نظرية التطور .

ونيتشه أديب من الطراز الأول . وهو أيضاً لغوى وفيلسوف . ومن هنا سحره الذي لا يقاوم . فإنه يفكر تفكير الفيلسوف ويكتب بلغة الأديب . وهو يرجع بحثه إلى التاريخ .

فإن الرومانيين القدماء كانوا قبل أن يعتنقوا المسيحية يتخذون السيف شعاراً والقوة مذهباً ، وكانت أخلاقهم تنزع إلى البطولة كما يتضح من كلمة Virtue ومعناها الفضيلة . فإنها مشتقة من كلمة Vir ومعناها الرجل ، فالفضيلة كانت عند الرومانيين صفة الرجل أو أهم خصائصها ، ولكن المسيحية جاءت في زعم نيتشه فاستبدلت بالرجولة والبطولة ضعفاً زرياً نرى نتائجه في شعوب أوروبا الحاضرة حيث تنفشي الأمراض وتكاد تكون خالدة لأننا نحمل كل مريض ونعني بعلاجه .

ولد نيتشه في عام ١٨٤٤ ومات في عام ١٩٠٠ وكان أبوه قسيساً ، كما كانت أمه امرأة متدينة . وقد هيئ لأن يدرس في كلية دينية كي يكون قسيساً ، ولكنه التفت إلى اللغات فبرع فيها . ومن تحليل الكلمات القديمة استطاع أن يحلل التطور الأخلاقي في أوروبا . ونستطيع أن نلخص فلسفته بأنها ترى إلى أن تجعل غاية الحياة خدمة الأقلية من الشخصيات السامية ، وليس خدمة الأكثرية أو سواد الأمة . وهو هنا بالطبع غير ديمقراطي ، بل عدو الديمقراطية .

وهو بكلمة أخرى يطلب أخلاق السادة بدلا من أخلاق « القطيع » كما يصف سواد الشعب .

ومما ينبهنا هنا أن هتلر كان كبير الإعجاب به . وقد أهدي مجموعة فاخرة من مؤلفاته إلى موسوليني . وكلاهما ، أى هتلر وموسوليني ، كان عدواً للديمقراطية . ولكننا لا نغنى من هذا القول أن نيتشه يحمل قارته على الاعتقاد بأن الفاشية نظام حسن ، فإن فيه أحياناً من سمو الفكرة ونضج الحكمة ما يجعلنا نشمئز من المقارنة بينه وبين هذين الطاغيتين .

ونحن نضحك منه حين يقول : « اللحدون والمسيحيون ، والبقر والنساء ، والإنجليز وسائر الديمقراطيين ، ينتمون إلى أصل واحد » . ولكننا نحس بروعة أفكاره حين يقول : « الزواج هو اجتماع لإرادتين لإيجاد شخص ثالث أعلى من الزوجين » .

وقوله : « لا يجب فقط أن نتنازل إنما يجب أن نتنازل إلى أعلى » . وهذا أحسن ما قيل عن الزواج . فإنه رفعه من معاني السعادة واللذة إلى معاني التطور والتضحية ، أى يجب أن يدبر الزواج بحيث يؤدي إلى الرقي البيولوجي وإيجاد السبرمان وزيادة الذكاء والصحة والقوة .

وحملة نيتشه على المسيحية تنساق مع فلسفته . فإنه يجد فيها دعوة إلى التواضع والخضوع والطيبة ، في حين هو يطلب الارتفاع والكبرياء والقسوة . أو يمكن أن يقال إن المسيحية تنشئ مجتمعاً أفقيّاً يتساوى فيه الجميع ، بل يمنع التفوق لبعض أفرادهم ويعيد الجميع إلى حال سواء من المتوسط . ولكن نيتشه ينشد مجتمعاً عمودياً يتيح للعظماء أن يتفوقوا ويسودوا .

وعنده أن « الشرف » وثني روماني أرسقراطي . أما « الضمير » فمسيحي يهودي ديمقراطي . وأن أوربا لهذا السبب مهددة ببوذية جديدة تنكر فيها الحياة . ومن أقواله :

« الغريزة هي أسمى أنواع الذكاء التي اكتشفت إلى الآن » .

« ونصيحتي إليكم أيها الإخوان هي : كونوا قساة صلاباً .  
« علينا أن نفر من أقرب الناس إلينا ، من جيراننا ، ونحب أبعد  
الناس عنا » .

« تفاوت الحقوق هو الشرط الأساسي لوجود الحقوق » .  
« لصغار الناس صغار الفضائل ، ولكنني لا أعرف ما حاجتنا إلى  
صغار الفضائل » .

« ليس للأناية قيمة في الأرض أو في السماء . وجميع المسائل العظيمة  
تحتاج إلى حب عظيم » .

« الانتقام الصغير أكثر إنسانية من العف عن الانتقام » .  
« ما هو الشيء الحسن ؟ هو كل ما يزيد الإحساس بالقوة ، أي  
إرادة القوة ، أي القوة ذاتها في الإنسان » .

« وما هو الشيء السيئ ؟ هو كل ما ينشأ من الضعف » .  
« عيشوا في خطر ، شيدوا مدنكم إلى جنب فيزوف . ابعثوا بسفنكم  
إلى بحار مجهولة » .

« لأنك جعلت الخطر حرفتك ، لذلك أدفئك بيدي » .

ومن هذه المختارات الموجزة نجد أن نيتشه لا يقدم لنا فلسفة ومنطقاً  
بمقدار ما يقدم لنا أشعاراً أو مذهباً وعقيدة خلاصتهما أن نتخلص من  
الضعف ونقسو على أنفسنا وعلى غيرنا . ومع أننا نحس من اتجاهاته  
الفكرية أنه على التصاق واعتناق للمذهب داروين في التطور البيولوجي ،  
فإن الميزة واضحة في أنه لا يطلب سبر مآل للمستقبل بمقدار ما يطلب منا  
أن نكون نحن على سمو وارتفاع فوق العامة ، وعلى مقاطعة للأخلاق  
المسيحية .

وإنسان المستقبل ( السبرمان ) الذي يرتفع فوقنا بمقدار ما نرتفع .

نحن فوق القردة ، لا يحتاج لإنجاده إلى الفسوة الأخلاقية بمقدار ما يحتاج إلى التنظيم الاجتماعي للزواج والتناسل وهذا يتم بالتعاون والرفق أكثر مما يتم بالتنازع والقسوة .

ومنطق المسيحية هو المنطق الإنساني بالتعاون ، ومنطق نيتشه هو المنطق القطري بالتنازع .

وقسوة المبادئ الإمبراطورية ، والقول بأن هناك سلالات بشرية لها حق السيادة على الشعوب السوداء أو السمراء أو الصفراء ، هما أبعد ما يكونان عن تفكير نيتشه عندما نأمل ونبتعمق مؤلفاته . ولكن ليس هناك شك أن الدراسة السطحية قد عملت لتأييد هذه الاتجاهات ، كما ينضح من إكبار النازيين الألمان والفاشيين الإيطاليين لمؤلفاته لاعتقادهم أنه يؤيدهم .

\* \* \*

والعمري لنيتشه في حملته على المسيح يحس وجاهه الرأي الذى يقول به « أندريه جيد » ، وهو أن نيتشه يغار غيره شخصية من المسيح . فإن كلماته تحمل أحياناً بذاء أكثر مما تحمل نقداً . وهو في كتابه « هذا ما قال زرادشت » يقحم الإنجيل ويكذب كلمات المسيح . بل نحس ، ونحن نقرأ هذا الكتاب ، أنه يقلب العبرة والدلالة من كلمات المسيح ويضع مكانها كلمات أخرى لها نقيض الأخلاق المسيحية . ثم يزيد على هذا فيحاكى أسلوب الإنجيل . فكما أن المسيح كان يجادل الفريسيين ويناقضهم ، كذلك نيتشه قد جاء كي يجادل « الطيبين العاديين . . . لأن عقولهم مقيدة في سجون ضمائرهم » . ثم يخاطب تلاميذه بما يشابه أو يطابق خطبة الجليل حين خاطب المسيح تلاميذه ، ولكن مع الفرق في العبرة والدلالة . إذ حيث يدعو المسيح إلى الرحمة والحنان والإخاء البشرى في



أبوه الله ، يدعو نيتشه إلى القسوة وضرورة التفاوت . ولنيتشه كما للمسيح خلوته واستمحاؤه وله أيضاً « العشاء الأخير » الذى يقول عنه لسان زرادشت « هذا العشاء لتذكرونى » .

ثم تزداد الغبرة إلى حد الجنون فيقول : « ما هى أعظم الخطايا على الأرض إلى يومنا هذا ؟ أليست هى قول ذلك القاتل : ويل للمسيح ، الذين تضحكون فى هذا العالم » . وهو هنا يشير إلى المسيح تم يداكى وبناقص بما فى قوله على لسان زرادشت .

« المسيح أنكم إذا لم تصيروا كالأطفال الصغار فإنكم لن تدخلوا ملكوت السموات ( وهنا يشير زرادشت إلى السماء ) ولكننا لا نرغب فى أن ندخل هذا الملكوت لأننا قد صرنا رجالا . ولهذا نحن نشهد ملكوت الأرض » .

بل يتحدث فى جنون ، فيأسف على أن المسيح لم يعمر طويلا . ويقول إنه لو كان قد عمر طويلا لنقض آراءه التى كان قد قال بها ، ثم يقول : « حقيقاً لقد مات هذا العبرانى . .

» لم يكن قد عرف فى حياته سوى دموع العبرانى وأحزانه ، مع كراهة الطيبين والعادلين ، هذا المسيح العبرانى ، ثم إذا ببداية الموت تطويه . . .

» ولم يعيش فى البداية بعيداً عن الطيبين والعادلين ، لعله لو كان قد فعل لكان قد عرف كيف يعبد . وكان عمادته يجب الأرض والحياة أيضاً . . .

» ثموا يا إسحواى أنه مات دون أن يعمل . ولو أنه كان قد عاش متلمذا معيشة ، وعمر مشامها بمرمت ، لنقض ما كره قد قاله ، أجل : إنه كان على شرف يحمله على أن ينقد ما كان قد قاله .

« ولكنه لم ينضج ، وحبّه إنما كان حب الشباب الذى ينقصه النضج .  
وهذا هو علة كراهته للأرض والحياة » .

\* \* \*

إن كثيراً من أقوال نيتشه يوهّم الهوس إن لم نقل الجنون . وربما  
مما لا شك فيه أنه قضى نحو عشرين سنة وهو فى جنون يكاد يكون  
مطبّقاً ، إذ كان فى الدور الأخير من السفلس . ولعل هذا الجنون كان قد  
تسلل ونبداً قبل أن يطبق عليه . ولعل أيضاً بعض هذيانه يعزى إلى هذا  
المرض .

على أن كثيراً من « الهذيان » لا يزيد أن يكون إسرافاً وتوتراً  
فى التعبير .

ولكن ليس من الصواب أن نحذف نيتشه بدعوى الهوى أو الهذيان  
أو الجنون ، فإنه قد عرض لقضية إنسانية واضحة يجب على كل فيلسوف  
أن يواجهها فى صراحة وأن ينتهى فيها إلى حكم فاصل . وليس ثم مفر  
من هذه المواجهة .

وهذه القضية هى أن مصلحة البشر وارتقاء الإنسان يقتضيان محاربة  
الضعف والمرض والنقص كما يقتضيان تشجيع وتأييد الصفات العالية  
كالصحة والقوة والذكاء فما دام هذا هو الهدف فهل من الخير للناس  
أن يؤسّسوا المستشفيات لمعالجة المرضى ؟ وهل من الخير أن يباح الزواج  
للأبله والمخفل والأشوه ؟ ثم ما دمنّا نؤمن بأننا كنا على مستوى منخفض  
من الذكاء قبل مليون سنة ، حين كنا والحيتون سواء ، فلماذا لا نعمل  
فى اطراد التطور كى نزداد صحة وقوة وذكاء ؟

لقد كنا فى الغابة نعيش بالقطرة ، وكانت الطبيعة قاسية لا ترحم ولا  
تعرف دواء لمعالجة المرضى ، وكان الموت يفشو ويفتك بالآلاف ولا

يبقى منا غير الصالح القوى القادر على المشقات . تم جاءت الحضارة فجمعت الضعيف إلى جنب القوى . وسادتنا أخلاق الرحمة والإخاء والتصدق ، فعاش بهذه الأخلاق ناس ما كانوا ليستطيعوا العيش في الغابة . ثم هم مع ذلك يتزاحون ويتناسلون فيجعلون المرض والضعف والدمامة مخلدة في العناصر البشرية .

وصيعة نيتشه هنا : عودوا إلى شريعة الغابة ، عودوا إلى تنازع البقاء ، هي صيعة تستحق النظر والتأمل . ولا يغى فيها القول بأنه كان مريضاً بالفلس أو أن هذا القول هذيان . إذ ليس هذا هذياناً .

لقد كان القرن التاسع عشر عصر الإيمان بالوراثة ، وهي القدر الذى يعين لنا حفظنا في الحياة بما ورثنا من كفايات من آباءنا . ومع أن القرن العشرين قد نقض كثيراً من هذا رأى ، وأدحض بعض الأركان لهذا القدر ، فإن الوراثة لا تزال تحتل جزءاً كبيراً من التفكير البيولوجى . وكلنا يثق هذه الأيام بقيمة الوسط في التغير والتطوير ولكن مع اختيار السلالات التى تعينت لها صفات واستقرت فيها خصائص بحيث نعود فنستغل هذه الصفات والخصائص في الوراثة .

وقد ظهرت « اليوجنية » أى علم ترقية السلالات البشرية بناء على الإيمان بالوراثة ، وهي إلى الآن يوجنية سلبية . بمعنى أن الأهم المتمدنة تعتمد إلى تعقيم الناقصين والبله حتى لا يتناسلوا . وقد عمد هتلر إلى شيء من اليوجنية الإيجابية بتشجيع المتفوقين على التناسل وخصهم بميزات لم يكن يحصل عليها سائر أفراد الشعب . وذلك أيام النازية . وهذا كله من وحى نيتشه كما هو من التعاليم التى فشلت عقب نظرية التطور .

وقد كان لكتاب البيولوجى فيسمان « الجرثومة المنوية » أكبر الأثر في الإسراف في الإيمان بالوراثة ، وقد أفسد هذا الرجل ذهنى بل أخلاقى

مدة طويلة .

ولكن رويدا رويداً تغيرت النيرة في التطور . فبدلاً من القول بتنازع البقاء في الطبيعة أثبت كوربنكين أن التعاون ، وليس التنازع هو شريعة الغابة . ثم انتهينا في السنوات العشر الأخيرة إلى التسليم بأن الوسط يغير الحي ، نباتاً أو حيواناً أو إنساناً ، وأن هذا التغير الوسطى يعود فيثبت بالوراثة .

ففي ضوء التطورات وفي تجارب الوسط لا نستطيع أن نسام بمذهب نيتشه بأن نكون قساة لا نرحم . فالتطور بصيحه بالتعاون ، والوسط يستطيع أن يغير ، ونحن البشر بما وصلنا إليه من معارف بيولوجية نستطيع أن نزيد سرعة التطور بالتنظيم الاجتماعى الذى يحقق الارتقاء البيولوجى .

\* \* \*

كثيراً ما أعود إلى قراءة نيتشه لا لأننى مقتنع بمطقه ، ولكن لأنى أجد سحراً على الدوام فى تعبيره وأحباباً فى تفكيره . انظر إلى ما يقوله عن الرحمة :

« إن الرحمة تناقض الشهوات الحمية المنعشة التى ترفع نشاط البشر وتزيد إحساس القوة ، إذ هى تكرب وتغم . ونحن نفقد حيواننا حين نمارس الرحمة . وما نفقده من قوة وحيوية ، بسبب الألم مثلاً ، يزداد ويتضاعف بالرحمة . حتى ليصير الألم معدياً بالرحمة . وقد يؤدى فى بعض الظروف إلى أن نفقد الحياة ذاتها ، وإذا شئت برهاناً على ذلك فاذكر هذا التصرف الذى انتهت به رحمته لأبناء البشر إلى الصليب !

« وأيضاً تفسد الرحمة شريعة التطور التى تقول ببقاء الأصالح . وهى ، أى الرحمة ، تستبقى ما كان يجب أن يموت ، كما تعمل لمصلحة

الذين حكمتم عليهم الطبيعة . وهي تضفي على الحياة لوناً قائماً بعدد  
الاقصين الناسدين الذين نعولم ، وهي تضاعف التعس كما تحافظ عليه .  
وهي الأداة الأولى لترويح الانحطاط . وهي تؤدي إلى الفناء ، إلى إنكار  
الغرائز التي تنبئ عاها الحياة . . » !

وليس شك أن في هذا الكلام هدياناً كثيراً ، ولكنه كان هدياناً  
يسخرني لأول وقعه في نفسي ، وأنا خام أخضر في سن العشرين . كان  
يسحر وبنيه ، إذ كان يبعث على المراجعة والفحص عن الأخلاق  
العامة والتقاليد الموروثة التي كنا نعيش فيها مستسلمين غير متسائلين  
أو مستعلمين .

أو انظر على ما يقوله عن الحياة :  
« إنما الحياة في مميمها امتلاك واحتياز وإيذاء ، ومحق للضعفاء  
والعاجز بن عن التلاؤم والتكيف . وهدف الحى هو إبراز شخصه والتمكن  
من تأدية وظائفه غير معارض أو معطل » .

وهذه المقتبسات التالية هي صورة المجتمع والحضارة كما يراها نيتشه  
إذ يقول :

« إن نظام الطبقات هو السنة السائدة للطبيعة . وهي سنة لا تستطيع  
أية قوة بشرية أن تتغلب عليها في كل مجتمع صحيح توجد ثلاث طبقات  
لكل منها أخلاقه وعمله وما يفهمه من معاني الكمال والسيادة . وتتألف  
الطبقة الأولى من أولئك الذين يمتازون بالتفوق الذهني على سواد الأمة .  
وتتألف الثانية من أولئك الذين يمتازون بالتفوق العضلي ، أما الطبقة الثالثة  
فمن المتوسطين .

« وللطبقة الأولى ميزة التمثيل للجمال والسعادة والطيبة على الأرض .  
وأفراد هذه الطبقة يقبلون هذا للعالم كما هو ويستخدمونه بما في مستطاعهم ،

وهم يجدون سعادتهم في تلك الشئون التي تدمر من هم دونهم في الصعوبات والقسوة نحو أنفسهم ونحو غيرهم من الجهد ولذتهم في حكم أنفسهم . والنسك عندهم طبيعة وضرورة وغريزة . وهم يتحملون الواجبات الشاقة كما لو كانت امتيازات يمتازون بها . وهم يرتاضون بتحمل الأعباء التي تسحق غيرهم إلى الموت . وهم زبدة الناس وأكثرهم حباً وفرحاً . وهم يحكمون عفو طبيعتهم ، كما أنهم ليسوا أحراراً في أن ينتظموا في الصف الثاني .

« أما الطبقة الثانية فتتألف من الأوصياء وحفظة النظام والأمن . رجال الحرب والأشراف والملوك ، وفوق هؤلاء القضاء حماة القوانين . وهم أسمى طرازاً من المقاتلين الحربيين ، فإنهم ينفذون أوامر الطبقة الأولى ويريحونها من الأعمال اليدوية أو الحشنة التي يحتاج إليها الحكم .

« وفي أسفل توجد الطبقة الثالثة من أفراد الصناعات اليدوية والتجارة ومعظم الفنون والعلوم . ومن سنن الطبيعة أن يكون كل هؤلاء من المرافق العامة في الأمة أو دوايب تدور ووظائف تؤدي . والسعادة الوحيدة التي يستطيعها أفراد هذه الطبقة هي قدرتهم على أن يكونوا آلات ذكية . لأن الرجل المتوسط يفهم من السعادة أنها حال التوسط . والتخصص أو التفوق في تدريب معين هو غريزتهم .

« ولا يليق بالذهن الضيق أن يعارض حال التوسط هذه . لأن هؤلاء المتوسطين ضرورة للمجتمع البشري . إذ يتيحون للرجل الفذ أن يوجد .

« من من الناس أكرهه أكثر من غيره ؟

« أكره ذلك الاشتراكي الذي يهدم الغرائز السليمة عند العامل بأن ينزع منه إحساس القناعة بمكانه ويجعله حسوداً ويعلمه الانتقام ..

« أجل يجب أن نعرف أنه ليس هناك ظلم في تفاوت الحقوق » .

\* \* \*

مات نيتشه في عام ١٩٠٠ ، أى دفن في هذه السنة . ولكن الواقع أنه كان ميتاً منذ حوالى عام ١٨٨٥ للمرض الذى أشرنا إليه . وهو مريض لم يقعد جسمه فقط بل أمات ذهنه . ولم يكد العالم المتمدين يحس بوجوده إلا بعد وفاته . وكان الإحساس عندئذ حاداً . ففى عام ١٩٠٠ إلى عام ١٩٥٠ ونيتشه يعلو على جميع المفكرين الأوروبيين ، بل يمثل مشكلة الضمير الأوروبى مشكلة السياسة الأوروبية ، سياسة التنازع إزاء سياسة التعاون . وهو لو كان فيلسوفاً فقط ، يكتب بالبطانة الفلسفية التى لا يفهمها غير المثقفين ، لما كان خطره كبيراً . لكنه كان شاعراً يتغنى ويتزيم ولذلك كان ولا يزال ، يجذب إليه الشباب الذين يقودهم إلى الضلال أو يهديهم إلى الرشاد ، فهو غواية وفطنة كما هو نور ومعرفة . هو جنون وعقل .

وأكاد أقول عندما أجد شاباً يقرأ نيتشه : حذار ، لا تقدم . إنك على طرف هاوية . وقد تنزل فتتردى ، ولكن اقرأ دسوتوفسكى وغاندى وشيفتزر وبرناردشو ، فهم الترياق الذى تحتاج إليه إذا قرأت نيتشه . لا . بل يجب أن تقرأ نيتشه ، لأن أقل ما فيه أنه يحثك على التساؤل والاستطلاع ، ويحول بينك وبين التسليم المطلق للعرف والعادة . إذ هو قوة تحريرية عظيمة ، ولكنه أيضاً يحمل تبعات سامية بشأن المستقبل البشرى على هذه الأرض ويكسبك العقلية الفلكية التكهنية فى الفلسفة وعندئذ ستعرف أن القيمة العظمى فى الفلسفة ليست نظاماً منطقياً يقول بأن اثنين واثنين يساويان أربعة ، وإنما هى فى تعيين القيم والأوزان الأخلاقية التى تخدم رقى الإنسان ، وفى التكهّن بالمستقبل البشرى والاستعداد له . وميزة نيتشه هنا أنه استطاع أن يقنع أوروبا بأن الأخلاق يجب أن تنبنى على أساس بيولوجى بشرى .

كسب نيتشه حوالى عام ١٨٨٠ إلى أخته يقول :

« عدينى أننى عندما أموت لن يقف حول نعتى سوى أصدقاءى  
ولن يكون حولى أحد من الغوغاء المتسائلين . واعلم على ألا باقى قسيس  
على قبرى أكاذيب وأنا عاجز عن حمايته نفسى ، وودعنى إلى فبرى  
وأنا وثنى شريف » .

ومات فى عام ١٩٠٠ مغموراً لم ترثه جريدة ولم تذكره صحافته . ولجده  
بعث بعد موته ، إذ أصبح الضمجة الكبرى والصميحة العليا ، فى جميع  
الأوساط المثقفة ، ولا يزال دونه عالياً واسمه رمزاً للتساؤل .  
وفى نفسى له حب وأسف وإقبال وصدود .



## إرنست رينان !



في السنين الأولى من هذا القرن كان شاب لبناني يدعى فرح أنطون ،  
يمدر في مصر بجيلة صغيرة تسمى « الجامعة » ، وكانت الثقافة الغالبة  
على هذا الشاب فرنسية . وهو كان يكتب اللغة الفرنسية بكلمات عربية .  
وكان لذلك فهمه للثقافة والأسلوب والأدب يختلف عما كنا نفهمه  
من كتابنا المصريين البارزين الذين كانت تغلب عليهم الثقافة العربية  
القحة .

وقد عرف عن طريق فرح أنطون كتاباً فرنسيين بعثوا في نفس  
استطلاعاً للثقافة الأوروبية ، وغرسوا في ذهني شكاً في العقائد والعادات  
الشرقية ، ووصلوا بيني وبين الآداب البشرية بصلة القرى والرحم  
وحبوا إلى الطبيعة ، وفتحوا عيني إلى الأجواء والآفاق ، فلا يغرب عني

نشاط فكري ، ولا يفصل بيني وبين كاتب قديم أو حديث فاصل من دين أو عنصر أو لغة . وقد رأيت في حياتي كتاباً أضلهم الاستغراق العنصري أو الديني أو القوي وعمرتهم موجاته . ومع أن هذه الموجات قد مستنى بطلاوتها السطحية ، فإني سرعان ما كنت أتخلص منها بل أظهر منها

ذلك أن فرح أنطون قد وجهني نحو أوروبا الجديدة ، أوروبا البشرية ، أوروبا التي كانت تسترشد بقولتيروس ورينان . وما زلت أذكر طرب الحماسة الذي غمرني حين كنت أقرأ قصة صغيرة ترجمت إلى العربية باسم « الكوخ الهندي » لمؤلفها الفرنسي برناردن دو سان بيير . فقد كان هذا المؤلف يصف سداجة العيش وجمال الحب وروعة الطبيعة بكلمات ساحرة تترك في النفس إحساساً دينياً نحو المرأة والشجرة والسماء والأرض . كما تفتح الذهن لمعاني القناعة والاستغناء . وكان هذا المؤلف من أولئك الذين دعوا دعوة الطبيعة مع جان جاك روسو ، وأعطوا أوروبا عيوناً جديدة رأت من خلالها وعرفت بها هيئة الجبال وروعة الأشجار . ومعنى الاصطيف على الشواطئ ، والانغماس في الماء . بالرجوع إلى الطفولة التي أفسدتها الحضارة ، والتي يجب ألا تفارقنا طوال أعمارنا . في القدرة على الاستمتاع بحيوية الحياة ولذة اللعب والنفور من تعقد العيش وارتباكات الترف المرهقة .

وهناك من لا يرالون يستصغرون قيمة الأديب العظيم في توجيه الحضارة وتكوين الأذواق . ول هؤلاء نذكر جان جاك روسو . فإن العالم قبله لم يكن يعرف معنى التحول في الحقول أو الاصطيف على الشواطئ . وهذه الحقول والشواطئ كانت مع ذلك في مكانها كما هي الآن قبل روسو ، ولكنها كانت خالية ممن يحول فيها ويتأمل سماءها وأرضها وأشجارها أو ينغمس في مياهها ، ولكن روسو بدعوته الحارة

إلى الطبيعة ، وتقديسه لها ، رد إلى الناس هذا الإحساس وبسط لهم مبادئ جديدة للاستمتاع النفسى كانوا يجهلون قبله .

وحين أجد شفيتزر يدعو إلى تقديس كل شىء حى ، وحين أجد ثورو يتساءل : لماذا لا نقرع النواقيس فى الكنائس حين تقنع شجرة من مكانها نعيماً لها وحزناً على الطبيعة المبروكة ؟ وحين أجد غاندى يترك المدن ويقنع بأن يعيش فى كوخ بين الحقول بثلاثة قروش فى اليوم ، وحين أجد الطرب البشرى يغمر سواحل الإسكندرية أو بور سعيد فى أطفال وفتيات وشبان يمرحون و«يزأطون» فى الماء والهواء وقد خاضوا مركبات المدنية وعادات العرف . حين أجد كل هذا لا أملك أن أذكر جان جاك روسو نبى الطبيعة وأديبها ، الذى غير أذواق الناس ووجه النفوس وجهاً جديدة زادت البشر سروراً واستمتاعاً وحباً

لقد عرفت روسو ، أول ما عرفته ، بقلم فرح أنطون .

ثم عرفت أديباً آخر بقلمه أيضاً كان له أبلغ الوقع وأبعد الأثر فى ثقافتى وتربيتى . هو إرنست رينان . وهو الذى غرس فى نفسى الروح البشرى ، وبهذا الروح أحببت تلك الشخصية السامية التى وصفها رينان فى كلمات الحب والإعزاز والتى أحاول مع العجز ، ولكن مع الأمل ، أن أرتفع إلى الأخلاق التى رسمها فى شخصيته المسيح .

وقد تحطم فرح أنطون بما وقع فيه من مناقشات تاريخية مع الشيخ محمد عبده بسبب إرنست رينان . وتحطم إرنست رينان بسبب كتابه عن المسيح . ومثل هذه الممارك الأدبية تحتاج إلى الشرح الذى لا يسمح له هذا الفصل ، ولكن قصارى ما أقول إن فرح أنطون نقل عن رينان اضطهاد الحكومات الإسلامية للأحرار . فرد عليه الشيخ محمد عبده بأن اضطهاد الحكومات المسيحية كان أكبر وأقسى . ودارت المساجلات

بين الاثنين ، هذا مكتب في الجامعة وهذا يكتب في المأز ولم تكن  
الجمهور المنصف يحمل في ذلك الوقت الوهم اللاسع من هذه المساحلات  
واسهرم فرح ورحل إلى أمريكا كي يعود بعد ذلك إلى مصر وينعش  
التوره الوطنية إلى حب سعد .

أدا إرنست ريمان فكان تحطمه أكبر وأبلغ . فقد ولد هذا الأديب  
في عام ١٨٢٣ ومات في عام ١٨٩٢ ، وفضي من العمر نحو أربعين أو  
خمس سنه وهو يخيم على أوربا ويضيء عقولها ويربى نفوسها . وأوربا  
بعده غير أوربا قبله . بفضل ما كتب وبمصلح ما نألم وقد تعلم كثيراً  
وما زلت أحس كأن سكياً تمزق أحشائي حين أذكر أن هذا  
الأديب العظيم ، بعد أن حرته الكنيسة الكاثوليكية وبعثت رعاياها من  
فراءة مؤلفاته . وبعد أن حطت عليه السبخوخة حتى كادت تهعد . بعث  
بخطاب إلى ناظر المدرسة الابتدائية التي كان قد نعام فيها قبل سنين سنه  
يطلب منه أن يأذن له بزيارتها كي يرى الفصل الذي تعلم فيه حروف  
الهجاء ، والمساء الذي لعب فيه مع أقرانه . وكى يلمس جدرانها التي تمسح  
بها . ويصلى في إحدى غرفها على اختلاء . صلاة الحب والمذكرات لهذه  
الأيام الماضية والتي تنفصل عن حاضره بما يشبه فرناً من الزمان .

وتسام ناظر المدرسة الخطاب . وكانت المدرسة دينيه كاثوليكية . قد  
كان ناظرها راهباً يعرف أن رينان مطرود من الكنيسة وأن مؤلفاته من  
المخطورات . فلما قرأ الخطاب وتأمل الإحساسات الجميلة التي ينتويها  
كتب إلى رينان في رقة بالغة يشكره على أنه تذكر الرهبان الذين علموه  
طفولته . وتذكر الأقران من الصبيان . بل لعله تذكر صلاة الصبح  
التي كان يقولها في ابتهال قبل ابتداء الدروس . ثم بعد ذلك يقول له  
إنه لا يستطيع أن يأذن له بزيارة المدرسة لأنه . . . لأنه كافر . منبوء  
من الكنيسة .

ولا بد أن رينان قد تصور على مرسته من ألم هذه الصدمة ، بل لا بد أنه بكى . وانهمرت دموعه وبللت هذا الخطاب .

ولكن ليست هذه هى الدموع الأولى التى انهمرت من المؤلفين الذين علموا أوربا . ولولا هذه الدموع ، ولولا هذه الآلام ، لبقيت أوربا حامدة متأخرة مثل الشرق .

نشأ رينان نشأة كنسية إذ تعلم فى مدرسة للإلهيات . ولكنه تركها وأثر دراسة اللغات والأدب . ودرس اللغات السامية وأتقن اللغة العربية ، ودرس فلسفته ابن رشد ونقلها ووضعها فى اللغة الفرنسية . وقد نقل فرح أنطون عنه هذا الكتاب تلميحاً وترجمة تحت عنوان « ابن رشد وفلسفته » .

وأوفدت الحكومة الفرنسية فى عام ١٨٦٠ بعثة إلى فلسطين لدراسة الآثار كان هومن أعضائها . وكانت أخته أفريت ترافقه . وعاد إلى باريس وحاولت الحكومة الفرنسية أن تعينه أستاذاً للغات السامية ، ولكن الكنيسة اعترضت لأنه كان قد ألف كتاباً عن المسيح بعنوان « حياة يسوع » فى عام ١٨٦٣ باعتباره إنساناً لا أكثر . . .

وتابعت مؤلفاته عن الشؤون السامية ، مثل « تاريخ إسرائيل » ومثل « شعاورات فلسفية » ومثل « مستقبل العلم » .

وزاره جمال الدين الأفغانى فى باريس فوصفه رينان بأنه ملحد عظيم . وهنا مجال للتفكير ومراجعة الآراء فى مصر . وقد سبق أن شرح لنا على عبد الرازق ( باتنا ) هذا الموضوع .

ولم يكتب أحد فى سحر الأساطير الذى كتب به رينان وضوحاً ويسراً وقد قيل عنه إنه كان يفكر كما لو كان امرأة ، ويعمل كما لو كان طفلاً . وهذا أحسن أو من أحسن ما يقال عن كاتب أرصد عمره للتفكير

المثمر ، فإن المفكر العميق يحب أن يكون عميقاً أيضاً في إحساسه .  
أما من حيث العمل فإن هذا ليس من شأنه . وإنما هو شأن روحته  
أو صديقه إذ ليس له وقت أو كفاءة للعمل

وكانت ثقافته تنسبط إلى الآفاق أكثر مما تسبر الأعماق . ولذلك  
نجد له الاشارات والإيضاحات عن العرب والإغريق واليهود والعلم  
والأدب ، ولكننا نجد أنه حين يتخصص لا يتعمق .

وكتابه عن حياة المسيح الذى ترجمه فرح أنطون إلى اللغة العربية في  
تلخيص غير مغل ، هو جوهرة من جواهر الأدب الفرنسى بل الأدب  
العالمى . ومع أنه قد جرد شخصيته من الغميبات فإنه أبرز ميزاته الأخلاقية  
ودعوته الإنسانية بحيث إن القارئ للكتاب سواء أكان تقليدياً أم  
عصرياً ينتهى بالحب والاحترام إذ يجد في المسيح جمالاً وفتنة كما يجد  
في دعوته تحدياً لكل رجل في شرفه وأسلوب حياته .

ومن هنا يعد إرنست ريتان من دعاة البشرية . وهو وإن لم يكن قد  
دعا هذه الدعوة مباشرة ومواجهة . فإنه بمؤلفاته العديدة فد دعا إليها  
مداورة ومواربة . إذ هو يجمع بين الأدباء والأنبياء والفلاسفة ويضعهم  
جميعاً في صف لتربية الضمير البشرى . فهو مسيحى مسلم يهودى بوذى .  
وهذا هو شأن الكثيرين من أدباء عصرنا الممتازين بل كذلك هذا هو  
إيمان الساسة الممتازين أمثال غاندى ونهرو . بل ماذا أقول ؟

لقد كان هذا إيمان السلطان أكبر الذى حاول أن يوجد ما أسماه  
« الدين الإلهى » حين عقد مؤتمراً في الهند من المسلمين والمسيحيين  
واليهود والهندوكيين والبوذيين .

بل لقد كان هذا إيمان محى الدين بن عربى حين قال هذه الأبيات  
الخالدة .

لقد كنت قبلى اليوم أنكر صاحبي      إذا لم يكن دينى إلى دينه داني  
وقد صار قلبي قابلا كل صورة      فرعى لغزلان ودير لرهبان  
وبيت لأوثان وكعبة طائف      والواح توراة ومصحف قرآن  
أدين بدين الحب أننى توجهت      ركائبه ، فالحب دينى وإيمانى  
أجل . دين الحب . هذا هو الذى دعا إليه رينان . وهو رسالة حياته .





## دستوفسكى ذكاء العاطفة



كان من حظى الحسن أن هبطت على الأدباء الروس وأنا حوالى العشرين ، فارتفعت بذلك إلى مستوى من التقدير للفن القصصى جعلنى فى مستقبل عمى أتناق وأحجم عن قراءة تلك القصص الإنجليزية والفرنسية والأمريكية التى لا ترتفع إلى مقام المؤلفات العظيمة التى ألفها تولستوى ودستوفسكى وجوركى وجوچول وتيشهوف وترجنيف . والحق أن الانتقال من دستوفسكى الروسى إلى أرنولد بنيت الإنجليزى هو وثبة إلى الخفيض يفزع منها الإنسان . والانتقال من تولستوى إلى أى أديب آخر فى أوربا أو أمريكا هو انهيار فادح .

وأحياناً أحاول أن أعلل حجب هؤلاء الأدباء الروس بأن الحال الاجتماعية التى وصفوها كانت تشبه حالنا فى مصر . وأن الوسط الاجتماعى

الأوربي الأمريكي كان يجري على نظم ديمقراطية حرة لا تتيح للأوربي أن يستمرئ هذا المجتمع الروسى القديم وما حفل به من فوضى وفاقه واستسلام وركود . ولكن هذا التعليل لإحساسنا بتفوق الأدب الروسى على الآداب الغربية لا يكتفى .

وقد حدث لى ما يشبه ذلك فى الموسيقى . فلانى فى مقتبل عمرى عرفت الموسيقى الأوربية الكنسية والمسرحية . فارتفع ذوقى إلى حد الكراهية ، بل العداء . للموسيقا الشرقية الباكية الجنسية الخنثة . فلست أطيق إلى الآن أغنية أو لحناً مصريين . بل لى أؤثر عليها « موالا » من تلك المواويل التى يغنىها فلاحوناً . فإن فيه أحياناً من الصلوق والرجولة ما يبعث على الاحترام . فى حين نشمئز من الأغانى والألحان المصرية الحاضرة لما فيها من التباكى والتخث . ولعل ميزة أوربا علينا فى الموسيقى أنها أدخلتها الكنائس فأكسبتها شيئاً يقارب حرمة الدين ، وهذا فى الوقت الذى تركنا نحن فيه موسيقانا وأغانينا تعيش وترافق الرقص الذى كانت تمارسه البغايا . وقد كارقصاً جنسياً خنثاً فسقطت مكانة الموسيقى والأغنى فى نفوسنا .

\* \* \*

ولد دستوفسكى فى عام ١٨٢٢ ومات فى عام ١٨٨١ . وكان مريضاً طوال حياته ، تتنابه نوبات من الصرع . وقد أخرج قصته الأولى « المساكين » فى عام ١٨٤٦ ووثب بها إلى مصاف الأدباء الأفذاذ ، وفى عام ١٨٤٩ ألقى القبض عليه بتهمة الاشتراك فى جمعية سياسية غير مشروعة وحكم عليه بالإعدام . ثم خفف الحكم إلى النفى إلى سيبيريا حيث قضى أربع سنوات ألف عنها كتاباً بعد ذلك باسم « ذكريات من بيت الموتى » . وبعد سنوات أخرى فى الجنودية والسياسة استقر على التأليف القصصى . فأخرج « الإخوة كرامازوف » وهى الأولى بين قصص العالم جميعها . وأخرج أيضاً قصة « الجريمة والعقاب » . وقد بعثنى حماسى لها

أتى في سنة ١٩١١ ترجمت منها نصفها ثم طبعت الربع بهذا الاسم ولم أتم الترجمة .

وتتسم قصصه بخنان ورقة يشيعان في نفوسنا إحساس الدين . وهي جميعاً دعوة إلى الخير وحب الأطفال وحماسة الأمومة ، ولذة التضحية، وارتفاع عن الدنيا المادية ونحو ذلك . وقد كانت حياته هو نفسه مليئة بهذه العواطف .

\* \* \*

ولندكر شيئاً مما وقع له ، ولعله كان لهذه التجربة القاسية أثر في فنه . ففي يوم ٢٢ أبريل من عام ١٨٤٩ أُلقي القبض في بطرسبورج على نحو ثلاثين شاباً كان بينهم دستوفسكى ، وكانت التهمة الخطيرة التي اتهموا بها أنهم اجتمعوا واحتفلوا بميلاد الكاتب الفرنسى فورييه .

وكان فورييه مشهوراً ببرنامج يقترحه لتغيير المجتمع . وهو حين نقرأه هذه الأيام نجد فيه سخفاً عظيماً . ذلك أنه ينص على تأليف جماعات لا تزيد إحداها على ١٦٠٠ شخص يعيشون معاً متعاونين مستقلين عن الجماعات الأخرى . وقيل إن هؤلاء الثلاثين المجتمعين في بطرسبورج قد تأمروا على ترجمة كتاب فورييه هذا ، وبما زاد في هذه « المؤامرة » الخطيرة أن أحد الحاضرين قرأ خطاباً من أديب يدعى بيلنسكى إلى القصصى جوجول يوبخه فيه لأنه عاد إلى الإيمان بعد الكفر .

وبعد أن قضى المتهمون سبعة أشهر في السجن حكم عليهم بالإعدام ، ثم قضوا شهراً آخر قبل التنفيذ . وفي يوم التنفيذ نصبت أعمدة في أكبر ميدان في بطرسبورج ثم ألبس المتهمون جلابيب بيضاء وعلى رأس كل منهم طرطور وأخرجوا في الصباح من يوم ٢٢ ديسمبر ، والثلج يغطي الأرض ، ثم حضر قسيس يحمل صليباً من الفضة ويطلب إلى كل منهم تقبيله حتى

يغفر لهم في العالم الآخر . ووقف ستة عشر جندياً يعملون بالبنادق ، وربط كل منهم إلى العمود كى يتلقى الأعيرة النارية . ثم أمر الجنود بفتح الأرندة استعداداً لإطلاق النار .

وفي هذه اللحظة فقط أعلنوا جميعهم بأن القيصر قد استبدل بحكم الإعدام الحكم بالنفى إلى سيبيريا أربع سنوات .

وبعد هذه المأساة أو المهزلة سافروا إلى سيبيريا . وقبل السفر كتب دستوفسكى إلى شقيقه هذا الخطاب التالى :

« قلعة بطرس وبولس في ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٤٩ .

« أخى : صديق الحبيب : كل شيء قد تم . وحكم على بالسجن والأشغال الشاقة أربع سنوات في القلعة ( أطلقها قلعة أورنبورج ) وبعد ذلك التحق بالجيش جندياً . وفي هذا اليوم ٢١ ديسمبر نادونا إلى مكان العرض في سمبونوف وقرعوا علينا الحكم بالإعدام . ثم أمرونا بأن نلثم الصليب . ثم كسروا سيوفنا فوق رؤوسنا ، ثم نزعوا ملابسنا وألبسونا القمصان البيض . وبعد ذلك ربطوا ثلاثة منا إلى عمود كى بشربوا بالبنادق . وكان ترتيبى السادس ، وكان النداء على ثلاثة كل مرة ، وكنت أنا بذلك في المرة الثانية فلم يكن بافياً لى من الحياة سوى دقيقة . وقد ذكرت لك أيها الأخ أنت وأولادك . وفي هذه الدقيقة لم أذكر سواك يا أخى وحبيبي . وعرفت عندئذ مقدار حبي لك . وقد تمكنت من أن أفبل بالاتسياف ودوروف . وكانا واقفين جانبي وودعهما . وأخيراً نفخ البوق وأعلن الأمر بالرجوع ، وحل الذين كانوا قد ربطوا إلى العمود .

« ثم قرئ علينا أمر صاحب الجلالة الإمبراطورية بمسح حياتنا . والحكم علينا بالأحكام الجديدة . ولم يفرج عن أحد سوى بال الذى أرجع إلى الجيش برتبته السابقة .

« وقد أبلغت يا أخى الحبيب بأنهم سيرسلوننى اليوم أو غدا . وقد طلبت رؤيتك ، ولكنهم أخبرونى بأن هذا محال وأن كل ما يستطيعونه أن يسمحوا لى بالكتابة إليك . فأسرع وابعث لى الرد . وأنا أخشى أن يكون قد بلغك الحكم علينا بالإعدام ، فقد نظرت من نافذة العربية التى حملتنا إلى ساحة الإعدام ورأيت فى الطريق جمهوراً كبيراً ، وخشيت أن يكون من رأونى قد أبلغوك وألوك بذلك . ولكن الآن يمكنك أن تهناً بشأنى . يا أخى . لا تظن أن الحكم قد هدنى أو غم على ، فالحياة فى كل مكان هى الحياة . هى فى داخنا وليست فيما هو خارج عنا . وسيكون قريباً منى أناس ، وسأكون رجلاً بينهم ، وأبقى كذلك إلى الأبد . ولن يهن قلبى أو تفشل عزيمتى أمام المصائب . وهذا فى اعتقادى هو الحياة أو الواجب فى الحياة . وقد حققت ذلك وصار هذا الخاطر جزءاً من لحمى ودمى . أجل ، هذا صحيح . فهذا الرأس الذى كان يبتكر ويعيش فى أسمى الحياة الفنية ، والذى حقق أسمى الحاجات الروحية واعتقادها — هذا الرأس قد قطع من عاتقى ولم يبق عندى سوى الذكريات والخيالات التى اخترعها ولكنها لم تتجسم فى بعد . وإنى لأعرف أنها ستمزقنى ، ولكن ما يزال باقياً لى قلبى وهذا اللحم والدم الذى ما يزال قادراً على الحب والألم والرغبة . ولا تنس أن هذه هى الحياة . أجل . ما زلت أرى الشمس . والآن وداعاً يا أخى ولا تحزن من أجلى .

« والآن هلم إلى الماديات . إن كنتى ( باستثناء الكتاب المقدس الذى ما يزال عندى ) وعدة أوراق من مخطوطاتى ، وتخطيط درامة ، وقصة ( وقصة أخرى كاملة تسمى قصة طفل ) قد أخذت كلها منى . والأرجح أنك ستسلمها .

« وقد تركت معطى وملابسى فيمكنك أن تأخذها . والآن يا أخى أظن أننى سأمشى مسافة طويلة وأحتاج إلى نقود . أخى الحبيب : إذا

تسلمت هذا الخطاب وكان يمكنك أن تحصل على قليل من النقود فأرسلها إلى بأسرع وقت ، فأنا أحوج الآن إلى المال منى إلى الهواء ( لغرض خاص ) . وابعث لى ببضع كلمات . ثم إذا جاءت نقود من موسكو فتذكرنى ولا تنسى . وهذا كل ما أريده . وأنا أعرف أن على ديونا ولكن ماذا أفعل !

« قبل زوجتك وأولادك واذكرنى عندهم كثيراً ولا تجعلهم ينسونى فعائنا نلتقى يوماً ما . أخى ، أوصيك بالعناية بنفسك وأولادك ، وأن تعيش فى هدوء وبقظة ، وأن تفكر فى مستقبل أولادك . عيش عيشاً إيجابياً . لى ما شعرت قط بوفرة الحياة الروحية فى شخصى كما أشعر بها الآن وأنا مريض بالاسخربوط ، ولكنى لا أبالى بذلك . أخى . لقد كابدت من الحياة الشىء الكثير حتى ما يكاد شىء يخيفنى الآن فى العالم . فليكن ما هو كائن . وسأكتب إليك فى أول فرصة ، وابعث لأسرة مايكوف بتسليمانى وتحياتى ، واشكر لهم اهتمامهم بخظى ، وقل ببضع كلمات حارة يملها عليك قلبك ليوجينيا بروفنا .

« فأنا أدعو لها بالسعادة وسأذكرها على الدوام بخمياها . واضغط يد نيكولاى أبولو نوفتش أبولون مايكوف وجميع الآخرين . وابعث عن يانوفسكى واضغط يده واشكره . وأخيراً صافح جميع أولئك الذين لم ينسونى ، وقبل أخى كوليا . واكتب خطاباً لى أخى أندريه وأخبره بكل شىء عنى واكتب لعمى وعمى . وافعل ذلك باسمى . وابعث لهم تحياتى واكتب لأخواتى اللواتى أدعو لهن بالسعادة .

« وربما نلتقى يا أخى فى المستقبل . لاتهمل العناية بنفسك بل عيش وابق حياً حتى نلتقى نادراً . فعائنا نتعانى يوماً ونذكر شبانا ذلك الوقت الذهبى ، ذلك الشباب وتلك الآمال التى أمزفها الآن من قايى ودمى كى أدفنها . .

« هل يمكن حقاً أنى لن أتناول القلم بيدي مرة أخرى؟ أظن أنى سأعود إلى الكتابة بعد هذه السنوات الأربع وسأرسل لك كل شيء أكتبه إذا كتبت شيئاً . وارباه اكم من خيالات عشت فيها أو اخترعها ستموت وتنطفئ فى دماغى ، أو تتمزق وتسير فى دى كالمهم . أجل . إذا لم يسمح لى بالكتابة فلانى سأموت . وخير لى من ذلك أن أسجن خمس عشرة سنة ويكون فى يدي قلم .

« اكتب لى كثيراً ، واكتب بالتفصيل والإسهاب واذكر لى حقائق... حقائق كثيرة . وفى كل خطاب اكتب لى عن شئون الأسرة مع التفصيل ومع ذكر الأشياء التافهة . ولا تنس هذا فهذه الخطابات تعيد لى الرجاء والحياة . آه لو تعرف كيف أحييتى وأتعستنى خطاباتك التى أرسلتها لى وأنا فى هذه القلعة ، وقد كان الشهران والنصف شهر الماضية ، حين منعنا من كتابة الخطابات أو تسلمها ، من أشق ما كابدهته . وقد كنت مريضاً .

« ولما أهملت أنت لإرسال النقود لى ساورنى القلق من أجلك لأنى فهمت من عدم إرسالك للنقود أنك أنت فى حاجة شديدة . قبل الأطفال مرة أخرى ، فإن وجوههم الحماوة الصغيرة لا تزيب عن بالى . لتكن لهم السعادة ! وأنت يا أخى كن سعيداً . كن سعيداً .

« ولكن لا تحزن ، وبخبك الله لا تحزن لأجلى ، وثق أنى لم أهن وتذكر أن الرجاء لم يهجرنى ، وبعد أربع سنوات سيخفف عنى ما فعلته الأقدار وأصير جندياً فينقضى سجنى . وتذكر أنى سأعانقك يوماً ما . لقد كنت اليوم فى قبضة الموت ثلاثة أرباع الساعة ، وعشت هذه المدة بهذا الحاطر وبلغت آخر لحظة من الحياة . وها أنا ذا حى مرة أخرى .

« وإذا كان أحد يتذكرنى بسوء ، أو إذا كنت قد تشاجرت مع أحد

أو أسأت إلى أحد ، فأخبره إذا لقيته بأن ينسى الإساءة وليس في نفسى  
مرارة أو نقمة على أحد ، وأود لو أعانق في هذه اللحظة كل واحد  
من أصدقائي السالفين . وقد شعرت اليوم بالراحة وأنا أودع أحبائي  
الأعزاء قبل الموت ، وخطر ببالي في هذا الوقت أن أخبر إعداى سيقنتك .  
ولكن استرح الآن فإنى ما زلت حياً . وسأعيش راجباً بأن أعانقك  
يوماً ما . وهذا كل شيء في بالى الآن .

« ماذا تفعل ، وبماذا فكرت اليوم ، وهل عرفت شيئاً عنا ؟ وماذا  
كان مقدار البرد اليوم . آه ما أشوقنى إلى أن يصل خطابى هذا إليك  
بسرعة ، وإلا فإنه إذا تأخر فإنى سأبقى أربعة أشهر بدون خطاب منك .  
وقد رأيت الظروف التى أرسلت فيها النقود لى مدة الشهرين الماضيين  
وكان عنوانى مكتوباً عليها بخطك وسررت برؤية الخط .

« وعندما التفت إلى الماضى وأتذكر مقدار الوقت الذى ضىع  
عبثاً وكم منه ضاع فى الأوهام والكسل والجهل بالعيش ، وكيف أنى لم  
أقدر الوقت حق قدره ، وكيف جنيت على قلبى وذهنى ، أحس بأن  
قلبى يسيل دماً . أجل إن الحياة عطية وهى سعادة وكان من الممكن أن  
نجعل من كل دقيقة منها عصباً طويلاً من السعادة .

« آه لو عرف الشباب . . . ! . . . والآن هذه حياتى تتغير وأنا أولد من  
جديد فى شكل آخر . أخى . أقسم لك أنى لن أفقد الأمل وسأصون روحى  
وقلبى فى الطهارة ، وميلادى الجديد سيكون إلى حال أحسن من حالى  
الماضية . وهذا كل رجا . وهذا كل عزائى .

« إن حياة السجن قد قتلت فى جسمى مطالب اللحم التى لم تكن  
كلها طاهرة ، ولم أكن قبل هذه الحياة أعنى بنفسى كثيراً . أما الآن  
فالحرمان لا قيمة له عندى ولذلك لا تخش على من المشاق المادية وتخسب



أنها ستقتلني . كلا ، لن يحدث هذا

« وداعاً . وداعاً يا أخي . إني أعانقك بقوة وأقبلك بحرارة ، تذكرني ولكن بلا ألم في قلبك ، فأرجوك ألا تحزن . وفي الخطاب الآتي سأخبرك بما يتم لي . . وتذكر عندئذ ما أخبرتك به : لا تعيش جزافاً دائماً . دبر حياتك ورتب حظك وتفكر في أولادك ، آه لو أراك . وداعاً . إني أنزع نفسي الآن من كل شيء أحببته . وهذا النزاع مؤلم . ون المجمع أن أقطع نفسي نصفين وأشق قلبي شقين . وداعاً . . وداعاً . ولكني سأراك . أنا واثق ، وإع أنا فلا تتغير ، وأحبنى ، ولا تدع ذاكرتك تبرد . . وذكرى حبك ستكون أحسن شيء في حياتي . . ومرة أخرى وداعاً . وداعاً . وداعاً وداعاً لكم جميعاً » .

أخوك

فيدور دستوفسكي

« لما قبض على "أخذوا مني كتباً عدة ولم يكن بينها سوى كتابين ممنوع تداولهما . فهل لك أن تطلب الباقي لنفسك . ولكن لي طلباً ، وهو أن أحد الكتب يحتوي على مؤلفات فاليريان مايكوف . وهو مةالاته الانتقادية . وهذه النسخة كنت أخذتها من أوجينيا بتروفنا . وكانت تعدها كنزاً . وقد أقرضتها لي ، ولما قبض على طلبت من الشرطي أن يرد إلها الكتاب وأعطيته عنوانها . ولا أعرف إذا كان قد رده . اسأل عن ذلك لأني لا أحب أن أحرمها هذه الذكري . وأخيراً وداعاً . وداعاً » .

أخوك

ف. دستوفسكي

« على الهامش : لا أعرف هل أمشي أو أركب فرساً . وأظن أنهم سيركبون الخيول . ربما . قبل يد لميلي فيدروفنا وقبل الصغار واذكرني عند كريافسكى . اكتب لى عن القبض عليك وحبسك والإفراج عنك »

\* \* \*

هذا الخطاب هو جزلة حية ترشح بالدم من نفس دستوفسكى .  
تمتاز قصص دستوفسكى بأن أشخاصها يتسمون بالإحساس والذكاء معاً ، فإن بطل « الجريمة والعقاب » طالب في الجامعة يتأمل ويتفلسف ويتساءل ! لماذا لا يقتل هذه العجوز الثرية المقترية التي لا تزيد قيمة حياتها على حياة برغوث ؟ أليس هو أولى بثروتها ينفقها في الخير والنفع ؟

ثم يقتلها . ثم يعود إلى التأمل والفلسفة فيسلم نفسه في النهاية إلى البوليس حيث يحاكم ويحكم عليه بالنفى إلى سيبيريا . ويرضى لنفسه هذا المصير لأنه وجد شيئاً أكبر من ذكاء العقل هو ذكاء الإحساس .

وسائر قصصه على هذا الغرار . إحساس فوق الذكاء ، وخيال فوق العقل ، وقصصه تكاد جميعها تخلو من العقدة إلا القليل جداً . وفي النهاية نجد أنه يهدف إلى خيال الشعر . فهو يتناول الواقع ثم يسير به نحو آيات من الفن والشعر . وهذا هو ما يجب أن يكون . لأن القصة هي التفسير الخيالي للحياة حيث يرتفع المؤلف بالواقع إلى المثليات فيكسب هذا الواقع دلالة جديدة . والفنثة التي تبيع عرضها كى تنفذ إخوتها من الجوع ، والسكير الفاني الذى يتعاق بالدين ولا يزال يؤمل الآمال ، والراهب الذى يحب ولكنه لا يسقط ، والشاب الذى يملأ الشرف صدره فيذهب إلى أحد الأثرياء ويعرض عليه في غرارة وسذاجة مشروعاً للخير فلا يجد سوى الاستهزاء ، والأبله الذى يؤمن بالعلم فيرتكب

جريمة الاغتتيال استناداً إلى العلم . . . وهذا يذكرنا بالبله العلماء الذين اخترعوا القنبلة الذرية !

كل هذا يقع في قصص دستوفسكى . وهو بفرط حسنه وجمال خياله قد يناقض العقل والمنطق ، ولكن كما كان يناقضه غاندى أوتولستوى... وقد كسبت من دستوفسكى أكثر مما كسبت من غيره ، وهوذا الإحساس الأدبى الذى لا يختلف من الإحساس الدينى أو الموسيقى... وذلك أننا لزاء الدين والأدب والموسيقا لا « نعرف » وإنما نحس . وقد قلت فى أول هذا الفصل إن هبوطى المبكر على القصصيين الروس قد جعلنى أستصغر شأن الأدباء الأوربيين والحق أنى قرأت برنارد شو ، وولز ، وديكنز ، وأناطول فرانس ، وأندريه جيد ، وكثيراً غيرهم فكان تقديرى لهم اجتماعياً أكثر مما كان أدبياً . وقد وجدت عندهم الرأى والمعرفة أكثر مما وجدت الفن والإحساس . وعندما أتأمل هؤلاء الأدباء الروس جميعهم ، حتى مكسيم جوركى ، أجد أنهم ينشدون الدين ، فإن الإحساس الدينى البشرى فى هذا الكاتب الأخير على الرغم من إلحاده كبير جداً . وقد استطاع دستوفسكى وتولستوى أن يجعلا المسيحية ديناً وأدباً معاً ، بل إنهما أبرز الميزة الأصلية لهذه الديانة وهى الحب البشرى العام أكثر مما أبرزها كهنة هذه الديانة أنفسهم .

كان دستوفسكى يكره الشبان الثائرين على القيصر ، وكثيراً ما نجد فى قصصه ثائراً أو أكثر يستهزئ بأفكارهم ويسخر من عقائدهم . ولكن كراهيته لهم لم تكن تستند إلى حبه للنظام الاستبدادى الذى كان يسود حكومة القيصر ويوجهها ، وإنما كان يكره أوربا أيضاً لهذا السبب . وقد دعا إلى مقاطعة الثقافة الأوربية فى الوقت الذى كان يدعو فيه تورچنيف إلى اعتناقها .

وعندما نتمعق أقوال دستوفسكى لا نتمالك الإحساس بأنه يكره

العلوم المادية جميعها ويكره الحركات الاجتماعية الارتقائية القائمة عليها ، وأن في نفسه شوقاً ملحاً إلى أن يعيتس الناس في إيمان بالله قانعين بكلمات الإنجيل التي يجب أن تكون الأساس الذي تنبنى عليه الأخلاق .

وقد عجز دستوفسكى عن أن يظن للحقيقة الأوروبية البازغة وهي أن الأوروبيين قد شرعوا منذ أوائل القرن التاسع عشر في استبدال الرؤيا البشرية للرقى والأخلاق والدين برؤيا الكنيسة . وأن الإحساس الدينى البشرى الجديد ، على الرغم من أنه لا يزال ضعيفاً ، يجد أنصاراً أقوياء يسلكون في حماسة وحسب للبشر ويخلمون ويضحون للإنسانية .

ولكنه فطن إلى أن علماً بلا دين هو دمار بشري عام . بل نستطيع أن نقول إنه بصر بقوة العلم الطاغية في القنبلة الذرية التي يخرج بها طيار يشرب كأساً من الكونياك في نزق ومجانة ثم يقتل ثمانين ألف إنسان في ثانية ويعود ضاحكاً إلى معسكره كما حدث في هيروشيا في أغسطس من عام ١٩٤٥ .

بعد أن قضى دستوفسكى مدة عقوبته في سيبيريا وأفرج عنه كتب إلى السيدة فون ويسين خطاباً جاء فيه :

« ... ومع ذلك فإن الله يتمتعني أحياناً بلحظات من المداوء الكامل . وفي هذه اللحظات أجد الإيمان الذى يتجلى لي فيه كل شيء في وضوح وقداسة . وإيماني هذا في غاية البساطة ، وهو أنى أعتقد أنه ليس هناك ما هو أروع وأحب ، وأعقل ، وأشجع ، وأكمل ، من المسيح . وليس هذا فقط بل إنى لأقول لنفسى في إحساس الحب الغيور إنه لا يمكن أن يكون هناك شيء . أكثر من هذا ، وهو أنه لو أن أحداً قال لي : المسيح يحافى الحق ، ولو أن هذا القول كان صحيحاً ، لآثرت البقاء مع المسيح على التزام الحق » .

وقصص دستوفسكى جميعاً تنشُد الإيمان الذى يستطيع أن يستقر به الإنسان على هذه الدنيا حتى ولو كان هذا الإيمان يخالف منطق العيش وأسلوب البحث العلمى .

وقد وجد دستوفسكى حافزاً عظيماً للاعتماد على الإيمان ، هو هذا الاختبار المؤلم حين وقف أمام الجنود ينتظر إطلاق النار . فإنه بقى طوال عمره بعد ذلك ينظر إلى الحياة من موقف الموت ، وهو موقف جدير بأن يغير النظرة والنبرة للحياة معاً . وواضح أنه لم ينس بتاتاً فى كل ما كتب .

وأكاد هنا أقول إن الدين ليس شيئاً آخر سوى النظر إلى الحياة من موقف الموت . فإن الموت أكبر حقيقة بشرية . وهو عندما نتأمله نجد أنه يغير القيم والأوزان ويحياها من التقدير الاجتماعى إلى التقدير البشرى . فنحن فى هرولة الحياة الاجتماعية نعب ونلهث لأجل الثراء أو الوجاهة أو نساق فى أنانية بشعة لا نبالى مصالح الغير ولا نرحم من ندوسه فى سبيل الاقتناء أو التغلب . وكلنا على هذه الحال بدرجات متفاوتة ، ولكن فكرة الموت تنقذ فجأة فى أذهاننا فنقف فى طريق الحياة ونسأل عن نهايته . وهذا وجدان أكبر الوجدان بالحياة التى تتخلص عندئذ من ملابساتها الاجتماعية . وعندئذ نحس كما أحس دستوفسكى ، بل كما يعلم ويكرر فى جميع قصصه ، إننا نحن بنو البشر كيان واحد قد تعددت أجزاؤه وانفصلت ، ولكن انفصالها لم يمنع بينها التراحم والحب والحنان . فكلنا عندئذ ، بعد تأمل الموت ، أب وأم وأخ لأبناء البشر جميعاً .

وهذا هو إحساس المسيح ، وغاندى ، وتولستوى ، بل قولتير وروسو وشفيغر . بل كل إنسان استطاع أن يقف عن هرولته الاجتماعية ويتأمل حقيقة الموت . أجل إن تأمل الموت هو كشف دينى . كأنى

— حين أوقن أنى فى إحدى اللحظات سأفارق هذا العالم فلا يبقى لى فيه جسم أو اسم أو ذكرى — لا أسأل عندئذ عن هذا الرجل هل هو ناشأ أو بك ؟ وثرى أو فقير ؟ وهل يملك صمعه أو أتمببلاً أو قصراً ؟ وإنما أسأل عن ميزاته الإنسانية . بل لى لأهم به وأتأمله كثيراً عندما أعرف أنه يجب الزهور ، ويحنو على الأطفال ، ونفرح لرؤية الشفق ، وتلتصع فى ذهنه أشعة الذكاء وشهوة الحرية ويحس قرباته للحيوان بل للنبات .

إن يقيننا بالانعدام بعد الموت يزيدنا وجداناً بالحياة . وهذا هو إحساسنا عندما نقرأ دستوفسكى ، فإن الحياة تصعب حولنا وتكاد تتجمع فى بركان تحتبس فيه العواطف ثم تنفجر .

ومع أن القارئ لقصصه يحس من وقت لآخر أن إيمانه بالله يتزعزع ، هنا وهناك ، فإن إصراره على الإيمان يتكرر فى لهجة التأكيد والغضب من المنطق العلمى وتفشى المادية الأوربية . فهل نستطيع أن نفسر ذلك بأن رهبة الموت حين وقف لتلقى النار قد حملته أيضاً على التشبه بالإيمان فراراً من معانى التملق والشك والخوف ، وجميعها من معانى الموت !

قد يكون ذلك ، ولكن هذا الإيمان قد جعل قصصه تدوب ، رحمة وحناناً وإخاء وبراً حتى لنحس ونحن نقرأها هذه الفضائل تسرى فى كيائنا ، كما لو كانت بلسماً ، وترفعنا فوق أنفسنا .

“ \* ”

لا نملك ونحن نقرأ دستوفسكى أن نقارن بينه وبين نقيصه نيتشه . وقد عرف داعية القوة وعدو المسيحية داعية الرحمة والمسيحية الأول من إحدى قصصه . والعجب أننا على الرغم من هذا التناقض بينهما

نجد اشتراكاً في الأسلوب الفكرى ، حتى لقد أحب نيتشه دستوفسكى وقال عنه : هو الإنسان الوحيد الذى علمنى شيئاً عن السيكلوجية .

وهما يشتركان في الكراهة للحضارة العصرية ، ولكن لسببين منناقضين . فإن دستوفسكى يكره أوروبا لأنها تركت الإنجيل والمسيح ، ونيتشه يكرهها لأنها اعتنقتهما . فالأخلاق العامة فى أوروبا تحولت فى رأى دستوفسكى إلى أخلاق المادية العلمية والمباراة الاقتصادية والبعد عن الإخاء والرحمة . ونيتشه يكره الأخلاق الأوروبية لأنها ابتعدت عن الفطرة الحيوانية واستبقت الضعفاء والعجزة والمرضى الذين يفسدون المادة البشرية ، لأنها أخلاق مسيحية !

ولكنهما يتفقان من حيث إن لكل منهما رؤيا بشرية ، فكلاهما حالم ، ولكن حلم دستوفسكى هو المسيحية العامة ، وحلم نيتشه هو تنازع البقاء . وقد قال كلاهما : إن البطولة خير من السعادة .

ولكن البطل عند دستوفسكى هو ذلك الذى يضع إحساسه البشرى فوق عقله المنطقى . والإحساس هنا هو الرحمة والحب . وكذلك نيتشه يزدرى العقل والمنطق ، ويقول بالإحساس ولكن إحساسه هنا هو أن الصقر يجب أن يأكل العصفور ولا يرحم .

لقد انتهى رسكولنيكوف فى قصة « الجريمة والعقاب » الذى قتل العجوز كى يحصل على مالها إلى أن يحدد عقله ويعود إلى إحساسه ويرضى بالتكفير عن جريمته فى سببريا . ولو أن نيتشه كان قد ألف هذه القصة لسخر من هذه النهاية . ولكنه ، مع سخره هذا . لم يكن ليقبل قتل العجوز لأنه لم يكن داعية للفوضى ، وإنما الأغلب أنه كان يطلب نظاماً اجتماعياً منطقياً يودى إلى الاستغناء عن العجزة الذين انتهى نفعهم للبشر .

وحين نقرأ قصص دستوفسكى لا نتمالك أن نحس أنه يريد أن نفهم  
 منه أن الإنسان مزيج من الخير والشر ، وأن في نفس المجرم الآثم  
 أو الشرير القارح جواهر من الشرف والبر . وهذا صحيح .  
 وثلاثة يمثلون العبقرية البشرية ، هم نابليون الذى يمثل عبقرية  
 الإرادة ، وأينشتين الذى يمثل عبقرية الذهن ، وأخيراً دستوفسكى الذى  
 يمثل عبقرية الإحساس .



## ثورو ونداء الطبيعة



سبق لى أن أوضحت بعض الأسباب التى تجعلنى أحب أحد المؤلفين دون الآخرين . ولكن هناك حالات من الحب تنعمق قلبى وتتغلغل فى خلاياى مخى بحيث أعجز عن التحليل ، فلا أصل لى الجذور التى تربطنى بأحد المؤلفين . وقصارى ما أقول عندئذ لى أحبه كما أحب اللحن الموسيقى العظيم ، أو أعجب به كما أعجب بالتمثال الرائع . وأتعلق به برباط من الخنان كما لو كان هذا المؤلف أباً أو أمّاً .

فلنى أعجب بتولستوى مثلاً لأنه ألف قصة خالدة رائعة تدعى « أنّا كارنيينا » هى فى الذروة من الفن . ولكن حبي له لا ينبئ على هذه القصة وحدها . بل أخرى أن تبعث هذه القصة فى نفسى إعجاباً بقدرته ... ولكنى لا أحبه لأنه قادر فقط وإنما لأنه ضعيف عاجز أيضاً ، قد ارتكب

أخطاء وتورط في مشاكل لم يعرف كيف يتخلص منها . فإحساسى نحوه هو الحنان والرفقة . هو عندى : بابا تولستوى ، لهذه الأخطاء والتورطات نفسها .

عاش تولستوى عيشة الفسق وهو شاب ، ثم حاول أن يكون شيخاً طاهراً وأسرف في معنى الطهارة حتى قال — وحاول أن يمارس ما كان يقول به — إن الزوج يجب ألا يتصل بزوجه إلا بغية التناسل . ولكنه أخفق ، إذ كان يصارع جسده وهو فوق السبعين . ويعود من هذا الصراع خائباً .

وقضى شبابه وهو لا يكاد يدري أن في هذه الدنيا أدياناً يؤمن بها الناس ويجعلون منها دستور حياتهم . حتى إذا اكتمل شرع يشتغل بالدين ويحاول الإيمان ، فإذا به يتورط في ارتباكات ذهنية وعادات سلوكية انتهت به آخر حياته إلى اثني عشر يوماً من الضلال والدمار ، ثم الموت . .

وكان شريفاً له لقب كونت ، وعنده آلاف الأفدنة ، يستغل عشرات الفلاحين في زراعتها . ثم انبلج له نور جديد ، فإذا به يجمع هؤلاء الفلاحين ثم يعرض عليهم أن يوزع الأرض بينهم إذ لا حق له في استغلالهم . ويغادر الفلاحون منزله وفي نفس كل منهم شك أو شبهة في سلامة عقله ، ثم تدرى عائلته بما جرى في هذا الاجتماع فتكفه عن التصرف وتمنعه من التنازل عن أرضه ، وتستمر على الرغم منه في استغلال الفلاحين .

وَألف عشرات القصص الخالدة ، وكلها فن ومجد وحجب . ملأت الدنيا موسيقى وأدخلت السعادة إلى قلوب الملايين من البشر . ثم ينحمر في نفسه الإيمان الجديد بأن الناس لا يحتاجون إلى الفن وإنما يحتاجون

إلى الحنان والخير والقناعة وسأجاجة العيش . . . فيكف عن التأليف ويرفض أن يتناول قرشاً من أرباحه من هذه القصص .

ثم لا يكتفى بهذا بل يعمد إلى شراء الجلود ويصنع بيديه أحذية للفلاحين ، لأن صنع حذاء يدق قدم الفلاح خير من إخراج كتاب يجاد فيه القارئ لذة فنية !

وتثور العاثاة في وجهه ، وتضرب عليه حصاراً حتى لا يتورط في عمل أرعن جديد .

وكان له صديق طبيب من أولئك الرجال الذين يحياى القدر بهم بعض الناس ، فهم حب وإخلاص وتضحية . وهم سعادة لأصدقائهم ونور للعقل والقلب .

وكان تولستوى إذا جاءه هذا الصديق تهق شهقة الخلاص . فهو يستقبله ويدخله غرفته ويقفل الباب . ويبقى الاثنان يتناجيان .

ولكن زوجة تولستوى لا تطيق كل هذا الحب ينحرف عنها من زوجها إلى هذا الطبيب فهي تغار وهي تحقد . ثم تنفجر ، فنكتب في مذكراتها بأنها نظارت من صير القفل . ولا تسك في أن بين تولستوى وبين هذا الطبيب حباً جنسياً شاذاً . وكلا الرجلين فد أوسك على الثمانين . . . وهذا حقد الغيرة . وعمى الغيرة ، وكفر العيرة !

ويستقر في ذهن تولستوى أنه قد فشل في حياته . فلا هو استطاع أن يوزع الأرض على فلاحيه ، ولا هو استطاع أن يؤمن بالإيمان الساذج الذى كان ينشده بإحساسه . ولا هو قادر على أن يعيش العيش الساذج الذى قال به ودعا إليه . بل إن نفسه لتهفوحى وهو فى هذا النسك إلى أن يؤلف قصة غرامية . وأنه مع دعواه بأن التناسل هو الغاية المفردة من التعارف الجنسي ليتقدم فى ذل إلى زوجته .

والدنيا حوله في آلام . فقر وجوع ودنس وظلم . أجل ، ليس له الحق في أن ينعم بطعام طيب أو فراش دافئ . وهو يحس أنه قد اقترب من الليل الطويل والنوم الأخير . وأنه يجب أن يتنكر الإنكار العظيم لحياته الماضية وأن يفر من الدنيا إلى . . . إلى الله .

وكيف يفر إلى الله هذا الشيخ الذي بلغ الثانية والثمانين ؟

في الساعة السادسة من صباح يوم ٢٨ أكتوبر من عام ١٩١٠ تأتي إليه عربته التي ينتظرها بميعاد ، ويعرض الحوذى على الصمت والسكون حتى لا يستيقظ أحد آخر ثم تسير به العرببة إلى محطة السكة الحديدية ، فينزل ويحذ صديقه الطبيب في انتظاره ، ويأتي القطار فيركبان في إحدى عربات الدرجة الثالثة .

وينزل كلاهما في إحدى المحطات ، ويسيران إلى دير حيث تستقبلهما الراهبات .

ولكن لا تمضي أيام حتى تعرف ابنة تولستوى ، وهي فتاة في السادسة والعشرين ، مكانه . فتذهب إليه وتدخل الدير وتقف إلى جنب والدها . ولكنه هو يحس من هذه الزيارة أن الدنيا قد شرعت تجره إليها بعد أن تركها . فهو يستيقظ في الرابعة من الصباح ، والثلوج تكسو روسيا بأجمعها ، فيفر مرة أخرى مع ابنته والطبيب .

ويحس قشعريرة تلجئه إلى أن يرتاح في غرفة بإحدى محطات السكك الحديدية . وبعد أيام ، بين يدي ابنته ، يموت . . . يموت موتاً عظيماً بعد أن عاش حياة عظيمة .

لقد ألف تولستوى عشرات القصص الجميلة . ولكن قصة حياته أجمل بل أخلد .

لأنها كانت جهاداً شاقاً وأخطاء متوالية في سبيل الحق والشرف .

ونحن أعجز من أن نهج هذا النهج في الحياة ، ولكن هذا العجز يزيدنا حباً له . وحياته هي رؤيا دائمة ، هي دعوة إلى أن نحرى الحق ونجرب التجارب في العيش ، فننفض العادات ، والتقاليد ، والعرف ، إذا لم نجد أنها تلائم العيش المثمر البار .

وتجارب العيش هي في النهاية أئمن ما يطلبه من المؤلف أو المفكر ، ونحن ننتفع ونسترشد بحياة المؤلف كما ننتفع بمؤلفاته . بل ربما أكثر لأن حياة المؤلف هي نهج جديد للبشر .

وكثيراً ما أقارن بين حياة فولتير ومؤلفاته ، فأجد أن كفاحه الشخصي للتعصب الدينى قد ربى أوروبا وعلمها معانى جديدة لشرف الفكر . رباها وعلمها بأكثر مما ربها وعلمتها مؤلفاته ، وكذلك الشأن في حياة غاندى أو شقيتزر .

ذلك لأننا لسنا واثقين بأننا نعيش في حضارتنا الراهنة الحياة الفضلى على المستوى الأرجب . ومن الحسن أن نصدم من وقت لآخر بمن يوضحون لنا الخطأ والخطل في عيشنا الحاضر . أو على الأقل يغرسون الشك في نفوسنا حتى لا نسرف في عاداتنا الاجتماعية الموروثة وننقيد بها كما لو كانت شعائر دينية . فنجتمعنا الذى نعيش فيه مثلاً هو مجتمع اقتنائى يعلمنا كيف نقتنى ، ويغرس في نفوسنا عواطف الكسب والجمع والغيرة والحسد . وكثيراً ما نسير إلى أقصى حد مع هذه العواطف فنقع في هموم هي سموم تأكل في نفوسنا وأجسامنا معاً ، ونشتى بما نقتنى .

وقد رفض غاندى أن يعيش وفق المبادئ التي يدعو إليها هذا المجتمع ففقع من الدنيا بشملة وعززة ، وعاش سعيداً إلى سن الثمانين تقريباً ولعله كان يعيش أكثر لو لم يقتل . وكانت له مبادئ في الخير والبر والإخاء والحب هي ثمرة هذا العيش الساذج ، أو على الأقل كانت بعض

ثمرته . . . لأننا يجب ألا ننسى أن أسلوب عيشنا « يكيف » أفكارنا ويعين أخلاقنا إلى حد بعيد ، وأسلوب الاقتناء في العيش يبعث الطمع والحسد ، وأسلوب القناعة في العيش يبعث الطمأنينة .

\* \* \*

وإني أذكر هنا رجلاً جرب تجربة في العيش كانت إلهاماً لغاندى هو هنرى ثورو الكاتب الأمريكى . الذى كسب غاندى عنه أسلوب العيش ، كما أخذ عنه شعار الثورة الهندية على الإمبراطورية البريطانية ، وهو « العصيان المدنى » .

وقد كان هنرى ثورو يقصد من هذه العبارة إلى أننا نكون أحراراً بحيث لا يربطنا المجتمع بعباداته وأهدافه وأساليبه وقيمه ، لأن لكل منا حق الاستقلال في تنظيم عيشه وفق مبادئه الشخصية ، حتى حين يخالف العرف المألوف . وقد خرج غاندى هذه العبارة تخريجاً آخر هو أن الهنود يجب ألا يتعاونوا مع الإنجليز .

ولد ثورو في عام ١٨١٧ ومات في سنة ١٨٦٢ . وقد ألف كثيراً ، ولكن ميرته أنه أدخل الطبيعة في الأدب الأمريكى ، وأثار الوجدان بالجمال الريف والغابة والطير والوحش . وكان الروح التجارى والاقتنائى في أيامه على أشده في الولايات المتحدة . فعمد هو إلى صده ، وترك المدينة وأقام في الغابة . وكتابه « والدين » هو أثره العظيم الذى يذكر لنا فيه تجاربه وإحساساته عن هذه الحياة الفطرية التى عاشها .

وهو يقول عن تجربته هذه : « لقد أردت أن أعيش عن قصد ، وأن أجابه ، حقاً ، عمق الحياة الأصلية فقط . كى أعرف ما يمكن أن تعلمنى هذه الحياة . حتى إذا قاربت الموت أكون واثقاً بأنى قد عشت ، ولم أكن أرغب في أن أحيأ بما لم يكن أصيلاً في الحياة ، لأن الحياة غالية ، كما أنى

لم أكن أقصد إلى الاعتكاف ما لم يكن هذا ضرورياً ، إنما أردت أن أعيش في عمق وأن أمتص مخ الحياة ، وأن أحيا في قوة حياة إسبرطية تبعد عني ما ليس من الحياة . وأن أدفع الحياة إلى مأزق ، وأن أصل منها إلى أن أدون ما فيها . فإذا كانت خسيصة فلاني سوف أعلن خستها للعالم . وإذا كانت سامية فلاني أريد أن أعرف هذا السمو وأجربه وأقدم عنه حساباً » .

هذا كلام جلد وعمل جلد . فلننا لم نقف قط هذا الموقف من الحياة . وإنما الأنبياء وحدهم الذين وقفوه وجربوه . إذ لست تجد نبيّاً إلا وله فترة من الاعتزال والاعتكاف يترك فيها المجتمع ، ويبحث فيها عن مراسيه في الدنيا . وهو في هذا الاعتكاف « عاص مدني » يحاول أن يتخلص من القيم والأوزان الاجتماعية كي يصل إلى ما يقابلها من القيم والأوزان البشرية التي تعلو على العادات والعرف . والأديب المخلص في حاجة إلى مثل هذا الاعتزال والاعتكاف من وقت لآخر .

ولكن ثورو لم يكن يريد من فراره إلى الغابة أن يعتكف للتأمل فقط ، وإنما كان يريد أن يجد ويجرب طريقة أخرى للعيش لعلها تكون أفضل من عيش المتعدين .

لقد نشأ ثورو في مدينة صغيرة ولكنها مع صغرها كانت تحوى جميع التناقضات التي تمتاز بها المدن ، هي مدينة كونكورد في الولايات المتحدة . وعاش ثورو فيها واحترف التعليم ، ولكنه تركه للأدب . ولم يوفق كثيراً ، بل الحق أن شهرته في أيامنا تزيد عشرات المرات على شهرته حين كان حياً يدعو دعوته الحارة إلى الطبيعة .

ولاحساس ثورو للطبيعة عميق ، يدهشنا أحياناً بعمقه . انظر إليه حين يقول :

« إن الطبقة العليا من التربة التي تحتوى حذور الأعشاب تحوى من الأدوات الميكانيكية ما هو أدق من أدوات الساعة . ومع ذلك نحن ندوسها بأقدامنا . وهذه الحركة التي تجرى فى التربة فى الظلام ، وهذه الكيمياء التي تتخلل ألياف العشب قبل أن تظهر ورقة واحدة منه فوق الفتات البالى لجديرتان ، لو أننا فهمناهما ، بأعظم كشف فى الطبيعة » .

ولم يكن ثور و يدعونا إلى التخصص فى دراسة الطبيعة وإنما كان يطالبنا بأن نعيش فى الطبيعة . وهو يوضح لنا أن ارتباطنا بالمجتمع أو الحرفة أو السياسة أو الحكومة أو غير ذلك من المؤسسات الاجتماعية إنما هو شيء ثانوى إلى جانب ارتباطنا بالطبيعة ، بالأرض والجبل والنهر والشجر والحيوان والطائر . فيجب أن نعيش مع هذه الأشياء أو فيها . ثم يجب على الإنسان أن يكون قادراً على أن يعيش منفرداً متوحداً يأنس إلى الطبيعة دون الحاجة إلى مجتمع ، كما يجب أن ينشد سعادته واختباره من الطبيعة وليس من النجاح المالى أو الاجتماعى . وهو هنا لا ينكر قيمة الصداقة بل يكبر من شأنها ، ولكنها صداقة الزمالة فى الطبيعة .

إن الإنسان الاجتماعى كائن صغير لزاء الإنسان الطبيعى . . الأول يعيش فى المدينة وهو محدود الاختبارات والآفاق ، له هموم صغيرة تستوعب نهاره بل بعض ليله . وهو يعمل جاداً متعباً كى يجمع ثروة أو يحقق غاية اجتماعية طول عمره . ولكن الإنسان الطبيعى لا يحتاج إلى أن يكبد ويتعب إلا للحصول على طعامه وكسائه . أما سائر وقته فينفضى فى الالتصاق بالطبيعة . وهنا يصدنا ثور و بقوله : لماذا يفرض علينا العمل ستة أيام فى الأسبوع ثم يوماً من الراحة ؟ أليس العكس هو الأولى ؟ . . .

وهو يعنى أننا إذا عمدنا إلى ترك التكاليف الاجتماعية الباهظة



وارتضينا بساطة العيش بين أحضان الطبيعة فإن يوماً واحداً من العمل في الأسبوع يكفل لنا جميع حاجتنا ، أما الأيام الباقية فهي للاستمتاعات والاختبارات .

ترك ثورو مدينة كونكورد إلى بقعة نائية في عام ١٨٤٣ . وكانت سنة وقتئذ لا تزيد على ست وعشرين سنة ، وهناك بنى بنفسه كوخاً من الخشب . وكان قريباً منه غابة يحصل منها على خشب الوقود وكذلك بالقرب منه بركة تحوى القليل من السمك . وكان عندهما يحتاج إلى أكثر مما يحصل عليه من البركة والغابة ، يؤثر نفسه للمزارعين الجاورين ويشترى بعض حاجاته بما يكسبه من أجر عمله . وقد كلفه بناء الكوخ ثمانية وعشرين دولاراً . وكان طوله ١٥ قدماً وعرضه ١٠ أقدام ، وهو يصفه بأنه يحوى من المرافق أكثر مما يحوى المسكن العادى فى المدينة . . . . « ولم يكن له قفل على الباب أو ستار على النافذة ، وكان جزءاً من الطبيعة بقدر ما كان جزءاً من العمل البشرى » .

وهو حين يصف الطبيعة تحس كأنه قد انتشى بها كما ينتشى أحدنا بالخمير ، بل كأنه قد تزوجها ويحس فيها طرباً جنسياً قد بلغ الذروة . وهو يستخرج منها لهذا السبب الإحساسات والمعاني التى التى تخطر على بال من يعيشون فى المدن حيث معظم اللذات مصنوع . انظر إلى قوله : « الإنسان الحيوان ابن عم أشجار الصنوبر وأحجار الصخر » .

« ليست الأرض التى أودسها هاملة ميتة . إذ هى جسم وروح . . . وليس لأمعائها الدقيقة نهاية . هنا كيان من الأنوار ، من الأكباد ، من الأمعاء . أليس لك أمعاء ؟ إن للطبيعة أمعاء ، ثم هى أم البشرية وعندما نضع البذور فيها تتجرد ثم تنمو » .

هذا هو الانتشاء بالطبيعة . وهو مثل كل انتشاء . يحوى شيئاً من

المليان ولكنه هذيان ملهم يدل على حقائق . وهو يقول أيضاً :  
 « يجب أن تصعد فوق الجبل كي تعرف العلاقة بينك وبين المادة  
 أى بين جسمك وبين المادة ، لأن جسمك يجد بيته هناك » .  
 « انظر إلى أصابعي وكيف أتناول وأعيث بها . أجل ، إنها ، هذه  
 الأصابع ، قد تكون جزءاً من قمة هذا الجبل الذي أصعد إلى قمته كي  
 أرى أبناء عموتي . إنه يحوى أصابع الأيدي والأقدام كما يحوى الأمعاء .  
 ومن هنا اهتمامي » .

ثم يقول : « عش في كل فصل من فصول السنة . تنفس الهواء  
 واشرب الشراب . وتذوق الفاكهة واستسلم لها جميعاً . ولتدفعك جميع  
 الرياح . وافتح مسامك جميعاً واستحم في مد الطبيعة وفي أنهارها ومحيطاتها  
 في جميع الفصول » .

« وإذا كنت تحس أنك تستقبل النهار والليل في طرب وفرح ، وإذا  
 كانت الحياة تنقل إليك أنفاس الزهر والعشب في أرج جميل ، فأنت  
 موفق . والطبيعة تهتلك . ولك الحق عندئذ في أن تحس أنه قد بورك  
 عليك » .

\* \* \*

لم يقض هنري ثورو عمره كله في كوخه . إذ هو رجع بعد سنة  
 وشهور إلى المدينة ، وهو بهذا يحملنا على أن نفهم أن عودة البشر إلى  
 حياة الفطرة في الغابة لم تعد ممكنة . وإنما قصارى ما نفهمه من تجربته أنه  
 أوماً إيماءة لنا بأن التكليف الاجتماعية الباهظة نستطيع أن نستغني  
 عنها . وأن في « الفقر الإداري » كما سماه قيمة يجب ألا نستعين بها . فإن  
 حياة المدينة وما فيها من هرولة وعصبية وهموم ، كل هذا يمكن النجاة  
 منه بأن نجعل شعارنا : كيف نستغني ؟ بدلا من كيف نقف ؟

والولايات المتحدة بعد مائة سنة من تجربة ثورو أحوج إلى عبرته مما كانت في عام ١٨٥١ . لأن المباراة التي يعيش فيها الأمريكيون هذه الأيام هي أقتل للنفس وأبعث للقلق والخوف مما كانت في أيامه . والأمريكي الذي ينبعث في عام ١٩٥٠ إلى مثل تجربة ثورو هو رجل سعيد بالمقارنة إلى المهرولين العصبيين الذين يملأون أسرة المستشفيات للأمراض العقلية .

ولإنه لمن الحسن أن ينهنا كاتب ، بإسرافه في الحب للطبيعة ، إلى أنه ، إلى جنب الشارع والنادى وسهرات الكحول وعد النقود وشراء الأرض واقتناء الضياع أو الأسهم في الشركات ، إلى جنب هذا توجد أرض وسما وأشجار وزهور وأنهار وجبال ، وأن القمر يضيء في الليل ويكسو الحقول بأشعته ، وأن النجوم تنادينا في الظلام كي نتأملها ونحدث إليها .

وأنا من وقت لآخر يجب أن نختل ونستوحد ، كي نعيد النظر في حياتنا ونسأل هل نحن نعيش مسوقين بضغط العادات الاجتماعية التي لم نفكر من قبل في قيمتها ؟ وألا يجدر بنا أن نغير هذه العادات أو ننفقها بإطعام الطبيعة التي تردنا إلى الأصول والجذور ؟



## تولستوى فيلسوف الشعب



ولد تولستوى فى عام ١٨٢٨ ومات فى عام ١٩١٠  
ومن هذين التاريخين نرى أنه عاصر القرن التاسع عشر كله تقريباً  
ولكنه لم يكبد يعيش فى القرن العشرين ، فقد مات قبل الحرب الكبرى  
الأولى بأربع سنوات . وما كان أخرجنا إلى أن نسمع . صوته عن هذه  
المخزرة البشرية العظمى .

ولكنه فى القرن التاسع عشر رأى كثيراً واختبر كثيراً . فقد اشترك  
فى حرب القرم فى عام ١٨٥٤ . ورأى بعد ذلك حرب السبعين بين فرنسا  
وألمانيا . ورأى أحد القياصرة يقتل . ورأى تحرير العبيد فى عام ١٨٦١ .  
واصطدم بالكنيسة وطرد منها . واصطدم بعائلته حين أراد تسليم أرضه  
المورثة للفلاحين . وانهمزم ، وصمت .

وكان طيلة حياته فى النصف الثانى للقرن التاسع عشر ضمير أوربا ، يرتأى الرأى ويعظ الموعظة ، ولكنه قلما كان يزيد على ذلك . وهنا أكبر إهماله أو خطأه .

كان ضمير أوربا ، كما كان غاندى — منذ ١٩٢٠ إلى ١٩٤٨ — ضمير الهند والعالم . كلاهما ، تولستوى وغاندى ، صورتان لشخص واحد ، هما صورة الأستاذ وتلميذه ، ولكن هذا التلميذ ، غاندى ، حاول أن يجعل آراء تولستوى ومواعظه أفعالا منفذة .

فى هذه الحياة الطويلة التى عاشها تولستوى رأى أهوالا من الشقاء البشرى كان أولها حرب القرم . فإنه يذكر أنه عقب هذه الحرب لم يطق إلا أن يأخذ قلمه ويكتب . وأن ينذر قلمه نحو هذا الشقاء البشرى . أى الحرب .

ولكن حرب القرم يمكن ، بالمقارنة إلى حروبنا الجديدة التى تخيم على عالمنا العصرى ، بالذرة المنشقة والذرة الملتحمة ، يمكن أن تعد مهارة فى كرة القدم .

ولو أن تولستوى كان حياً فى أيامنا ، وكان يسمع أو يقرأ ما يقال عن الحرب المنتظرة ، لطالب بإرسال جميع المسئولين إلى المارستان .

لأنها الحرب التى جعلته يقول فى عام ١٨٥٤ : لم أتمكن أن أتناول القلم وأكتب . وكل رجل شريف له قلم يجب أن يقول مثل هذا القول هذه الأيام .

والحرب بكرة مشكلات عديدة . اضطر تولستوى ، كما يضطر غيره فى مثل هذه الظروف ، إلى أن يشترك فيها .

فاشترك فى معنى الدين ! ودلالة الفن ، وهدف الثقافة ، وأسلوب العيش ، وعادات الحب والزواج . وكتب القصة الفنية ، والرسالة المناقشة .

وحاول أن يحس وفق ما يقول ويؤمن . ونجح قليلاً وفشل كثيراً .  
 نجح من حيث إنه عمم الإيمان بأن المجتمع يعاني من الأسواء ويحمل  
 من الأوضار ما يجب أن يبعثنا على إصلاحه . فكانت بذلك مؤلفاته  
 إيماء للشورة .

وفشل من حيث إنه كان يعتقد الاعتقاد الديني بأن إصلاح الفرد  
 يؤدي إلى إصلاح المجتمع . . و لم يفقه قط إلى أن الفرد مسير بعادات  
 المجتمع وأساليب عيشه . ونظم أخلاقه وعاداته . وأنه لن يتغير إلا  
 إذا غيره المجتمع أو هيأ له أسباب التغير .  
 كان تولستوى مثاليًا ولم يكن ماديًا .

\* \* \*

نجد في حياة تولستوى ظروفًا أو حوادث رسمت له خطوط حياته .  
 فإن حرب القوم بفظائعتها جعلته كاتباً يكتب عن قهر وإلزام لأنه  
 لا يطيق الصمت . وهذه الحال أعظم ما يهيج التفوق والنبوغ في الكاتب  
 ثم رأى هول النظام الإقطاعي في روسيا ، والرف الزراعي الذي كان  
 يقضى بخضوع الفلاحين لصاحب الأرض ، لا يتركها إلى غيرها .  
 إذ هم عبيد تملكهم الأرض ولا يملكونها . وقد ألغى الرق في عام ١٨٦١ ،  
 ولكن تولستوى حرر عبيده تطوعاً قبل أن يسن هذا القانون .

ورأى تولستوى في حياته الأدبية صراعاً بين المستغربين والمستعرقين .  
 فإن دعاة الإصلاح انقسموا فريقين : أحدهما يقول بالالتزام بروسيا  
 لمبادئها الشرقية . والآخر يقول بأخذها بالأساليب الغربية .

وهذا التردد أوقع بالسعب في بلبله كسب منها الرجعيون أى  
 القيصريون والكنسيون . أليست القيصرية والكنيسة مؤسستين شرقيتين  
 وطنيتين يجب المحافظة عليهما ؟ ولذلك كان القول بتحرير العبيد من الرق

الزراعى ، وتعليم المرأة فى الجامعات ، والتفكير الاجتماعى فى معانى الدين ، بل البرلمان نفسه ، كل هذا كان من بدع المستغربين الذين يعدون خونة للمبادئ الشرقية الروسية .

وكان فى الجانب الآخر دعاة الحضارة الغربية العصرية الذين أخذوا بالمذهب الماركسى فى الاشتراكية ، والذين كانوا يطالبون بإلغاء القيصرية واحتضان الثقافة العلمية الأوروبية .

وانتقلت هذه المعركة إلى الأدب الروسى واحتلت مركز المناقشة فيه .  
فى ناحية نجد دستوفسكى ينهى على أوربا مبادئها ويدعو روسيا لاستيفاء شرقيتها .

ومن ناحية نجد تورجنيف يدعو إلى الغرب .  
ومن هنا نشأت كلمة « العدمية : nihilism » التى سكها تورجنيف  
كى يبين البلبلة أو اليأس الذى يقع فيه شبان روسيا فى النصف الثانى من  
القرن التاسع عشر حين كان يحملهم قنوطهم على طلب العدم . لأن الوجود  
لا يطاق .

الوجود لا يطاق إزاء ناس أشرار يطلبون بقاء القيصرية والكنيسة  
المستبدين ، وبقاء الرق الزراعى . وبقاء المرأة للبيت ، وبقاء الاستسلام  
والخضوع والرضى بالفقر .

“ “ “

لكل كاتب أب روحى ينتمى إليه ، أو هو يعتقد أنه ينتمى إليه :  
وفى هذا الانتماء أنسة تتولد منها شجاعة وإصرار ، وإحساس بالسلامة  
بالبعد عن الأخطار . ولا عبرة بأن يكون الأديب المنتمى مخطئاً ،  
ولنما العبرة بالإيمان .

وكان الأب الروحى لتولستوى ، جان چاك روسو .



كما كان الأب الروحي بعد ذلك لغاندى ، تولستوى نفسه .  
وقد صرح تولستوى بأن فى شبابه كان يعبد روسو . وأنه كان يحمل  
ميدالية عليها صورة هذا الأديب الفرنسى العظيم . ولقد قال فى أحد  
مؤلفاته : « إني أحس ، وأنا أقرأ لبعض الصفحات من روسو ، كأنى  
أنا قد كتبتها » .

ونحن نجد بين الاثنين قاسماً مشتركاً . فإن كلا منهما وجد فى الرجوع  
إلى بساطة الحياة حلالاً للعقد الاجتماعى التى أوجدتها الحضارة العصرية ،  
والتي جعلت حياتنا شاقة بالطموح المسرف ، والمباراة القاتلة ، واتخاذ  
القصد المخطئ فى الجهد لجمع المال ، والعيش فى البذخ .

لقد دعا روسو إلى العودة إلى الطبيعة وإلى المعيشة الساذجة . وقد  
عاش روسو فى هذه الطبيعة الساذجة حين أثر الريف على المدينة ،  
والالتصاق بالأرض والإنتاج الزراعى على مركبات الحضارة العصرية  
التي كثيراً ما تستحيل إلى عقد .

ونحن نجد فى اعترافات روسو ، ثم اعترافات تولستوى ، أمكنة  
عديدة للمشابهة . ولكن يجب أن نسأل قبل أن نلتفت إلى هذه  
الاعترافات .

لماذا كتبها روسو وتولستوى؟ بل لماذا كتب غاندى ، تلميذ تولستوى ،  
اعترافاته أيضاً التى سماها « تجارب فى الحياة » ؟

السبب هو القلق . فإن هؤلاء الثلاثة الذين هدفوا إلى الطمأنينة  
والسلام والسعادة فى كتاباتهم ، كانوا قلقين لهذا السبب نفسه . أى أن جهدهم  
لتحقيق الطمأنينة والسلام والسعادة قد أحاطهم إلى مفكرين مكافحين  
مخاصمين للمجتمع الذى عاشوا فيه . وقد تألموا جميعهم . فإن روسو طورد  
كما لو كان مجرماً . بل إنه عاش بعض سنن حياته وهو محتبئ أو هارب .

وتولستوى طور من الكنيسة التي كان يرفع دينها إلى أعلى مرتبة . وأما غاندى فقد ضرب وحبس . ثم أخيراً قتل .

ولسان هؤلاء الثلاثة جميعاً يقول ، كما كان يقول أرميا : « ربى ! لم جعلتنى مُسْأَقاً لأهلى ؟ » أى ربى . لم جعلتنى على شقاق مع مجتمعى ؟

ولكن أرميا كان يجهل أن كل من يطلب الإصلاح والتطور والارتقاء لن يمكنه أن يؤدى هذه الرسالة إلا بعد شقاق بينه وبين أهله . وهؤلاء الأهل ، أو هذه الشعوب والمجتمعات ، بعد أن تضرب الذي أو الفيلسوف والأديب ، وتحبسه . وقد تقتله . بعد ذلك تقيم له التمثال الذى يخلد صورته وتحتفل بذكره وتدرس أقواله .

وعظماء الأدباء فى أيامنا هم الأنبياء وهم الفلاسفة .

" " "

لما كان تولستوى فى شبابه وجد نفسه نبيلاً ممتازاً على الشعب بالثروة والمقام . وله عبيد زراعيون يجرى عليهم حكم الرق . فأعتق عبيده هؤلاء ولكنه بعد ذلك وجد أن المباراة التجارية الجلبدة . واستخدام رأس المال الوطنى والأجنبى ، وظهور طبقة جديدة من الأثرياء الذين يطلق عليهم اسم « بورجوازيين » . وجد أن المناخ الاقتصادى الاجتماعى الجلبد ، على ما يزينه من طلاء الحضارة والثقافة . هذا المناخ أسوأ من المناخ الزراعى القديم . ففكر الحضارة الغربية المعاصرة ودعا دعوة الحياة الساذجة الفطرية ، دعوى روسو قبل مائة سنة .

وهنا نحتاج إلى أن نتلبث قليلاً ونبحث الموقف السيكلوجى .

فإن جان جاك روسو حين خبر المظالم المملوكية والإقطاعية فى فرنسا ، وحين شاهد البذخ النجس فى الطبقات البشرية إلى جنب الفقر الساحق المهين فى عامة الشعب ، حين رأى ذلك قال إن الحضارة كلها نجاسة

يجب أن نتجنبها ونعيش في سداجة . لا نشترى الذهب ولا نبني القصور ولا نأكل على الموائد المظلمة ولا نفتني الحرير .

وكذلك تولستوى حين رأى غرو الرعاب التحارية ، والحشع ، أى الاستكثار من التراء بالمباراة القاتلة وسحق الفقراء من العمال . تم ما ينبغي على ذلك من مدد ينبا فيها الأثرياء مع التعطل والدعارة إلى جنب آلاف العمال الجائعين الذين يعيشون في البدرومات — حين رأى ذلك قال أبضاً بأن حياة الريف خير من حياة المدد . وأن الصاعات الصغيرة في القرى خير من المصانع الكبيرة في المدن .

وقد تعلم هو صناعه الأحذية كى يحس راحه الصمير . وكان يحتر الأرض . وكان يقول إن المتمددين الغربيين يلعبون الألعاب الرياضية لأنهم لا يؤدون أعمالاً مجهدة . ولو أنهم كانوا يعيشون مثل الفلاحين على الأرض لما احتاحوا إلى الرياضة البدنية .

ثم جاء عاندى فأحب دولسوى كما كان هذا يحب روسو . وأسس «زرعة» باسم «زرعة تولستوى» حين كان في أفريقيا الجنوبية يدرس مشروعاته في مقاومة الشر بالخير . وكان يعمل ويجرب في أساليب الحياة التي أصبحت مذهباً عاش به الهنود . فلبسوا الخيش وأكلوا الخضراوات وصاروا يغزلون ونسجوا كى يستغنوا عن الأقمشة الإنجائزية الواردة إليهم من إنجلترا .

“ ”

أرجو ألا يفهم أحد أنى أمدح هؤلاء الثلاثة على الخطط الأساسية التي زعموا أنها تصلح للحياة العالمية . وإنما وجدت أنه يجب . كى نفهم تولستوى . أن نذكر هذا الاتجاه الذى لم يخل منه عصر . ويكنى أن نقرأ قصة «نبيد الإنشاد» في التوراة كى نعرف أن هذا الاتجاه قديم .

إذ أن هذا السفر لا يعدوا أن يكون دعوة إلى الطبيعة والسذاجة والقناعة ضد الحضارة .

وفي قلب كل منا شيء يهوى إلى هذه الحياة . ونحن نزداد تفكيراً فيها عندما نجد أن مركبات الحياة المتعددة قد استحالت إلى عقد يعسر علينا حلها ، وأتينا نقع في مضاعفات ثقلنا وتويسنا وتمرضنا .

التفكير في العودة إلى الطبيعة ، والتفكير في القناعة بحياة الريف ، والتفكير في لبس الخيش وطعام النبات — كل هذا هروب من عقد الحضارة العصرية ومضاعفاتها والعجز عن حلها .

أما متى وجد الحل فإن أحداً لا يفكر كما فكر هؤلاء الأبطال الثلاثة .

\* \* \*

تمتاز القصة الروسية ، على وجه عام ، بالواقعية . وهذا هو الأثر الذي تخلفه قراءة قصة روسية عند القارئ العربى الذى يعرف الآداب الروسية .

وتولستوى واقعى يتعمق البواعث الخفية ويكشف عنها في صراحة كثيراً ما فزعت منها الطبقات الحاكمة في روسيا .

وهو في كل ما يكتب لا ينسى أن ينبه إلى أن الحضارة العصرية غير إنسانية . وأشخاص قصصه فضلاء مستقيمون إذا كانوا فلاحين ساذجين مثل « لفين » في قصة « أنا كارنينا » . وهم أرذال منحرفون إذا كانوا متدينين مثل « فردمنسكى » في هذه القصة نفسها .

وهذا تحيز واضح له أصول في روسو معلمه الأول .

ثم هو . مثل روسو قبله . ومثل غاندى بعده . شعبى . أى مع عامة الشعب والفقراء والمسحوقين والمحرومين . ومن هنا دعوته إلى تبسيط اللغة

الروسية . بل إن كراهيته لشكسبير تعزى . إلى حد بعيد ، إلى أن هذا الشاعر الإنجليزي يتعالى على الشعب ويسميه غوغاء لا يفهمون . وإلى أن معظم أبطاله ملوك وأمراء . بل إنه يسرف هنا حتى يقول إنه يفضل أغاني الشعب الروسى العامة على أشعار جوتيه شاعر ألمانيا العظيم .

وأسلوبه لهذا السبب شعبى . هو حديث يكاد يكون عامياً . لانجد فيه تلك الكلمة المضمية أو العبارة المزوقة التى اعتدنا أن نجدها فى كتب الأدب الأخرى . ولكنه فى كل ما يكتب سيكلوجى عميق لا يعاو عليه هنا غير دستوفسكى الذى عرف سيكلوجية فرويد قبل فرويد .

\* \* \*

وربما يكون من المنير هنا أن نقارن بين تولستوى ودستوفسكى فإن كلاهما كاتب عظيم من كتاب القصة . بل لا نغالى إذا قلنا إنهما أعظم كاتبين للقصة فى العالم كله . ومع ذلك أنا أؤثر عليهما جوركى ولكن ليس ذلك لأنه يعلمو عليهما فى فن القصة ، وإنما لأنى أجد فيه مزاجى وزعتى واتجاهى فى الثورة التى لا يرضى عنها تولستوى أو دستوفسكى المسيحيان .

وهناك فرق أصيل بين دستوفسكى وبين تولستوى .

ذلك أن دستوفسكى يهدف إلى إيجاد أشخاص ، بل أبطال . لكل منهم شخصيته الفذة التى يختلف بها عن سائر المجتمع فهم فلاسفة أو مجرمون أو حتى مجانين . ولكنهم عباقرة . ولكن عبقريتهم فى الإحساس أكثر مما هى فى العقل . هم أذكىاء فى الإحساس . فإن « رسكلنيوف » بطل « الجريمة والعقاب » وهى القصة التى كنت أول من حاول ترجمتها فى عام ١٩١٢ ، هذا البطل يقتل امرأة عجوزاً عن تعقل منطقى . ولكنه يعترف بعد ذلك بالجريمة ، ويرضى بحكم الإعدام أو النفى المؤبد عن

إحساس إنسانى . ولهذا المؤلف أشخاص متدينون فى قصته العظيمة « الإخوة كرامازوف » تتأمل تدينهم العميق فتشك فى إيمانهم : هل هم مسيحيون أم إنسانيون ؟ وهل ينشرون النور أم الظلام ؟ نحن نقرأ ونحن نعانى لذة أليمة ، وكأننا فى قبضة محمل سيكاوحي نستحجب لأسئلته بومضات الذهن وارتجاف القلب .

جميع أبطال دستوفسكى شواذ ، مرضى ، ولكنهم عبقريون أذكاء . أما تولستوى فن الشعب يكتب للشعب . رجاله عاديون . وهو يعبر عن أعمالهم وصفاتهم بلغة شعبية بعيدة عما يسميه الاحتمالات البلاغية . المثل الأعلى عند دستوفسكى هو الرجل الشاذ الذكى الذى يخس أكثر مما يتعقل .

والمثل الأعلى عند تولستوى هو الرجل العادى الذى لا يشذ عن المجتمع . ولكن هذا المجتمع يجب أن يكون ساذجاً يحيا فى الدنيا والصلاح . هو الرجل الطيب فى معنى الطبيعة الشعبية . بل أكاد أقول العامة .

البطل عند دستوفسكى هو من ينفصل عن المجتمع . والبطل عند تولستوى هو من يندمج فى المجتمع .

وأحسن أشخاص القصص عند تولستوى هو « ليفين » صاحب الأرض فى قصة « أنيا كرنينا » وهو مزارع طيب يتسم بأفكار عرفية ، أى اجتماعية ، عن الحب والزواج والعائلة والصلاح . هو تولستوى نفسه وسائر المزارعين .

وأحسن الأشخاص عند دستوفسكى هو الطالب « رسكلنيكوف » القاتل الفاجر الذى يقتل العجوز كى يسرق أموالها ، لأن حياتها « لاتزيد فى القيمة على حياة برغوث » .

أليس هذا هو المنطق . منطق العقل وحده ؟  
ولكن دستوفسكى يعود بعد ذلك فسترخ في أكثر من مائتى صفحة  
أن هذا المنطق خطأ .

وأبطال دستوفسكى يخترقون في معانى الحب من أشخاص تولستوى .  
البطل عند دستوفسكى يحب المرأة البعوى . ويعيد لها . لأنه يعيد  
الأممها . وينغمس في دموعها . ويكرع تعاسها . وكأنه يبكى في هذا  
الحب نعاسة الناس و بغاء حياتهم وجوعهم . وهو يستنبط من هذا الحب  
المعاني الإنسانية التى تجعلك تسمو على نفسك .

أما أبطال تولستوى فيحبون هذا الحب الأفلاطونى الذى يتوهم الناس  
أنه الحب السطحي . مع أن أفلاطون قصد منه إلى الحب الشامل للإنسان  
والحيوان والنبات . والصدق والشرف ، والحقيقة والفن والطبيعة .  
الحب عند تولستوى هو الحب للناس أولاً . ثم بعد ذلك لهذا الكون  
بكل ما فيه من مخلوقات .

ولهذا السبب كان تولستوى يقيس كل شىء بقرمته للشعب . فالكتاب  
أو الصورة أو اللحن إنما هي جميعها وسائل لزيادة الاتحاد ، بل الاندغام ،  
بين أفراد الشعب . وعنده أننا كلما اندغمنا في الشعب كنا أسعد ، وكلما  
انفصلنا كنا أتعس . ومن هنا كراهته لشكسبير الذى يكتب أحياناً في  
وفاجه . ويصف الشعب أنه غوغاء . وكذلك كراهته لجوته ، حتى قال  
إن الأغاني الشعبية الروسية تحوى من الفن أكثر مما تحويه أشعاره .  
وكذلك احتقاره لما كان يسميه « الاحتمالات البلاغية » لأن فنون البلاغة  
للخاصة وليست للشعب . ثم أخيراً نجده يحرق الأرض ويصنع الأحذية  
بيديه .

إنه يريد أن يكون من الشعب ويؤدى الأعمال الشعبية .

وهو هنا بالطبع مسرف . ولكن لهذا الموقف وجهاً يستحق أن نبحثه من ناحية المزاج النفسى والإحساس العاطفى ، وليس من ناحية الارتقاء البشرى والتقدم العلمى . بل إن لهذا الموقف مغزى لا يستهان به حين نتأمل خطط غاندى الشعبىة فى الهند والنتيجة التى انتهت إليها .

\* \* \*

تغمر لإحساسات الحب حياة تولستوى .

الحب الأفلاطونى الذى يشمل الحياة والطبيعة : حب روسو .  
وأكبر الظن أن روسو . هو الذى نبه ذهنه إلى الحب . أو هو الذى أیده وبعث فيه الاستطلاع والتعرف .

ولذلك لا نستغرب من تولستوى أن يلتفت إلى معانى الحب التى دعا إليها الإنجيل . ولكن التفاته هذا أدى به إلى الاصطدام بالكنيسة .  
والواقع الذى يشبهه تاريخ أوروبا أنه كلما اقتربنا من الإنجيل ، وحاولنا أن نفهم تعاليمه منه مباشرة ، ونقرأه مثل أى كتاب آخر ، كلما فعلنا ذلك ، ابتعدنا عن الكنيسة . ونعنى بالكنيسة هنا كهنتها .

فإن لوثر ، المصلح البروتستانتى ، حين شرع يدرس الإنجيل مباشرة طرده الكنيسة الكاثوليكية . وكذلك فعلت مع رينان . وكذلك فعلت الكنيسة الأرثوذكسية مع تولستوى .

إن للكهنة تفسيرات « رسمية » للإنجيل . فمن تجرأ من المسيحيين على أن يفهم كلمات الإنجيل ، حارج هذه التفسيرات الرسمية ، فإنه عندئذ يكون عرضة للوم والحرم . وليس هذا شأن الكنيسة أو الكنائس البروتستانتية ، التى تعلمت من طرد لوثر ألا تطرد أحداً يخالفها .

وكان طرد تولستوى أو لإلقاء الحرم عليه ، قائماً على أنه نظر إلى المسيح النظرة الإنسانية ، ووجد فى الأخلاق التى دعا إليها ، وعمادها



١٣٥

الحب ، أخلاقاً لا تحتاج إلى وحى إلهى . بل إنه يقول إنه هو نفسه ،  
أى تولستوى ، كان يمكنه أن يقول بما قال به المسيح فى الأخلاق دون  
أن يحتاج إلى وحى إلهى . لأن هذه الأخلاق هى أفضل ما نعرف وأليق  
ما تكون للمجتمع البشرى . هى أخلاق عليه .

وهو يقول فى إحدى مذكراته حين كان يقاتل فى حرب القرم  
حوالى عام ١٨٥٥ : « ... خطرت بذهنى فكرة ، هى تأسيس ديانة جديدة  
تمنق والحال الحاضرة للنوع البشرى . أعنى الديانة المسيحية التى تتطور  
من العقائد الجاهلة ومن الغيبيات بحيث تصير ديانة عملية لا تمهنا سعادة  
المستقبل ( بعد الموت ) وإنما سعادة الحاضر على هذه الأرض » .  
وهو يستخلص من موعظة الجبل فى الإنجيل هذه الوصايا الخمس :

- ١ - لا تغضب .
- ٢ - لا تزن .
- ٣ - لا تقسم .
- ٤ - لا تقاوم الشر .
- ٥ - لا تكن عدواً لأحد .

هذا هو كل ما يؤمن به من الإنجيل . وما عدا ذلك فزيادات يمكن  
الاستغناء عنها . ولكن تولستوى مع ذلك لم يجابه كل الحقائق . ولو كان  
قد فعل لاستقر على العلم وحده .

x n n

حقيقة الموت من أعظم الحقائق التى تواجهها عندما نفكر فى الحياة  
البشرية .

لماذا نموت ؟ ولماذا نخاف الموت ؟  
وقد فكر تولستوى كثيراً فى هذا الموضوع . وله فصله تسمى

« ثلاث توبات » توضح لنا رأيه فى الموت . وقد كتبها فى عام ١٨٥٨ .

والموتات الثلاث هى موت سيدة ثرية متمدنة ، وموت فلاح فقير سادج ، ثم موت شجرة . وهو يصف تدرج الموت ، منذ بدايته حتى نهايته ، فى هذه الأحياء الثلاثة . وله نظرية فى ذلك ، هى أننا نتألم من الموت ونخشاه لأننا نحيا فى الحضارة على وعى بأن كلا منا فرد منفصل . ويزداد هذا الإحساس إذا كنا متمدنين متعلمين . ولذلك نخشى فى السيدة الموت .

أما الملاح ، فلأنه سادج ، يحيا مع الطبيعة ولا يحس فرديته إلا بمقدار صغير ، أى أنه ليس على وعى خاص بحياته . هذا الفلاح يتحمل الموت ويستقبله بأقل الألم وأقل الخوف .

أما الشجرة التى تخلو من الوعى ، وليس لها أى إحساس بفرديتها إذ هى جزء متم لا ينفصل من الطبيعة ، هذه الشجرة لا تحس بتألم بالموت . ونحن حين نقطع غصونها ونكسر ساقها لا نجد فيها ما يدل على ألم أو خوف .

والمغزى الذى يستخرجه تولستوى من هذه المقارنة بين الموتات الثلاث ، أنه كلما ازدادنا ثقافة وتمدنا ومعرفة ، ازدادنا أيضاً وعياً وانفصالاً من المجموعة البشرية . ونحن نتألم لهذا الوعى والانفصال وقت الموت . ولكن لو كان وعينا وانفصالنا ضعيفين أو معدومين لكنا مثل الفلاح ، بل مثل الشجرة . لأن موتنا جزئى . إذ نحن أحياء فى المجتمع أو الطبيعة لأننا لم ننفصل منهما . إذ يكون موتنا بمثابة من تكسر أصبعه أو يده فقط .

إن تولستوى طبعه أخرى لرسو .

إنه يمدح الحياة البدائية ، بل يمدح الطبيعة غير الواعية . ويجد فيها

الفلاح آلام الموت والسفاه من الخوف من العدم .  
وهو بالطبع لا يؤمن بالغيبيات التي تلي الموت . ولا يشتهي ، ولا  
ينتظر أطباق الحاوى بعد الموت ، هذه الأطباق التي يعتقد بعضها أنها  
تخفف من ألم الموت وتزيد الخوف منه . مع أن الواقع يثبت غير ذلك .

" " "

إن تولستوى يستحق النقد هنا .  
ذلك أنه نظر إلى الموت من حيث إنه مواجهة العدم للإنسان  
وإنه نهائى ليست بعده حياة أخرى . .  
ولكن عبء الموت يجب أن تنعكس على الحياة .

إذا ما دامت الحياة تنتهى بالموت انتهاء تاماً ، فيجب لذلك أن نحيا  
حياتنا بأقصى وأعظم ما نستطيع ، وأن نعمل من هذه الدنيا نعيماً لأبناء  
البشر . نحن فى سعادة وسلام وعلم وثقافة واستمتاع ، ونعم الخير  
والعدل ، ونحمل نحن وحدنا المسئولية فى كل ذلك بدلاً من إلقاء  
المسئولية على قوات غيمية .

ولكن تولستوى لم يكن يرتفع إلى هذا التفكير لأنه لم يكن ثورياً  
والثورة وحدها ، أى السعى لإيجاد ثورة تغير المجتمع ، هى التى تقاوم  
الاهتمام النفسى والذهنى من التفكير فى الدين إلى التفكير فى الدنيا .

وكراهة تولستوى للثورة يعود إلى إيمانه المطلق بأن الشر يجب  
ألا يقاوم ، وأن الموقف السلبي من المظالم والشرور جميعها هو الموقف  
الذى اتخذته بعد ذلك غاندى .

وقد اتخذ غاندى نقلاً عن تولستوى .  
لم يكن تولستوى يؤمن بالثورة . إذ كان يقنع بالإيمان بالمسيحية  
بالإخاء المسيحى .

ولكننا مع ذلك نعلمه إذا قلنا إنه لم يعمل لتعميل الثورة. ذلك أنه عمم السخط بين طبقات المثقفين في روسيا لأنه أبرز مظالم المجتمع والحكومة والكنيسة وهذا السخط كان الاختيار الذى سبق الانفجار بالثورة. لم يكن اشتراكياً ، ولم يكن له برنامج ، ولم يكن له كفاح عملي مذهبي سوى تسليم الأرض للفلاحين . وقد حاول هو نفسه أن يفعل ذلك واصطدم بعائلته التى منعتة من إنفاذ نيته . لم يكن تأثيره إرشادياً للثورة ، ولكنه كان إيمانياً

\* \* \*

ولا نستطيع أن نقول إن غاندى قد أرشد الثورة في الهند بالتعاليم التى أخذها عن تولستوى . وإنما قصارى ما نقول عنه إنه أوحى بها ولونها بلون الوداعة التى انتهت بالمقاطعة ، مقاطعة الإنجليز المستعمرين . وكلاهما ، أى تولستوى وغاندى ، يجهل الأساس الوحيد الذى تنبنى عليه المجتمعات وتتغير بتغيره وتتطور بتطوره .

هذا الأساس هو الأساس الاقتصادى .  
كان كلاهما « مثاليًا » وليس « ماديًا » .  
كان كلاهما يطلب الأخلاق ثم الإصلاح .  
الأخلاق عند كل من تولستوى وغاندى تؤدي إلى الإصلاح .  
وهذا هو الخطأ الفادح .

لأن الأخلاق ليست شيئاً سوى الثمرة أو الثمرات ، التى يثمرها النظام الاقتصادى . فإذا كان هذا النظام حسناً عادلاً فإن الأخلاق تكون حسنة عادلة .  
كان كلاهما يطلب إصلاح الفرد . ثم يؤدي ذلك في منطقه إلى إصلاح المجتمع .

ولكن العكس هو الذى نؤمن نحن به الآن ، فإننا نقول إننا نحتاج إلى مجتمع عادل لكي يتعام أفراداه بنظامه ، محض نظامه ، ويمارسون العدل فى علاقاتهم الواحد مع الآخر .

موقف غاندى وتولستوى هو الموقف المسيحى . وهو أن على الفرد واجبات إذا أداها صار المجتمع صالحاً .  
ولكن أهل نجحت المسيحية فى ذلك ؟

لأنها لم تنجح . بل انتهت بعد ألى سنة من نعاليمها باختراع القنابل الذرية الهيدروجينية ، أقوى أسلحة الشر فى تاريخ العالم .  
إن أسوأ ما فى تولستوى وغاندى معاً إنهما لم يفهما ، ولم يدرسا التفسير الاقتصادى للتاريخ .

ولكن هل معنى هذا أنهما لم يخرجا عصرهما ؟  
لا . لأن الواقع أنهما ، كما فاما ، أوحدا سحقاً أدى إلى اختار ثم انتهى الاختار بالانفجار . فكانت الثورة الاشتراكية فى روسيا ثم ثورة الاستقلال فى الهند .

السخط جعل الناس يفكرون ويعضبون . وانتهى التفكير والغضب إلى الثورة التى شبت بعد وفاة تولستوى بسبع سنوات فى عام ١٩١٧ .  
ولكن هذا السخط الذى جعل الناس يفكرون ويبتكرون جعل تولستوى نفسه يبتئس ويشقى . إذ كان هو يسخط ويتأكل بهخاره لأنه لم يكن له برنامج اجتماعى للثورة .

ولذلك أيضاً وجدناه بعد حياة بلغت ٨٢ سنة ينهض من فراشه فى الفجر ويترك بيته وأولاده ويفر إلى حيث لا يعرف . إذ لم يكن له وجهة ولم يكن له قصد .

كان يريد الفرار فقط .

فر من الحياة البائسة إلى الموت . ومات .

وبموته أثبت أن ما كان ينشده من الارتباط العضوي بالمجتمع . على الطريقة التي رسمها ، لم يعد ممكناً . لأنه لم يعد من الممكن أن نزل عن وعينا بالنزول عن ذكائنا وثقافتنا . ونحيا حياة الفلاح أو حياة الشجرة . ولكن هناك ارتباطاً آخر يحسه الرجل المثقف الواعي في أيامنا . هو هذه الاشتراكية التي ننشدها . فنحن في حياتنا ، بل كذلك في موتنا ، أجزاء متممة للمجتمع ، نرقى برقيه . . . فلا نشقى من الحياة . ولا نخاف من الموت .

ومع كل ما ذكرت عن تولستوى وروسو وغاندى . ومع كل ما نجد في حياتهم وتعاليمهم من أخطاء . فإننا نهفو إليهم كما نهفو إلى النسيم المنعش ، لما نجد فيهم من إخلاص وسذاجة وحب تفسدها علينا الحضارة . العصرية .

## فرويد وتشريح النفس البشرية



فى النصف الأول من القرن العشرين خطا كثير من العلوم خطوات تقرب الوثبات . فإن انتهاء الطبيعيات بالطاقة الذرية يعد وثبة وإن تكن وثبة جامحة فى الظلام . إذ ما كان أحد ينتظر أن يصل عالمنا إلى هذا الكشف العظيم قبل مئات السنين ، ولذلك فوجئنا بالقنبلة الذرية فكانت شر البدايات التى عممت الذعر .

والتقدم فى الطبيعة والكيمياء والبيولوجية كان منتظراً منذ أكثر من مائة سنة ، لأن لهذه العلوم تاريخاً يعود فى بعضها إلى أكثر من مائتى سنة . ولكن السيكولوجية كانت إلى نهاية القرن الماضى علماً مغلقاً أو كالمغلق . ولعل أكبر ما عافى تقدمه ، بل ميلاده ، هو أنه : نشأة زائفة فى حضن الفلسفة التى كانت تنأى عن التجربة وتقتصر على التفكير المجرد .

ثم جاء فرويد فكشف عن النفس قناعاتها بمفتاح جديد هو « العقل الكامن » أو الكامنة .

وفكرة الكامنة هي إحدى الفكرات المحورية أو البذرية . فكرة خصبة ولدت ، وتوالد أولادها ، حتى ظهر من الأولاد ما عاق الأم ، ولكنه في عقوقه قد أثمر ونفع .

وفي العقد الأول من هذا القرن كان صوت فرويد هامساً خافتاً ، فما هو أن بلغنا العقدين الثاني والثالث حتى صخب . وعلا بل طغى وأحس العالم أنها هنا قوة فكرية توجه الثقافة توجيهاً جديداً لم تكن نعرفه من قبل .

وإذا كان النصف الثاني من القرن التاسع قد حفل بالصراع الفكري بشأن داروين والتطور ، فإن النصف الأول من القرن العشرين قد حفل بصراع آخر بشأن فرويد والعقل الكامن . وبين الفكرتين شبه كبير ذلك أن نظرية داروين قد أثبتت لنا أن الجسم البشري هو ثمرة التطور ، وأنه لذلك يخفى كثيراً من الأعضاء الأثرية القديمة التي ورثناها من الأرومة الحيوانية التي نشأنا منها . وكذلك الشأن في نظرية فرويد . فإنه أثبت أن النفس البشرية قد ورثت وظائف وحشية قديمة ، وأنها تألم ونبئتس لأننا في صراع لا ينقطع بين هذه الوظائف الطبيعية القديمة وبين قيود الحضارة التي تمنعنا من ممارستها .

وقد قضيت كثيراً من سني عمري في ضوضاء هذه النظرية وتأثرت بها كما يبدو من مؤلفاتي فلاني أعد منها خمسة أو ستة ألفتها في هذا الموضوع بالذات ، أو تناولت الموضوعات الاجتماعية والثقافية بالشرح والتعليل السيكلوجيين . فإن كتبتي « فن الحياة » و« كيف نسوس حياتنا بعد الخمسين » و« التثقيف الذاتي » و« الشخصية الناجمة » هي معالجات



سيكولوجية لهذه الموضوعات ، وهذا فضلاً عن كتابي « أسرار النفس » و « عقلي وعقلك » و « محاولات سيكولوجية » وهي في صميم السيكلوجية الشعبية .

وقد انتفعت كثيراً بهذا الاتجاه السيكلوجي في ثقافتى ، ولكنى لم أنتفع به كثيراً في حياتى اليومية ، لأننى على الرغم من السيكلوجية مازلت أعيش وفق ما نشأت وتدربت عليه أيام طفولتى إلا القليل ، بل القليل جداً الذى استطعت أن أنفضه عن نفسى من أخلاق وعادات ذهنية طفلية . وأنا هنا شاهد على صحة التعاليم الفرويدية وهو أن للسنين الأولى من العمر أكبر الأثر في التوجيه الأخلاقى .

ولكن جمعى بين فكرة التطور وفكرة العقل الباطن قد أخصب ذهنى وحركنى إلى تفكير أخلاقى جديد . فمن ذلك مثلاً أنى تجنببت الخطب الذى يرجم به الكتاب في موضوعات مختلفة مثل السعادة . فإنى وثبت فوراً وبداهة إلى أن السعادة هي الوجدان ، أى ما يسميه عامة كتابنا « الوعى » ، وأنه بمقدار ما عندنا من وجدان ودراية نكون سعداء . وبمقدار ما يستولى علينا العقل الكامن أو الكامنة نكون تعساء . وهكذا الشأن في موضوعات أخرى .

وقولى إن فرويد قد هدانى ووجهنى ليس معناه أنى قد سلمت له بلا قيد أو شرط . ولكنه كان البذرة التى أخصبت في نفسى . وأخصبت أحياناً ضد ما أراده فرويد . وحسبى من ذلك أن أقول لنى أوشك أن أكون « بافلوفيا » هذه الأيام من حيث الإيمان بأن الأفكار البشرية جميعها إنما هي رجوع انعكاسية مكيفة ، أى معدولة ، عن الرجوع الأصيل . ولكنى ما زلت في شك .

وقد كانت رحلتى في السيكلوجية وازية متعثرة ، بدأت بفرويد ثم

يونس ثم أدلر ، ثم أولثاك الأمريكيين التجريبيين ، ثم كرتشمير ثم بافاوف .  
ولكن فرويد هو الذى فتح لى الكوة وبسط لى الميدان وأكسبنى  
الحافز .

وفرويد هو بعد ذلك المعكر الأساسى بين السيكلوجيين . فإنه حط  
على الحقيقة الأولى وهى الكظم العام للشهوة الجنسية وما يؤدى إليه  
من اضطرابات شخصية . وهو حين يجعل هذه الشهوة حافزاً أولياً  
للنشاط البشرى لا يعدو الحقيقة فى عالم الحيوان كله . ثم هو حين يعلق  
مستقبلنا الأخلاقى والمزاجى والعاطفى على السنين الأولى من الطفولة  
إنما يوضح حقيقة بل أكبر الحقائق فى مبادئ التربية وقيمة العائلة  
الحاسمة فى توجيه الاجتماعى الصحيح .

وأخيراً هو الذى جعلنا نعرف أننا نسير فى هذا العالم بقوة العواطف  
المستترة فى الكامنة أكثر مما نسير بقوة الوجدان اليقظ الذى ندرى به  
ما نفعل . فنحن نحب ونكره ، ونخاف ونشجع ، ونشتمز ونقبل .  
بعواطف اندست فى كامنتنا منذ الطفولة ونكاد لا ندرى بها إلا بعد  
التحليل الشاق .

فقد يجب أحداً فتاة وبتزوجه على اعتقاد أنه يعجبها لأنها جميلة  
أو وديعة ، أو أن عينها ساحرتان أو غير ذلك . وهو إنما أحبها لسبب طفلى  
هو أنها تشبه أمه أيام كانت تحمله على صدرها للرضاع . أو هو قد يكون  
مدللاً نشأ على إحساس الحاجة إلى الأم ، وقد وجد فى هذه الفتاة رعاية  
الأم لأنها أكبر سنّاً منه . فهو يستجملها لهذا السبب . أو هو وجد فيها  
كبرياء وتسلطاً وهو « مازوكى » يحب أن يتألم ، فهو يعجبها لأنه يحس فى  
جانها أنه ذليل ( وأيضاً محمى ) . أو قد يكون عكس ذلك . أى أنه  
سادى يحب لإيقاع الأذى والقسوة بغيره . فهو يختارها صامتة منكسرة  
أو ضئيلة الجسم ، لأن انكسارها وضآلتها يشبعانه ويزيدان إحساسه

بالقوة . أو قد يكون شاذاً ، فهو يحجبها لأنها تشبه الصبيان والشبان .  
وقد يكره أحدنا بعض الأطعمة ، بل لعله يشمئز من رؤيتها بحيث  
يكاد يعتقد أن هذا الاشمئزاز « طبيعي » . وهو إنما يردد في نفسه ظرفاً  
معيناً سابقاً أو أساساً للعيش قد تعلمه في طفولته .

وقد نجد شخصاً له « إرادة حديدية » لا يتراجع ولا ينحرف عن  
هدفه مهما اعترضه من صعوبات وكأنه معجزة عجيبة في التزامه هذا  
الهدف وفي توفيقه بتحقيقه . وحقيقته أمره أنه لظروف سابقة معينة قد  
تخيل هذا الهدف وتجسم هذا الخيال الذي ربما يكون قد نشأ أيام الطفولة .  
ثم صار هذا الخيال يوجهه ، من حيث لا يدري ، إلى هذا الهدف .  
ولبعض الخبايا مثل هذه الإرادة الحديدية .

والإنشاءات المختلفة ، من أبونا ومن المجتمع وما نقرأ وما نصادف  
في شبابنا ، توجهنا وتعين لنا الحسن والقبيح . بحيث نعتقد أننا نحن  
الذين نعين هذا الحسن وهذا القبيح ، بل قد نتأثر بوحى أحلامنا ونحن  
نيام ونسلك في الصباح وفق الرجوع التي أحدثها الحلم . ثم نهرر سلوكنا  
أو نسوغه بالمنطق .

وكل هذا يدل على أن ما نحسبه منطقاً في سلوكنا إنما هو رجوع  
واستجابات لا شأن للمنطق فيها . ثم هو ، أي « فرويد » ، حين يوضح  
أن كلامنا ، أي « الذات البشرية » مؤلفة من ثلاثة أقانيم : أقنوم  
الإيد (id) وهو طبيعتنا الحيوانية وغرائزنا البدائية الكامنة ، ثم أقنوم  
الإيجو وهي شخصيتنا الوجدانية الاجتماعية التي ندرى بها ، ثم أقنوم  
السوبر إيجو وهو ضميرنا وما نتطلع إليه من شرف وبر وفضيلة — في كل  
ذلك لا نستطيع أن نخالف فرويد .

وكذلك عندما يوضح لنا أن ضميرنا إنما يرجع في الأصل إلى مجموعة

المخطورات التي تعلمناها منذ الطفولة . فنضطر إلى التسليم بقوله :  
بل كذلك أيضاً لا نستطيع أن نخالفه حين يقرر أننا في الطفولة  
نحس دوافع لدية مبهمه تتفاوت بين القوة والضعف ، من الغرام الصريح  
إلى الحب الأفلاطوني .

كل هذا قد سلمت به وانتفعت به في مركباتي الذهنية ، ولكنني  
اضطرت إلى مخالفته في أساس نظريته وهو مركب أوديب هذا . ذلك  
أن فرويد يعتقد أن الطفل يحب أمه حباً جنسياً ويخذ لذة جنسية في الرضاع  
والتمسح بجسمها . وهو يضطر إلى كظم هذا الحب خوفاً أو حياء من أبيه .  
وأن هذا الكظم يدور في دورات مختلفة بعد ذلك في نفسه وهو يفرج عنه ،  
بنشاط بدلي كالتسامي ، إلى إيجاد مؤسسات الحضارة أو إلى ألوان أخرى  
من الثقافة أو قد يمرض منه .

ولم أستطع أن أقنع نفسي بكل هذا ، ولكنني مع ذلك أسلم  
بالعواطف المركبة في الطفل نحو الأب وهي حب وكرامة واحترام وعداء . .  
وهي تعزى في بعضها إلى مركب أوديب . فإن الطفل يغار على أمه من أبيه  
غيره أظنها غير جنسية أو هي إذا كانت جنسية فإن الإحساس الجنسي  
فيها ضعيف حتى لا يكاد يؤثر به ، أي أن مركب أوديب ليس ميزان  
النفس البشرية وليس أساس المركبات النفسية في الشباب .

اختلافي هنا مع فرويد في الدرجة كما هو في الموضوع . فأنا أسلم  
بأن خيال الأم أيام الطفولة يلصق بالطفل سائر حياته حتى ليختار  
زوجته من طراز أمه . وهو ينظر إلى رئيسه الأعلى ومن دونه من الرؤساء  
نظرة الطفالية إلى أبيه .

ولكن إذا سلمنا بأن هناك دوافع جنسية بين الطفل وأمه فلننا يجب  
ألا ننسى ما هو أهم منها ، وأحرى بأن يكون الميزان الذي توزن به

السكينة أو الاضطراب النفسى طوال العمر . ذلك أن تعاقب الطفل بأمره والتصاقه بها ، أيام الطفولة ، يجعله يحس نحوها بأنها مركز أمنه وطمأنينته وهى موثله ومكان استغاثته عند الخوف . ومركب أوديب فى هذا المعنى هو مركب الاحتماء من الخوف والخطر أكثر مما هو مركب الاشتماء الجنىسى .

والأم هنا تمثل المجتمع ، فإذا كانت قد أسرفت فى حماية طفلها فإنه ينشأ عاجزاً كارهياً للاقتحام ينشد لسلامة مهما كانت وضبعة . . وإذا كانت قد أسرفت فى تقييد حريته فإنه ينشأ خائفاً ضائعاً بالصعوبات والأخطار الخفية . وهو ينشد من يحميه أو ما يحميه فى شخص كالزوجة أو الرئيس . أو فى عمل مستقر قد يكون قليل الكسب .

ولما كانت حياتنا الاجتماعية الاقتصادية حافلة على الدوام بالأخطار ، غير مطمئنة إلى المستقبل ، يكثر فيها الإفلاس والتعطيل وخوف المرض والموت والقلق على الوظيفة أو الأبناء . وخوف الخزيعة فى الحب أو المهاراة الاقتصادية العامة . فإن القلق الذى يصيبنا من جميع هذه الحالات يتخذ الأسلوب الذى نشأ عاياه مع الأم أيام الطفولة .

ولكن إذا كانت علاقة الأم بطفلها أو مركب أوديب ، قائمة على التوسعة للطفل فى مجال الحرية . بحيث يتعود الجراءة ويقدم ويخترع اختراعاته الصغيرة . فإنه عندما يكبر يستطيع تحمل الصعوبات ، بل يضحك من الأخطار ولا يخشى عليه من نيوروز أو سيكوز . أى من مرض عصبي أو عقلى .

ولست أجد فى كل هذا تناقضاً مع بافلوف الذى يرد عاداتنا الذهنية وعقائنا وأفكارنا إلى تلك الرجوع الانعكاسية الأولى أيام الطفولة ثم ما ينشأ منها من رجوع مكيفة أى معدولة عن أصلها . ويكاد الفرق بين

فرويد وبافلوف يكون سيائياً أو لغوياً في اختيار الكرامة وأسلوب التعبير . ولكنى لست فرويدياً من حيث إيمان فرويد بأن لنا غرائز ثابتة مورثة في الرغبة في العدوان أو الموت أو في هذا الاتجاه الأخلاقى أو نحو ذلك ، فقد وصلت بدراساتى الاقتصادية إلى أن التربية وحدها : العائلية ، والاجتماعية ، هى التى تعين لنا عواطفنا من حب وكراهية واستلطاف . أو اشمئزاز وكفر ، أو إيمان وخضوع أو تمرد . وظنى أن هذا هو الفرق الأساسى بين فرويد وبافلوف : الأول يكاد يكون غريزياً مائة فى المائة والثانى يكاد يكون اجتماعياً مائة فى المائة .

وبكلمة أخرى أقول إن المجتمع يفرض لنا أسلوباً للارتزاق ، فيعين لنا بهذا الأسلوب ووسائله العواطف التى تسود نفوسنا من غيرة وتحاسد إلى تعاون وحب ، ومن مباراة تهدف إلى التفوق وتحمل فى غضونها ما يلابسها من إحساسات القلق ، وطمينة تجمعنا فى وجهة موحدة نحو خير المجموع . وعواطفنا التى تحرك نشاطنا هى جميعها ثمرة هذا النظام الارتزاقى الذى يرتب لنا معانى الضمة والشرف والخسة والسمو . ولن نستطيع أن نفهم معنى الانتحار أو الثأر والأمانة ، أو الخيانة الزوجية ، أو قوانين الزواج أو الطلاق ، إلا إذا رجعنا إلى تلك النظم الأصاية التى يرتزق بها الناس من صناعة أو زراعة . ونحو ذلك .

وأنا أعد نفسى ممتازاً على فرويد من هذه الناحية التى أعجب من إهماله لها . وهو إهمال خطير ، لأن سيكولوجية فرويد الغريزية تعد راكمة جامدة إلا من حيث إنها تدعو إلى التفريغ كى يقل الكظم . ولكن هذه السيكولوجية الاجتماعية التى تعلل العواطف بنظام المجتمع تعد متحركة ارتقائية لأنها تنشئ ترقية المجتمع لإيجاد العواطف البارة السارة . بل إن العلاقات الجنسية نفسها ، على ما تنبنى عليه من أساس طبيعى ، تتكيف بالمجتمع بحيث تكون سوية أو شاذة . لأن الشذوذ الجنسى العدوانى مثلاً هو

اجتماعى فى أصصاه ، أو إذا كان هناك أساس طبيعى له فإن هذا الأساس لا يعال أكثر من أربعة فى المائة من الاتجاه العدوانى . وكذلك الشأن فى مركز المرأة العاطفى من الرجل . فإنها كما أثبتت « مارجريت ميد » « ليست على الدوام مطاوعة مغريرة مزدانة كما هو الشأن فى مجتمعنا . إذ هى قد نكون عكس ذلك كله »

وقد يزدان الرجل ويعطاب من المرأة أن تغالظه وتحاول استرضاءه واجتذابه . ومع أن المدارس « التحليلية » قد تعددت واختلعت أساليبها فإنها جميعها ترجع إلى فرويد . ولا يكاد يوجد فيها إلا القليل الذى أوجده أدلر بما أسماه « مركب النقص » .

فرويد يعلق النشاط الذهنى والاجتماعى والفنى والدينى إلى « اللهب » الجنسى الذى نشأ من الكظم السابق أيام الطفولة بحب الأم وكراهة الأب ، أى بمركب أوديب .

وأدلر يعاق هذا النشاط . أو النشاط الشخصى على الأقل ، بالنقص الكامن الذى نشأ فى الطفولة ثم حرك عواطف تحفز وتوجه سائر العمر .

و « يونج » يعاق هذا النشاط إلى الطافة الطبيعية ، أى الغرائز الأولى ، وأيضاً إلى تراث العقائد والممارسات القديمة وكامات اللغة والعادات البدائية كالسحر القديم . وهو يرى أن هذا التراث يعيا فى الكامنة من وقت لآخر .

لنفرض أن هناك كاتباً ثائراً نحاول أن نخلل ثورته التى ينشد منها الديمقراطية أو مكافحة الاستبداد . فإن من الواضح أن الناس ليسوا سواء فى فى تحمل المظالم أو فى الرغبة الحارة فى التغيير الاجتماعى ، فلماذا يختص هذا الكاتب بهذه الدعوة ؟

ف عند فرويد أن مرجع ثورته « مركب أوديب » لأنه كان يكره أباه وخاصة إذا كان هذا الأب قد أساء إليه في طفولته واستبد به . وهو حين يكبر يضع الورير أو الأمير المستبد . مكان الأب ويوجه إليه كراهيته وكفاحه .

وعند أدلر أن هذا الكاتب كان أيام طفولته يجد نقصاً في جسمه . أو شبهة في وجهه ، وكان الحجل يحز فيه ويوجهه نحو التردد على الرؤساء الذين أخذوا مكان المجتمع الذي كان يعيره أو يقف منه موقف التمييز أيام طفولته .

وعند يونج أن هذا الكاتب ورث روح البطولة وإحساس العدل من الثقافة البشرية العامة منذ نشأت الحضارات الأولى . فهو يمثل في كفاحه دعوة دينية ونهضة شعبية كثيراً ما تكررت في التاريخ البشري . ومن هنا قيمة الأحلام . وهي قيمة كبيرة عند فرويد ولكنها أكبر عند يونج ، ولا تكاد تكون لها عبرة كبيرة عند أدلر . وإنما يكبر يونج من قيمة الأحلام لأنها تبرز هذه الثقافات القديمة وفت النوم . فنحن نحلم كما لو كنا نعيش قبل عشرين ألف أو عشرة آلاف سنة . أى نعيش في بيئة الوحوش المفترسة والغابات المظلمة والكهوف الصخرية والفرز مع الاستعانة بما يشبه قواعد السحر القديم والكيمياء المنقرضة .

والحق أن في الأحلام شيئاً كثيراً من هذا . وليس لنا الحق في أن نرفض وراثته الأفكار أكثر مما لنا الحق في أن نرفض وراثته الأعضاء . فإننا في أيامنا ننزع إلى الإيمان بوراثته العادة ، كما كان يقول لامارك . التي تعين وظيفة للعضو في الجسم ، كما نرى في طول العنق عند الزرافة أو الجمل . إذ أن هذا الطول نتيجة لمد العنق كي يصل كل منهما إلى الأعشاب . وكذلك الشأن في الأفكار . فإنها بالعادة والتكرار تورث



وتعود كما لو كانت غرائز . وهذا الحلم العام الذى لا يكاد يخاف منه طفل . وهو السقوط . برهان على أن خوف السقوط من التبرج ، وهو كارثة كان يجب على كل أسلافنا أن يتقوها بالألا يستسلموا للنوم العميق . هذا الحلم التحذيرى يدلنا ببقائه عندنا على أننا نرت الأفكار .

لقد كانت دراسة فرويد عندى بمثابة الحميرة التى تفشت فى ذهنى ، وكانت علامة العشرات بل المئات من الرجوع الذهنية . فإنه هو الذى كان يخفنى ، من حيث أدرى أو لا أدرى ، إلى دراسة المجتمع وكيف يجب أن نتق الإجرام أونعين أصول التربية أونتنى الحرب أو نفكر فى الشؤون الجنسية أو نقدر الثقافة أو نصف الشخصية الحسنة أو نحدد المعنى من الذكاء أو البلادة .

وقد ألقت كتابى « أسرار النفس » فى عام ١٩٢٧ وأنا متأثر بفرويد . ولذلك لا يتجاوز موضوعه « العقل الباطن » أى الكامنة أو العقل الكامن ولكنى عندها ألقت كتابى الآخر « عقلى وعقلك » فى عام ١٩٤٧ كنت قد تجاوزت فرويد إلى غيره من السيكلوجيين ، وإلى شىء من الاستقلال الفكرى الذى لم أكن أجرو عليه فى عام ١٩٢٧ .

والعالم المتمدد أسعد حالا وأهناً فى عيشه بما حظى من التوجيه السيكلوجى الجديد على يد فرويد وتلاميذه . فإن فرويد حرر الأطفال من القسوة والخوف وأبرز القيمة الكبرى للحياة الطفلية الهانئة فى مستقبل العمر أيام الشباب والكهولة ، لأنه أوضح لنا كيف تعيش المركبات وكيف تنشأ الصعوبات التى ربما تؤدى إلى خيبة الشاب أو الفتاة أو إلى انتحار أحدهما بسبب الأخطاء التى تعرضنا لها أيام طفولتيهما ضما من أحد الأبوين . كما أنه أوضح لنا فداحة النتائج التى تنشأ من الكظم الجنسية . وقد عاد كثيرون من ذهب وجدانهم وضمحل تعقلهم لتغلب العقل

الكامن عليهم ، عادوا من ظلام الجنون إلى نور العقل بفضل التحليل النفسى .  
ولأنه لما يؤلم جميع الذين انتفعوا بعمقيرة هذا السيكاوجى العظيم أن  
يعرفوا أنه لم يستمتع بثنى من الرخاء الذى كان يمكن أن يخفف عنه الشيوخوخة .  
فإنه عقب الحرب الكبرى الأولى خسر جميع ما ادخره من المال بسبب  
التضخم فى النقد . وفى الحرب الكبرى الثانية طارده النازية حتى مات  
فى لندن بعيداً عن بيته ومدينته .

وراثتنا من فرويد هو « التحليل النفسى » وهو لا يمكن أن يموت  
وقصارى ما سوف يحدث أن تتغير الأسماء والعبارات ، لأن صميم التحليل  
النفسى هو الانتقال من الفكرة الكامنة المتسلطة بالعاطفة إلى الوجدان ،  
أى إلى الدراية . وحتى مع اتجاه السيكاوجية فى أيامنا إلى التجربة ، وهو  
اتجاه عظيم القيمة جداً ، فإن التحليل سيبقى مفتوحاً للنفس البشرية لفهم  
منه خباياها وتعمق أسسها .

وقد ولد فرويد من أبوين يهوديين فى عام ١٨٥٦ ومات فى عام ١٩٤٠  
منفىاً مطارداً من وطنه فيينا عاصمة النمسا . فإن النازيين الذين استولوا على  
النساء طاردوا اليهود ، وكان فرويد على الرغم من إلحاده معادواً بين اليهود .  
وحفلت عواصم أوروبا فيما بين عامى ١٩٠٠ و ١٩٤٠ بالمناقشات  
الحامية بشأن التحليل النفسى كما حفلت بالانشقاقات والخصومات ، مما دل  
على أن السيكاوجية الفرويدية كانت ولا تزال فى طور المذاهب . ولا  
ينقص هذا من فضل فرويد .

ولما نزل فى هذا الطور لم نستقر . ولكن فرويد كان . كما قلت ،  
بمثابة الحميرة التى بحثت سلسلة من الأفكار لما تنته حلقاتها . وهذا هو  
أكبر فضله فى تربيتى .

## إليوت سميث وأصل الحضارة



حين أتأمل الشخصيات العظيمة التي أثرت في حياتي تغييراً أو توجيهاً ،  
وأبحث القوة الجاذبية التي جلدتني إليها ، أجد أنها ثلاثة طرز :  
فأما الطراز الأول فهو أولئك الذين تتسم حياتهم أو مؤلفاتهم بغلواء  
حين يحمون أو يفكرون على القمة والدروة . فهم نبتش في جنونه المقدس ،  
بخيل حياتهم إلى مغامرة فلسفية ويدعوننا إلى أن ننساخ من رواسب  
الخرافات الماضية ونقول بأنفسنا مصير مستقبلنا . وهم دستوفسكي  
في غلواء الحب الغامر للبشر ، والإحساس الديني الذي تتذبذب به أوتار  
نفسه . وهم غاندي الذي يكافح إمبراطورية سوداء بكلمات عذبة من  
لظهر والشرف فيخجل منه العالم ويسلم باستقلال الهند .  
وأما الطراز الثاني فهو أولئك الذين أعطوني منهجاً للحياة . فهم

حيته الذى عاش طالباً مدى حياته يزيد وجدانه بالتوسع فى الثقافة والزيادة من الاختبارات ويشغل بالسياسة والأدب والعلم والفنون . وهم برناردشو يجعل من أدبه كفاحاً للظلم والاستبداد والدناءة والقبح وهم « ه. ج. ولز » يرفع الصحافة إلى مقام الفلاسفة ، فيدرس شؤون العالم إلى تدين بشرى جديد كأنه إحساس يغمر قلبه وعقله .

وأما الطرار الثالث فهم أولئك الذين أعطوني المعارف الخصبة أو الأفكار الحوامل . مثل فكرة التطور التى أحدثت لى مركبات ثقافية كأنها العقدة النفسية فى المريض تدأب فى تفرع . ولكن مع التسلسل والتستر . ولقد استطاعت هذه الفكرة الداروينية أن تجعل حياتي جميعها استطلاعاً دائماً . وهم فرويد الذى حماني على دراسة العشرات من الكتب ، وهم « إلبوت سيميث » الذى فتح لى من أبواب التاريخ البشرى ما لا أزال أنفذ منه إلى ميادين فسيحة من الفهم والعلم .

هؤلاء علموني . . أكسبوني ، بالحياة الغالية التى عاشوها على القمم إحياءات كأنها صلوات بالقلب . أو أعطوني منهجاً أعيش به عيش الخدمة والكرامة والشرف مع الرضى بالتضحية . أو غرسوا فى ذهني غراساً صالحة تنمو وتتفرع كأنها نبت ينير خلايا المخ ويسطح أنواراً تفسح ظلام الجهل .

\* \* \*

التاريخ هو فى صميمه درس العوامل الجغرافية والاقتصادية التى أثرت وغيرت المجتمعات البشرية التى عاشت فى بقعة معينة من الأرض . وتاريخ مصر هو جغرافيتها ، هو زراعتها التى أوجدت مجتمعاً مستقراً يثبت فى مكانه ثبات الزراعة فى الأرض .

وليس لأمة تاريخ مالم يكن هناك تفاعلات اقتصادية بين الأفراد بحيث تؤدي هذه التفاعلات إلى إيجاد مؤسسات مثل المحاكم والمعابد ونحوهما . أما مادام ليس هناك مؤسسات . كما هي الحال بين الأسكيمو وبين حول القطب الشمالى . فإنه لن يكون هناك تاريخ .

ثم مادام كل فرد يكسب لنفسه وأولاده فقط ، ولا يستطيع أن يريد . فإن المجتمع لن يستطيع أن يدخر مقداراً من المال لإيجاد هذه المؤسسات الاجتماعية التى يحتاج إليها . ولذلك ليس عند الأسكيمو وبين حكومة لأنه ليس هناك فائض من كسب الأفراد يكفى لإيجاد مجموعة المؤسسات التى نسميها حكومة . ولذلك أيضاً ليس لهم تاريخ .

وقد كان الإنسان قديماً يعيش فى الغابات كما لا تزال تعيش القردة العليا . وكان يجمع طعامه ولا ينتجه . والفرق عظيم جداً بين الجمع وبين الإنتاج .

فإن البشر ينتجون طعامهم هذه الأيام ، ولذلك باغوا ٢٣٠ مليون . فى حين أنهم كانوا لا يزيدون على أربعة أو خمسة ملايين حين كانوا يجمعون الطعام من الغابات جمعاً ، أى يلتقطون الثمرة البرية أو يقتلعون الجذور الطرية أو يصيدون الوحش أو يأكلون الحشرات والزواحف وسائر الحيوان .

ولكن ليس الفرق بين الجمع والإنتاج كمية فقط . لأن هذا الفرق هو فى صميمه فاصل بين الإنسان البدائى الساذج الجوال ، وبين الإنسان المتحضر المستقر الذى عرف الزراعة أى عرف الإنتاج . وهذا قيمة إلبوت سميث .

\* \* \*

كان إلبوت سميث أستاذاً للتشريح فى كلية (مدرسة) قصر العيني

قبل نحو أربعين أو خمسين سنة . وقد تعلم على يديه كثير من أطبائنا مثل على إبراهيم وجورجى صبحى وأحمد شفيق . وكانت له هواية إلى جنب الحرفة ، وكان ، كما هو المألوف ، يهتم بهويته وبحرفته . بل انتهى فى آخريات حياته إلى احتراف الهواية .

وهذه الهواية هى تاريخ مصر .

ولكنه لم يكن يدرس تاريخ مصر كى يتعرف على تاريخ مصر وإنما كان يهدف إلى درس تاريخ الحضارة البشرية فى العالم كله عن طريق الدرس لأصول الحضارة المصرية التى انتشرت حول ضفتى النيل فى العشرة آلاف سنة الأخيرة .

واستطاع أن يثبت أن مصر هى أصل الحضارة للعالم كله ، وليس ذلك لأن أسلافنا كانوا أذكى من سائر البشر ، وإنما لأن جغرافية مصر قد تفاعلت مع الإنسان المصرى بما لم يتفاعل أى وسط آخر مع الإنسان ، فكانت النتيجة ظهور الحضارة فى مصر .

وبهذه النظرية نقل إليوت سميث دراسة الحضارة من تعدد الأصول إلى وحدته ، كما سبق أن فعل داروين حين رد الأحياء إلى أصل واحد وأصبحنا نتتبع تطور الحضارة وتنقلها من قطر إلى آخر عن سهيل الكلمات والآثار والعادات الفرعونية .

ولهذا رأى الجليد مدرسة يعد تلاميذها بالألوف ، ولا تقل المؤلفات فى تأييد هذا رأى عن ثلثمائة كتاب فى لغات مختلفة .

وقد كانت مؤلفات إليوت سميث عندى انبلاجاً ذهنياً قادنى إلى دراسات مختلفة ، كما أثمر مركبات ثقافية ما زلت فى اشتباكتها . وقد ألفت كتابى : « مصر أصل الحضارة » وأنا فى غبطة الفرح بهذا الفهم الجليد للعالم والبشر .

ولا يعدل هذه الغبطة عندى سوى اهتدائى إلى نظرية « التفسير لاقتصادى للتاريخ ». وهى النظرية التى جعلت التاريخ علماً يقاس بهورن . وليس روايات لذيدة أو مصادفات غير معللة . ولحق أن نظرية الأصل المصرى للتاريخ البشرى كله نستند فى أساسها إلى العوامل الاقتصادية ، وأهمها هذا النيل الذى يروى الوادى فينتج الزرع .

“ \* \*

وبؤرة البحث عند إليوت سميث تنحصر فى أن الإنسان البدائى الذى كان يجمع الطعام جمعاً من الغابات رأى فى مصر على توالى السنين أن فيضان النيل يعم الوادى فى مواعيد معينة كل عام ، حتى إذا انحسر انطلقت النباتات وكست الأرض بالحضرة النضرة التى كان يجد فيها طعاماً كما كان يجد فيها صيداً لوفرة الحياة الحيوانية . ففهم بالتكرار أن الماء هو أصل الحيوية ، وهو أصل النبات ، فشرع يحتجز الماء هنا ويطلقه هناك . وينسبط الرى . وهذه هى الهندسة الأولى .

وظهر عندئذ التخصص : مهندسون ينظمون الرى وفلكيون يعينون الأوقات الزراعية . وهؤلاء لا يزرعون وإنما يعيشون بالفائض من المحصول . وهنا تنشأ الحكومة التى يرأسها مهندس أو فاكى تنسب إليه صفات الألوهية لأنه يدرى ما لا يدرى غيره من الهندسة أو الفلك . وهو يعيش كأنه ملك بل ملك بطاع . فإذا مات أصبح قبره معبداً ، كما نرى فى عصرنا كيف يميز العامة الممتازين بأضرحة يتبركون بها ويزورونها .

• وأرض مزروعة تحتاج إلى حدود تحترم من الجيران ، وإلى أوصاف تعين للزراعة . وإلى محكمة تعاقب المعتدى على الحدود أو المحصول ، وإلى صناعات يصنعون الآلات الزراعية . وكل هؤلاء لا يزرعون . فنشأ من ذلك الحكومة والتجارة والفنون . وهذه هى الحضارة .

ثم يموت العظماء فتنشأ الأضرحة العظيمة التي تستحيل إلى معابد .  
وهذا هو الدين البدائي .

وينبأ ألا ننسى هنا أن كلمات القمح والبر والحنطة هي جميعاً  
فرعونية وذلك لأن أسلافنا هم الذين زرعوها لأول مرة في التاريخ وعينوا  
أسماءها . ولعله كانت هناك فروق بين بدور القمح أدت إلى تعدد  
هذه الأسماء .

والزراعة هي الأساس الأول الذي نبتت عليه الحضارة الأولى .  
أما قبل الزراعة فلم يكن هناك غير التجوال للبشر ، بلا ثقافة غير  
المعارف القليلة الخاصة بالصيد والتقاط الثمار واقتلاع الجذور .  
فالزراعة أوجدت الاستقرار بدلا من التجوال ، وبسطت الآفاق  
لثقافة الفنون والعلوم ونظام الحكم .

“ \* \* ”

وإلى هذا نفهم كيف نشأت الحضارة الأولى في مصر . وبقي علينا  
أن نعرف كيف خرجت من مصر إلى سائر العالم .  
وقد استطاع إليوت سميث أن يكشف لنا عن أسرار النفس البشرية ،  
أو بالأحرى يبتدى إليها عن طريق البحث في انتقال الحضارة المصرية  
الأولى إلى أقطار العالم المختلفة .

فهو يوضح لنا أن غابة الإنسان البدائي أن يطيل عمره وأن يتقن  
الموت . ونحن نعرف من التحنيط أن المصري القديم كان يعتقد في  
سداجة أنه . اداامت الجثة قد حنطت واستحالت إلى مومياء متقنة فإن  
الحياة ستمتد بها في العالم الآخر .

وكان التحنيط يحتاج إلى بعض المواد النباتية والمعدنية من الأقطار  
البعيدة ، وهذه المواد كانت تقف الفساد في الجثة كما تكسيها عطرأ حسناً .



وتنتقل المصريون في جلب هذه المواد ونقلوا معهم حضارتهم إلى أقطار بعيدة ، وخاصة عندما نعرف أن بعض البعثات المصرية كان ينقطع بها الطريق فلا تعود بل تبقى في قطر ناء بين شعب غريب بدائي لا يعرف الزراعة فتنقل هذه البعثة إلى هذا الشعب الفنون المصرية ، وتعيش هناك إلى الأبد . ومن هنا نعرف لماذا وجد تمثال الرب آمون في روسيا بالقرب من جبال أورال . ولماذا عبد رب الشمس في مكسيكا ، كما عبد في مصر ، من حيث إحاطته بالثعبان . ولماذا حنطت الجثة في أمريكا على الطريقة المصرية . ولماذا وجدت الأهرام في إيطاليا والسودان . ولماذا توجد في اللغة الفنلندية كلمات فرعونية . ولماذا ترجع أبجدية الخطوط في جميع اللغات إلى الهيروغليفيّة المصرية . ولماذا يعمم التقويم المصرى (الشهور والأيام ) أوروبا بل العالم كله إلى الآن ، ولماذا بنيت المعابد وذكرت الأساطير على الطريقة المصرية . بل لماذا يوصف إمبراطور اليابان بوصف الفراعنة ، ابن الشمس ، أى ابن رع . وأخيراً لماذا تكون الحبوب الأولى التى يأكلها الإنسان ولا يزال يأكلها مصرية الاسم كما سبق أن ذكرتها وهى : قمح ، بر ، حنطة .

وفى مصر يسمى الأقباط أسقفهم أحياناً باسم إيسدوروس . وفى أوروبا تسمى المرأة باسم إيسيدورا . ومعنى الاسمين « عبد إيسيس » أى الربة إيسيس . وكهنة مصر الآن هم ورثة الكهنة أيام الفراعنة . وكانت شارة الكاهن المصرى القديم ذلك الثعبان الذى كان يحيط بالرب رع . وهو — أى الثعبان — لا يزال شارة الأسقف القبطى . وهو يرى على رأس عصاه إلى الآن .

ولكن لما كان الكاهن المصرى طبيباً وساحراً أيضاً ، فإن الثعبان هو الآن شارة الطبيب فى أوروبا . وفى اللغة العربية لا يزال معنى الطب هو : السحر : الكهانة .

بل هناك إشارات صغيرة تادل على تسلسل الثقافة الفرعونية من منف وطيبة إلى باريس ولندن . اعتبر قول الأوربيين « يوم أحمر أو ليلة حمراء » للدلالة على أوقات السرور والقصف والاحتفال . ونحن نقول في مصر « ليله حمراء » في هذه المعاني أيضاً . والأصل هو عادة أسلافنا في كتابة أيام الأعياد بمداد أحمر . والعيد قصف وطو .

هذه الثقافة المصرية القديمة التي تفتت في العالم القديم لم يكن من الضروري أن يكون القائمون بها مصريين ، لأن البعثة المصرية التي وصات إلى الصين مثلاً حيث تركت التمساح وجعلت تمثاله شعاراً للصينيين ليست هي التي ذهبت إلى أمريكا وأوجدت التحنيط وعبادة الشمس التي تحيط بها هالة اللعنان . لأن هذه البعثة التي ذهبت إلى أمريكا كانت في الأغلب هندية أو صينية أو جاوية قد تأثر أفرادها بالثقافة المصرية .

وأذكر البقرة هاتور المصرية ، وأذكر تقديس البقرة في الهند . وأذكر أيضاً ملوك إفريقيا المتوحشين ، وكيف يضربون الجهات الأربع بالقوس كما كان يفعل الفراعنة عندما كانوا يتولون العرش رهزاً إلى الاستيلاء على العالم .

بل أذكر أيضاً دعوى الحق الإلهي للملك أوربا ، وهي الدعوى التي كافحتها الشعوب الديمقراطية . ولانس دعوى الألوهية عند الفراعنة . بل هناك ما يرجع أن معظم الأسر المالكة في العالم يرجع إلى أصل فرعونى . وذلك لأن كل بعثة كانت تخرج من مصر جلب المواد والطيب للحنيط كان يرأسها أحد أفراد أسرة فرعون ، فإذا لم ترجع البعثة صار هذا الفرد ملكاً على البقعة التي كانت تحتلها بعثته حتى إذا استقر العرش الجديد خرجت بعثة أخرى . إلخ .

ولم يكن التحنيط الباعث الوحيد لهجرة المصريين إلى الأقطار

البعيدة . فإن الإنسان المصرى الذى كان يرغب فى بقاء حياته بالتحنيط ، كان أيضاً يحب أن يطول عمره على الأرض قبل التحنيط . فكان يجمع الودع ويحمله للمشابهة العظيمة بين الودعة وبين عضو التناسل فى المرأة ، ذلك أنه كان يعتقد أن هذا العضو هو أصل الحياة ، ومن هنا هذا الاشتقاق العربى وهو « الحياة من الحيا » أى عضو التناسل فى الأنثى . ثم صار أيضاً يجلب الذهب ويصوغه ودعاً لجماله . ثم نقل ميزة الودعة إلى الذهب . فصار الذهب يطلب لذاته لأنه يطيل الحياة مثل الودعة ، بل صار الذهب لكسيرة الحياة .

الذهب حجر الفلاسفة ، الذهب أصل النقود ، كل هذا من الاعتقاد المصرى القديم بأنه ، أى الذهب ، يطيل العمر .

ثم أذكر بعد ذلك الكيمياء التى نشأت من الرغبة فى إحالة المعادن إلى ذهب . بل ماذا أقول : إن كلمة كيمياء نفسها مصرية وهى خيمى أو كيمى ، أى مصر ، أى الأرض السوداء . والكيمياء هى « العلم المصرى » .

وبعد الذهب صار الإنسان المصرى يجلب الأحجار الكريمة اعتقاداً بأنها تطيل العمر . وما زلنا فى مصر نشق العين العملية بتعليق حجر عليها أو فوقها . . . وما زلنا ننشد البخت بضرب الودع ، وكلمة « المرجان » تنطوى على معنى الحياة الطويلة فى الفارسية .

وإطالة أعمارنا على الأرض بالذهب والأحجار الكريمة ، وإطالة أعمارنا بعد الموت بالتحنيط ، كلتاهما دفعت الإنسان المصرى إلى الهجرة إلى الأقطار النائية . فتفتشت الحضارة المصرية بهذه الهجرة فى أنحاء العالم وأخرجت الإنسان من التوحش وجمع الطعام من الغابات إلى التمدن وإنتاج الطعام بالزراعة . والزراعة أوجدت الحكومة ، والدين ، والفلك ، والحساب ، والهندسة ، والبناء ، والقانون .

نشأ الدين البدائي في مصر وكانت غايته استبقاء الحياة بعد الموت بتحنيط الجثة . فإذا كان الميت عظيماً صار لهياً بعد موته . فلما عرفت الزراعة أصبح للدين مهمة أخرى هي إخصاب الأرض وإنتاج المحاصيل . وإلى عصر الإسكندر بقي هذا التفكير البدائي حتى إن كهنة مصر قد حالوا الإسكندر إلى إله . وقرن آمون لا يزال منقوشاً على النقود الإغريقية الباقى من أيامه . ولا يزال الكهنة يباركون على الزراعة في أوربا إلى الآن . ومن الممارسات الدينية الباقية نعرف الكثير من نشأة الدين المصري القديم . فإن البخور كان يطلق على تمثال الميت كي يكسبه رطوبة وعرقاً كأن الحياة قد عادت إليه .

وقد نشأت الفنون من هذه الثقافة الدينية القديمة . فإن التمثال صنع أولاً كي تلتجأ إليه الروح إذا كان الجسم قد فسد . والرسوم التي تروى لنا حياة الميت قد احتاجت إلى الرسامين والمعبد ، وهو في الأصل الضريح الذى احتاج أيضاً إلى البنائين والتحاتين .

وجميع الفنون الحديثة ترجع إلى بؤرة مفردة هي الضريح المصري ومركباته السيكلوجية . ورسم الميزان للعالم الآخر مألوف لا يخلو منه معبد ، وهو يعين الجثة التي تحوى الشجر والثمر للبررة ، كما يعين جهنم التي تحوى النار للفجرة . ومن هنا ظهر معنى العدل .

بل إن تحنيط الميت هو الأصل في توبة الطعام . لأن المملح والطيب والأفاويه التي كان يحتاج إليها الميت صارت تستعمل في الطبخ كي يطيب الطعام ، ومن هنا كان القول العامي المألوف في أيامنا أن الطعام « تحنط » أى متوبل .

ودراسة التاريخ المصري القديم هي دراسة البدايات ، بداية الزراعة وبداية الصناعة ، وبداية الحضارة والثقافة . وإن الغيبيات التي سادت

١٦٣

الأذهان البشرية نحو ستة آلاف سنة لتتكشف واضحة الأسس مفهومة البناء عندما ندرس الضريح المصرى .

\* \* \*

لم أكن أنبث فى دراساتى للفراغة بباعث وطنى ، ولم يكن لفتوحات تختمس ورمسيس وأمثالهما ذلك الوقع الذى يحسه أولئك الذين يستخدمون التاريخ لإشعال الوطنية . بل كذلك لم تكن دراسة التاريخ عندى محض السرد القصصى والتراجم والحروب . وظنى أنه لو لم يكن وراء دراسة الفراغة هذه النظرية القائلة بانتشار الثقافة من بؤرة الضريح المصرى لما كان التفانى يزيد على المطالعة العابرة .

ولكن هذه النظرية كانت تحوى العديد من المركبات الثقافية التى جذبتنى وملتقى على التفتن لأصول الحضارة ، ومن هنا إغراؤها القوى لا استمرار الدراسة . وإحساسى نحو الفراغة هو لذلك بشرى وليس وطنياً .

ولقد قرأت « فخر الضمير » للمؤرخ الأمريكى « بريستد » . وهو يشيد بالأخلاق العالمية للمصريين قبل أربعة أو خمسة آلاف سنة . بل إنه يقارن بين الأخلاق التى دعا إليها موسى فى الوصايا العشر وبين الأخلاق المصرية فيقول بأفضلية هذه على تلك ، ويضرب المثل بأن موسى قد حرم الشهادة بالزور فقط ولكن المصريين قد حرموا الكذب إطلاقاً . والكذب بالطبع يشمل شهادة الزور ، ولكن ليس العكس كذلك .

ولكنى ، أنا المصرى . أحس أنى أبعد ما أكون عن هذا الإحساس . يجب أن ندرس التاريخ بالروح البشرى ، وأن نذكر أنه إذا كانت مصر قد أنشأت الحضارة الأولى فإن الفضل فى ذلك يعود إلى النيل الذى فخر المصرى على أن يتعلم الزراعة لمواظبة فيضانه ولانبساط

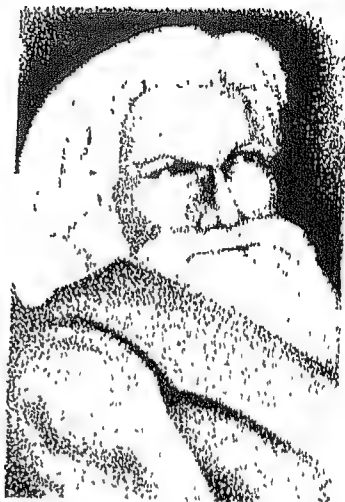
الوادی ، وليس للذكاء فذ في أسلافنا .

\* \* \*

والحصارة عالمية قد أسهم كل شعب بنصيب فيها . وإذا كان للمصريين فضل الاختراع للكتابة فإن للهنود فضل الاختراع للأرقام ، وما كان يمكن أن تكون هناك نهضة علمية لولا هذه الأرقام الهندية . ولولا الإغريق لما انفصلت الحقائق الفنية والعلمية عن « المعارف » الدينية أى ما كان يمكن للمنطق أن يتغلب على العقيدة . ولولا الإمبراطورية الرومانية ثم الإمبراطورية العربية ، لما تعارف الشعوب هذا التعارف الذى انتهى بوجودنا البشرى الحاضر .

ومع أنى قد قرأت في هذه النظرية وارتباطها نحو خمسين أو ستين كتاباً فإننى ما زلت فى اشتباكاتى أترصد مكتشفاتها الجديدة فى جميع أنحاء العالم . وأحس بأواصر الأجيال الماضية التى تربطنا نحن المصريين بكافة البشرية .

## هافلوك إليس والزواج الانفصالي



مات « هافلوك إليس » قبل الحرب الكبرى الثانية ، ووصفته إحدى المجلات الأوربية الكبرى حينئذ بأنه كان أعظم رجل متمدن في أوروبا .  
وأنا أحاول هنا أن أرى للقارئ تاريخ حياته ، ووصف مؤلفاته ،  
كى يستخرج العبرة من هذا الوصف . لأننى أعتقد أن عندنا فى مصر  
من يخالف هذا الرأى ، فيحكم بأن هافلوك لم يكن متمدناً وإنما كان  
متوحشاً . وأنه لم يعيش الحياة الصالحة . وإنما هو أفسد حياته بل حياة  
زوجته . والواقع أن شيئاً من هذا الفساد قد وقع لزوجته . . . ولكن  
ليس هناك ما يدل على أن أسلوب الحياة الذى اتخذه هو الذى أدى إلى  
هذا الفساد ، وإن كان هناك شبهات تبعث على هذا الظن .  
وإذا أنت سألت عن هافلوك إليس فى إحدى المكتبات بالقاهرة عرفت

أنه معروف مشهور بمؤلفاته الجنسية . وهي نحو ستة مجلدات ضخمة هي أدب وعلم وفلسفة ، تحس وأنت تقرأها أن كاتبها رجل فن وعلم وفلسفة . وهو يكتب بأسلوب مكن قد أحكمت عباراته كما نقيت من الزوائد . وهو كثير الإشارة إلى أقوال الفلاسفة من الإغريق القدماء إلى الأمريكيين المحدثين . وهو لا يرتجل الفكرة ولا يلتزم مذهباً . وإنما يزن الآراء ويعرض لها في إسهاب شرحاً ونقداً . ثم ينتهي إلى الخلاصة التي يستقر عليها ويدعو إليها .

وهذه المجلدات الستة عن الشؤون الجنسية هي أروع ما كتب عن هذا الموضوع في لغة من لغات العالم . وإنك لتعجب حين تقرأ له فصلاً واحداً عن البغاء . إذ تدهش لما يروى لك عن تاريخه في الأمم القديمة والحديثة ، وعن قيمته ومكانته من الحضارات المتعاقبة . وعن أقوال القديسين المسيحيين الذين أيده ، وعن القوانين العصرية التي تناولته . وحبذا لو قرأ هذا الفصل ودرسه أولئك الذين عملوا لإلغاء البغاء في مصر ، ولكن نكبة الساسة في مصر أنهم لا يدرسون الكتب الأوروبية المنيرة .

كان هافلوك إليس من الرواد الذين شقوا الطريق وبسطوا الآفاق لهذه الدراسات قبل فرويد . فإن نشاطه العلمي كان في ذروته فيما بين عامي ١٨٩٠ و ١٩٢٠ . وهناك فرق أصيل بينه وبين فرويد ، ذلك أن هافلوك إليس كان يبحث الشؤون الجنسية من حيث إنها نشاط سليم يتصل بالأصحاء من الناس ، ويبحث أثرها في حياة الشبان العزب والمتزوجين وفي الحياة العائلية وتربية الأطفال ومكانتها في الحضارة ، أما فرويد فيبحث النشاط الجنسي من ناحية المرض لا الصحة .

وقد كان فيما بين عامي ١٨٩٠ و ١٨٩١ يرأس تحرير سلسلة من الكتب العلمية التي تتناول المجتمع بالبحث العلمي وتضم مجلدات تبحث



الإجرام وأخرى تبحث المشكلة اليهودية وأخرى تبحث الوراثة . . . إلخ .  
كما أن له مؤلفات يكفي ذكر أسماؤها كى نعرف أن موضوعاتها  
أدبية ، مثل رقص الحياة . وروح أوربا .

وهو فى كل ما يكتب يمتاز بالنضج والإحاطة والنزاهة ، إذ هو  
لا ينتسب إلى حزب أو طائفة ولا يدافع عن مذهب . وإذا نحن اتهمناه  
بالغرض أو بشىء منه فإن هذا الاتهام ينحصر فى إكباره من شأن  
النظرية العلمية ، وهو هنا يعذر فإنه عاش فى أواخر القرن التاسع عشر  
وامند نشاطه إلى الثلث الأول من القرن العشرين . وكان الإيمان  
بالحضارة والرقى يعتمد أكبر الاعتماد على العلم . فإن الأمم الأوروبية  
طوال القرن التاسع عشر كانت على اقتناع بأنها قد اهتدت عن طريق  
العلم إلى مفتاح يفتح لها جميع الأبواب المغلقة ، وأن سعادة الإنسان  
وقوته وصحته وثقافته كلها ترتبط بالعلم .

وقد نشأ طبيباً . ولكنه لم يمارس الطب لأنه قنع بالتأليف وقضى  
معظم حياته وهو فى فقر لم يشك منه . ولكن المتأمل لسيرة حياته التى  
كتبها بنفسه يحس الضيق الذى كان يعانیه . فإنه كان يسكن مسكناً  
وضيقاً ويطبخ طعامه بنفسه ، إذ لم يكن يكسب من قلمه ما يكفى لتناول  
طعامه فى المطاعم أو يمكنه من استخدام خدام . ولكنه فى السنوات  
الأخيرة من عمره تمكن من الاتصال بإحدى الصحف الأمريكية التى  
كانت تستكتبه مقالاً أسبوعياً عن شئون أوربا ، وقد صرح بأن الأجر  
الذى كان يتناوله عن هذه المقالات كان يزيد أضعافاً على ما كان يحصل  
عليه من التأليف والصحافة معاً فى بريطانيا .

ومع أنه قد مات منذ أكثر من عشر سنوات فإن مؤلفاته مازال  
تقرأ وتجد الأنصار والخصوم لحيويتها ، حتى لقد قرأت هذا الأسبوع

إعلاناً عن كتاب جديد ينشر له في الولايات المتحدة ويقول الناشر إنه لم يسبق نشره .

وفي كل ما ذكرنا لانجد شيئاً فذاً أو شاذاً في حياة هافلوك إليس ، إذ هو مؤلف أو صحفي مثل سائر المؤلفين أو الصحفيين . وإن كان يمتاز عنهم بأنه جاد مثابر نزيه مفكر متبصر ، وليست هذه الصفات عامة بين من يؤلفون أو يكتبون للصحف .

ولكن ميزته الأصلية أنه اتخذ أسلوباً معيناً في عيشه لم يتخله غيره . وهذا الأسلوب هو الذي حفزنا إلى كتابة هذا الفصل كي ننبه القارئ المصرى إليه . ولسنا نشك أنه سوف يجد التقبيح والازدراء من تسعين في المائة من القراء كما قد يجد الاستحسان من عدد قليل . ولكن ليس هذا غرضنا . إنما نحن نقصد إلى أن نوضح العوامل التي أدت إلى اتخاذ هذا الأسلوب وتقديره في الحضارة القائمة .

فقد عرف هافلوك إليس فتاة إنجليزية تدعى الآنسة « إديث ليز » قبل نحو ستين سنة . وكانت هذه الفتاة من أولئك الفتيات الجدييدات اللاتي كن يسمين في إنجلترا باسم المرأة الجديدة ، وقد كن منذ عام ١٨٩٠ أو قبل ذلك يدعون دعوات جريئة مثل التعلم الجامعي للمرأة ، ومثل حقوق الانتخاب للمجالس النيابية ، والمساواة الاقتصادية بين الجنسين ، وتولى الوظائف العامة .

وكانت إديث ليز أكثر إيماناً بهذه الحقوق وأكثر إسرافاً في الدعوة إليها ، وكانت سكرتيرة لأحد الأندية النسوية في لندن . وكانت تقول إن البيت على حالته الحاضرة — أى حوالى سنة ١٨٩٠ — هو طاحون تسخر فيه الزوجة فتعمل طول نهارها وبعض ليلها وهي مجاهدة لا يتوافر لها الوقت للراحة أو الاستمتاع الاجتماعي أو الثقافي . وأن

هذا الكلد المستمر في البيت ، من حيث الاشتغال بالطبخ والغسل والكنس ، يمكن الاستغناء عنه بأن نتناول وجباتنا في المطاعم . وأنه يجب على كل امرأة أن تؤدي عملاً اجتماعياً بأن تحترف حرفة تكسب منها كما يفعل الرجال . لأن الاحتراف هو تربية دائمة لها ، وهو يكسبها المال الذي يرفعها إلى كرامة اقتصادية يحسبها الزوج فيحترمه . وهي حين تحترف تحس مسؤوليات كبيرة لم تكن لتحس بها لو أنها كانت قد قنعت بالنشاط المنزلي في الطبخ والغسل والكنس ، وأن الحرفة هي الوسيلة لتكوين الشخصية ، ولن تكون للمرأة شخصية إذا هي قنعت بأعمال البيت .

والحق أن هذه الآراء كانت عامة حوالي سنة ١٨٩٠ ، ولكنها كانت آراء في الهواء ، إذ لم تكن تجد ما يدعمها من النظام الاقتصادي السائد وقتئذ . لأن الرجال كانوا يستوعبون الأعمال ، ولم يكن هناك غير عدد صغير جداً من النساء اللائي كن يعملن ويكسبن .

ويجب أن أقول إن هذه الحال قد تغيرت في أيامنا هذه ، فإن نحو عشرين مليون امرأة يحترفن الحرف التجارية والصناعية والمكتبية كالرجل سواء في الولايات المتحدة . وليس هناك شك في أنهن قد كسبن الشخصية التي أشارت إليها إديث ليز . ولم تحم هذه الحال الجديدة لدعوة نسوية ، وإنما لأن هناك قوات اقتصادية جديدة دعت إليها هي ، قبل كل شيء ، هاتان الحربان الكبيرتان لأنهما لما جندتا للمجوش والمصانع الكثير من الرجال أكرهتا المجتمع الأمريكي ، بل المجتمعات الأوروبية أيضاً على استخدام المرأة في المصانع والمتاجر والمكاتب .

وما زاد هذا الاتجاه قوة أن واجبات المنزل قد اختصرت بالمختصرات الجديدة . فإن الطبخ بالضغط والكهرباء قد جعل تهيئة الطعام عملاً

لا يتجاوز دقائق بينما كان يسغرق الساعات قبل خمسين أو ستين سنة والكنس الكهربائي، وكذلك الغسل الكهربائي، قد أصبحا في ميسور أفقر العائلات الأمريكية والأوروبية الغربية. بل إن التليفون قد أخذ مكان الخادم.

وإذا كانت المرأة الأوروبية أو الأمريكية كانت تجد في المنزل ما يشغلها طوال نهارها قبل خمسين سنة، فهي لا تجد فيه ما يشغلها نصف ساعة في اليوم كله. فهي من ناحية تجد أن الأعمال العامة خارج البيت تنادىها وتقدم لها المرتب الحسن في المتاجر والمصانع والمكاتب، ومن ناحية أخرى لم تعد تجد في البيت ما يغريها بالبقاء فيه أو يضطرها إليه.

فهذا الذي أبصرت به إديث ليز قبل نحو ستين سنة قد تحقق في أيامنا. ولا بد أنها قد بصرت بهذه القوات الاقتصادية التي كانت تعمل في الخفاء، وتسرى في المجتمع، وتنقل المرأة من المنزل إلى المصنع. وهي في دعوتها إنما كانت تعبر عن هذه القوات أو عن بواورها الخفية كما كانت تحسها وتتوقع نموها.

كانت إديث ليز قبل نحو خمسين سنة تعلم بما تم في أيامنا من الوعود الاقتصادية التي حققت استقلال المرأة وكونت شخصيتها.

وكانت آراؤها هذه تغرى أمثال هافلوك لإليس بحجها والتعلق بها وقد تعارفا، وبقيا مدة غير قصيرة وهما يتعاونان في الدراسة وبتبادلا في عطف هذه الآراء التجديدية التقدمية. . . وكانت لندن تحتضر في تلك السنين بآراء تقدمية عديدة.

وتم زواجهما، وهما تبدأ قصتنا أو عبرة القصة التي قصصنا إليها حين قلنا إنه، أي هافلوك لإليس، قد اتخذ أسلوباً معيناً من العيش.

ذلك أننا نفهم من الزواج أنه ارتباط مادي كما هو ارتباط روجي بحيث يعيش الزوجان في منزل مشترك وإن لم يناما في سرير مشترك ، يشتركان في الراحة والنوم ، ويأكلان من مائدة واحدة ، ولهما اقتصاديات منزلية مشتركة .

ولكن هذين الزوجين كانا على بية الابتداع لبدعة جديدة هي الزواج الانفصالي ! فإنهما بعد انقضاء شهر العسل عاد كل منهما إلى منزله ، يتلاقيان بمواعيد ، ويشتركان في سريرهما بمواعيد ، كأنهما عاشقان وليسوا زوجين . ولم يكن هذا الا انفصال يرجع إلى ضعف أو نقص في أحدهما وإنما كان عن مبدء . وهو أن كلا من الزوجين يجب أن يستقل بحياته وحرفته وسكنه وبرنامج يومه لا يفسد عليه ذلك زوجه الآخر .

أو بكلمة أخرى : نحن نرى في الزواج حياة شاملة تحتوي على جميع التفاصيل الأخرى ، في حين كان هذان الزوجان يريان فيه أنه بعض الحياة فقط ، وأنه يجب أن يترك الزوج حراً لا يتدخل الزواج في تفاصيل حياته ولا يشملها إذ هو ، أى الزوج ، إنسان أولاً له طموحه وآماله وحرفته وهوايته وملذاته . وهو يجب أن يجد الحرية كي يمارسها جميعها في خلوة وفي استقلال لا يفسدها عليه الزوج الآخر .

وقد عاشا على هذا الأسلوب أكثر من عشرين سنة يتزاوران كأنهما ضيفان . وفي كل عام يقصدا إلى قرية في الريف أو إلى أية بلدة على الشاطئ للتشبية أو الاصطياف فيقضيان نحو شهر معاً في بيت واحد . حتى إذا عادا إلى لندن استقل كل منهما بمنزله دون الآخر .

وما يذكر أن غريباً لقيهما في القطار فلم يعرف من حديثهما

أنهما زوجان ، إذ كان كل منهما يداعب الآخر ويلطفه أو يناغبه  
وظن أنهما عاشقان .

على أن هذه السعادة « الزوجية » لم تدم . فإن الزوجة أحست هوى  
جنسياً استسلمت له . فأحبت شاباً ، ثم عادت فأحست الخرافاً  
فأحبت فتاة . وفسدت العلاقة الزوجية بسبب ذلك . ولكنهما لم يعمدا  
إلى الطلاق .

وهنا يعمل بعض الفراء هذا الشذوذ الذى وقعت فيه الزوجة بأنه  
كان النتيجة المحتومة لهذا الانفصال .

واعتقادى أن هذا الاستنتاج قد يكون صادقاً . فإن الرجل حين  
يعيش منفرداً معزلاً للمرأة ، وكذلك المرأة حين تعيش منفردة معزلة  
للرجل ، كلاهما يعود عرضة للشذوذ الجنسى . وخاصة إذا كانت هناك  
زعزعة نفسية سابقة كما نستطيع أن نستنتج مما حدث لهذه الزوجة  
المسكينة التى احتاجت - فى فترة من حياتها - أن تلجأ إلى مستشفى  
الأمراض العقلية .

الواقع أننا نجد فى أخلاق هذه الزوجة رعونة وتقليباً لا يدلان على  
عقل رصين متزن . فإنها احترفت الزراعة سنوات ، ثم احترفت النشر ،  
أى نشر الكتب ، وأخفقت فى العملين . وكان من رعونتها هذه أن طلبت  
الانفصال الشرعى ، وهو فى إنجلترا دون الطلاق .

فهل نعمل لإخفاق حياتها بهذا الزواج الانفصالى ، أم نعوذ به إلى أنها  
كانت من الأغصان المزعزة النفس لم تستطع الاستقرار ؟  
أظن أن التعليين مشلولان .

والذى نحسه حين نقرأ سيرة هافلوك ليس بقلمه أن حبه لها قد بقى  
إلى يوم وفاتها . بل هو يقص علينا إحساساته الأليمة حين رآها

تجوز وراء هذا الشاب الجميل ، ثم بعد ذلك حين زاعت بها الشهوة إلى إحدى الفتيات ، ثم هو يصف لنا في مرارة كيف حمل جسمها إلى المرمدة حيث أحرق وكيف حمل اللعاب الرماد وذره في الجهات الأربع في الحديقة .

\* \* \*

والآن نقف كى نتأمل هذا الزى الجديد للزواج أو هذا الأسلوب الجديد للعيش . . . وهما زى وأسلوب يتفشيان هذه السنين الأخيرة في الولايات المتحدة بدرجة خطيرة ، وفي أوروبا الغربية ولكن ليس إلى المدى الذى بلغا ، بين الأمريكيين .

وكان « ليون بلوم » الرئيس الاشتراكى السابق للوزارة الفرنسية يدعو إليه ، ويقول إنه خير الأساليب للعيش ، وعلينا هنا أن نفترض الافتراضات والاحتمالات . فنقول إن خروج المرأة من البيت إلى المجتمع في النصف الأول من هذا القرن كان منتظراً . وقد زادته الحربان الأخيرتان تأكيداً لحاجات المصانع إلى عمل المرأة بدلا من الرجل الذى ذهب إلى ميادين القتال . ثم إن المساواة في التعليم قد جعلت للمرأة كفايات حرفية أهلها للعمل والكسب . وأخيراً لإحالة المنزل من مؤسسة تقوم على العمل اليدوى إلى أخرى تقوم على العمل الكهربائى ، قد جعل بقاء المرأة في المنزل طوال النهار شيئاً غير معقول .

وجميع هذه الاعتبارات قد بلغت ذروتها في الولايات المتحدة لأن المنزل هناك « مكهرب » والمرأة تكسب كالرجل . وكلمة « الشخصية » قد اكتسبت لهذا السبب معناها العصرى للمرأة في أمريكا . والمرأة التى تنشئ تكوين شخصيتها إنما تنشدها بالتعلم والاحتراف والاختلاط بالمجتمع ، وليس بالانزواء في البيت وهى لذلك حين تتزوج تصر

على استبقاء حرفتها ونشاطها الاجتماعي . وتزيد هذا الإصرار قوة بأن  
تطلب بقاءها منفصلة في منزلها وقت الزواج كما كانت أيام عزوبتها .  
وحجتها أن حياتها الخاصة وما جمعت حولها من أصدقاء وكتب  
واهتمامات يجب ألا تنقطع بالزواج . ولكن اشتراكها في منزل زوج  
يؤكلها ثلاث وجبات كل يوم ، ويقحم أصدقاءه على حياتها الخاصة ،  
وربما يعترض على أصدقائها هي ، هذا الاشتراك لا يترك لشخصيتها المجال  
الحيوي كي تنمو وترقى . لذلك يجب أن تعيش حياتها الخاصة بعد الزواج  
كما يعيش هو حياته الخاصة . ووسيلة ذلك أن يعيش كل منهما في منزله  
الذي كان يعيش فيه أيام العزوبة .

وكثير من الأزواج الذين اضطلعلوا بمهام واشتغلوا باهتمامات تزيد  
على مألوف العامة يحسون الوجاهة في هذا المنطق . وليست المرأة وحدها  
هي التي تطلب في أمريكا وأوروبا الغربية هذا الزواج الانفصالي ،  
ولأنما هو للرجل أيضاً حين يرصد نفسه لأهداف اجتماعية يحس أن  
الروابط الزوجية تقيدته وتحول بينه وبين بذل ماله وعمره لتحقيقها .  
فإن رجل العلم أو رجل الأدب ، أو رجل الفن أو السياسة ، كل  
هؤلاء يجدون أن الحياة العائلية بمألوفها وارتباطاتها لا تتفق وما يضطلعون  
به من مسؤوليات جسيمة سواء أكانت لأشخاصهم أم لوطنهم .

\* \* \*

عاش هافلوك إليس نحو عشرين سنة أخرى بعد وفاة زوجته .  
وقد شغفت به بعد ذلك سيدة فرنسية وعاشت معه إلى يوم وفاته منذ  
نحو عشرين سنوات .

وقد قرأت معظم ما ألفه هافلوك إليس . وإن أحسن أنه كان على فهم  
عميق للحضارة الأوروبية ، وأعنى بهذا الفهم العميق أنه كان يصل حاضر



أوروبا بعصر نهضتها فيما بين عام ١٤٥٠ وعام ١٥٥٠ حين شرعت تغير عقائدها وأسلوب معيشتها .

وما زالت أوروبا حتى هذا العام في سبيل هذه النهضة ، تغير عقائدها وأسلوب معيشتها . وهذا الزواج الانفصالي هو بعض تجاربها التي سوف تثبت الأيام أنها حسنة أو سيئة .

والفرق بين أوروبا وأقطار الشرق أن الأولى دائبة في التجارب ، تجدد وسائل عيشها وتغير في مؤسساتها ، أما الشرق فيضني على مؤسساته قدامه تجدد تطوره وتجعل أبنائه يعيشون في عام ١٩٥١ كما لو كانوا يعيشون في عام ٩٥١ أى قبل ألف سنة .

وقد رأى الأوروبيون أن العائلة كانت في الماضي تروى الشخصية ، أما الآن فلأنها تعوق هذه التربية . لأن الإنسان الحديد قد زاد إحساسه الاجتماعي عما كان عليه قبل مائة سنة . فهو في المجتمع بلهنة وجسمه في عصرنا أكثر مما كان من قبل ، لأنه يشترك في السياسة والتطور الاجتماعي . ويشتبك في المشكلات الاجتماعية والاقتصادية .

والعائلة بتأليفها الماضي هي إلى حد ما ضد المجتمع . كما نرى مثلاً في ذلك الرجل العائلي المسرف في التزام بيته ، من مكتبه إلى بيته ، يعيش مع أولاده ، ولا يفكر في غير سعادتهم ، فهو « فاضل » من الناحية العائلية ، ولكن اهتماماته الاجتماعية في هذه الحال ضعيفة .

ونحن نلاحظ أنه عندما يقوى المجتمع ، ويتولى الحكم ، وتكون له الكلمة العليا كما هي الحال في الأمم الديمقراطية ، بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة ، تضعف الروابط العائلية . إذ يكثر الطلاق . وأيضاً يتجه الرجل كما تنجه المرأة إلى نشاط آخر خارج البيت . . ولكن ليس شك أن الرجل الاجتماعي ، وكذلك المرأة الاجتماعية ، كلاهما

يمتاز بشخصية أكبر وأنضج من الرجل العائلي أو المرأة العائلية . وخاصة إذا كان هذا المجتمع حرّاً لا تدوسه حكومة مستبدة ولا تغطي عليه قوات بوليسية تحرمه تطوره وارتقائه .

إننا نحسن حينئذٍ نحو العائلة وما فيها من استمتاعات الطفولة بين الأبوين ، ولكننا ننسى أن الأم في السنين الأولى من العمر هي كل شيء ، وأن قيمة الأب ضئيلة . والزواج الانفصالي ، كما هو شائع في أيامنا في الأمم الغربية ، يجعل التصاق الأم بأطفالها مكفولاً كما كان الشأن قبلاً .

وبالطبع ، هذا الزواج الانفصالي لا يمكن أن ينشأ ، إلا إذا كان الزوجان يريان ضرورته لرفقهما . أما إذا لم يجدا هذه الضرورة فإنهما يعيشان معاً . وأغلب الظن أن هذا الزواج الانفصالي لا يزيد في الوقت الحاضر على واحد في المائة ، أو أكثر أو أقل قليلاً ، في الأمم الغربية التي أشرنا إليها . وذلك لأن هذا الإنسان الجديد الذي ارتقت شخصيته وزاد إحساسه الاجتماعي على إحساسه العائلي لا يمكن أن يزيد على واحد في المائة من السكان في أرقى أمة .

وعبرة « الإحساس الاجتماعي » تعني الاهتمامات المتعددة بالعلم والفلسفة ، والفن ، والاختراع ، والاكتشاف . لأن هذه الاهتمامات تحتاج إلى إرصاد القوى كلها لإتمامها في خلوة واستقلال . وقد كان هافلوك ليس من هذه الناحية إنساناً جديداً . ولكننا لا نستطيع أن نبت برأى في هذه الجدة ، هل هي للسعادة والخير أم للتعاسة والشر ؟

## چورکی والادیب الکافح



فی القرن التاسع عشر ، وخاصة فی نصفه الثاني ، كانت روسيا التي هي الآن جمهورية من جمهوريات الاتحاد السوفییتی ، تنازعها حركتان أدبیتان ، أو الأخرى اجتماعیتان ، إزاء ضغط الثقافة الأوروبية التي كانت تزحف إليها من أوروبا الغربية والتي فتحت لها بطرس الأكبر صدره حين أراد أن ينقل روسيا من الشرق إلى الغرب .

وكان ، إزاء هذا الضغط الزاحف ، تنشيط حركة أخرى يقول دعايتها إن الروس صقالبة لا شأن لهم بالأوروبيين . وإن هؤلاء الصقالبة روحاً وتقاليد وعادات يجب على الروس أن يحافظوا عليها وألا يتلوثوا بالحضارة الأوروبية الفاسدة .

وكان تولستوى ودستوفسكى داعیى هذه الحركة الصقلیة ، كما كان

تورجنيف وجوركى داعبى الاتجاه الأوربى . وكان التصادم الفكرى بينهما كثيراً .

وهذا التصادم قد رأينا مثله فى مصر . ففي الخمسين أو الستين سنة الماضية رأينا دعاة السفور للمرأة ، مثل فاسم أمين ، يتجهون نحو الغرب ويقولون بالأخذ بالحضارة العصرية . كما رأينا دعاة الحجاب ، مثل طلعت حرب ، يقولون بأننا شرقيون لنا تقاليدنا التى تفضل التقاليد الغربية . بل كذلك حدث فى اليابان والصين والهند . ولكن فى جميع هذه المصادمات يتغلب دعاة الحضارة الغربية لسبب مفرد بسيط ، هو أنها ليست غربية . إذ أن وصفها الحقيقى أنها عصرية جديدة ، فى حين أن ما يسمى حضارة شرقية ، أو صقلبية ، إنما هو تلك العادات والتقاليد القديمة التى أثبت الاختبار أنها ليست كفتاً للوقوف فى وجه الحضارة العصرية .

الحضارة العصرية الصناعية منتجة ، توفر المال والقوة للغربيين . أما الحضارة الشرقية الزراعية القديمة فلم تكن منتجة إلى حد الوفرة ، ولذلك يعيا أبناءها فى فقر وضعف يغرى المستعمرين الأوربيين باستغلالهم واستعمار بلادهم .

بقيت هذه المعركة بين دعاة القديم الشرق والجديد الغربى مستمرة إلى عام ١٨٨١ ، حين قتل القيصر إسكندر الثانى . وعندئذ سادت البلاد رجعية سوداء كان من نتائجها أو وسائلها منع المؤلفات اليسارية الأوربية من الدخول فى روسيا واضطهاد المؤلفين الاشتراكيين . وفى مثل هذه الظروف تجرى الدعايات المضطهدة فى الظلام ، وتخمر بأشد وأعنف مما كانت تخمر لو كانت مكشوفة . إذ عندئذ يدخلها العنف الذى لا يتفق والحركات المكشوفة .

ولذلك فشت الجمعيات السرية التى يحدثنا عنها جوركى ، الذى كان

١٧٩

وقتند شاباً حولى العشرين ، يجوس خلال الأفكار ، والناس ويحيا شريداً ينتقل من حرفه إلى حرفه لسد الرمق .

وفى هذا الضغط أو الكبت ، عقب مقتل القيصر ، تبخر الصراع بين دعاة الصقلبية ، أى الشرف ، وبين دعاة الحضارة الغربية . وأخذ مكانه صراع أعمق وأبعد بين الرأسمالية والاشتراكية .

وكانت الرأسمالية بازغة فى روسيا . قد جلبها المستعمرون . أى المستغلون ، من الغربيين الذى ألفوا الشركات لإيجاد المصانع . واشترك معهم الأثرياء من الروس ، الذين آمنوا بالحضارة الغربية والذين وجدوا الظروف ملائمة لاستغلال الثروة المادية ، والبشرية الروسية ، وذلك عقب إلغاء النظام الإقطاعى السابق وتحرير عبيد الأرض ، أى العمال ، الذين لم يكن يسمح لهم من قبل بترك الأرض إلا بإذن المالكين .

واتحد الاشتراكيون والأحرار فى التوجيه السياسى للشعب الروسى ، وحدثت ثورة عام ١٩٠٥ التى كانت فى صميمها مظاهرة أحالها طغيان الحكومة القيصرية إلى مجزرة قتل فيها أكثر من خمسمائة ، غير آلاف الجرحى . وكان يقودها إلى الفشل الكاهن « جابون » الذى دعا المتظاهرين إلى ألا يحملوا السلاح ضد « الأب الصغير » أى القيصر .

ولكن الأب الصغير كان يحمل السلاح هو وآلاف من جنوده . استعملوا جميعهم السلاح لقتل الجماهير المتظاهرة والتى لم تكن تطلب من القيصر أكثر من حكومة دستورية عادلة توفر الخبز والعمل لأبناء الشعب الجائعين .

وهنا نجد مكسيم جوركى لأول مرة يشترك فى هذه الثورة ، ويتعلم منها . وكان أول ما تعلم من دروسها أن عرش القيصرية لن يهدمه

الأحرار ، وأن أحزاب الأحرار لم يعد لها مكان فى القرن العشرين .  
وأن الاشتراكية وحدها تتحمل عبء التغيير المنتظر بإيجاد جمهوريه  
بدلاً من القيصرية .

وقصته العظيمة « الأم » التى ظهرت فى عام ١٩٠٧ هى التعليق على  
ثورة ١٩٠٥ الفاشلة . كما هى إرشاد وإلهام للشباب الثائرين فى روسيا  
حتى لا يخطئوا من النجاح المنشود فى ثورات أخرى .

\*\*\*

ذكرت الصراع بين دعاة الصقلية الشرقيين ، وبين دعاة الحضارة  
العصرية الغربيين . . .

هذا الصراع تغير ، أو تطور ، إلى حركتين جديدتين فيما بين عامى  
١٩٠٠ و ١٩١٤ . فإن الاتجاه الاشتراكى بين المفكرين والأدباء حملهم  
على الانحياز للإنسانية ضد الوطنية .  
« نحن للعالم وللسنا لروسيا . لسنا وطنيين . نحن عالميون » .

هذا كان موقفهم . وكان منطقهم هنا أنه ما دمنا نعمل للاشتراكية  
فيجب ألا تكون هناك فوارق فى الوطن . وإنما نهدف إلى خدمة  
الإنسان مهما يكن . سواء أكان روسياً أم مصرياً أم صينياً أم إنجليزياً .  
فى حين كان خصومهم يقولون روسيا أولاً . نحن وطنيون .

وجاءت الحرب فى عام ١٩١٤ ، فتغلب بالطبع الوطنيون . ولكن  
لفترة قصيرة ، واستحوالت الوطنية إلى نزعة حربية عنيفة ضد ألمانيا .  
وهذا ما كان ينتظر .

ولكن جوركى بقى على ما كان عليه داعية للسلم حتى مدة الحرب .  
داعية للإنسان ، الإنسان العالمى .

\*\*\*

عاش جوركى أربعين سنة وهو يكافح في صدره مرض الدرن ،  
أى السل . وأمضى معظم حياته في جنوب إيطاليا ابتغاء الشمس والدفء  
ولم يستسلم لهذا المرض ، ولم ينم له . بل كان يعمل ، ويخرج في الهواء  
ويمرن عضلاته ، لأنه كان يحس أنه في سياق مع الموت . وعاش ٦٨  
سنة كان يمكن بالطبع أن تكون ٨٠ أو ٩٠ لولا هذا المرض ، ولولا  
ذلك الكفاح الآخر الذى كافح به الفقر والحرمان في صباه كله  
وبعض شبابه .

لقد نشأ جوركى في أسرة من الفقراء الذين جر عليهم الفقر طائفة  
غير صغيرة من الكوارث . فرأى بعينه الإجرام في أعضاء أسرته .  
كما أن الجوع قد حمله على أن يحترف أوضاع الحرف . بل كان احترافه  
لهذه الحرف أقرب إلى التشريد منه إلى الاحتراف . فعمل خبازاً ،  
وبائعاً جوالاً ، وجامعاً للحرق ، وبستانياً ، وبائعاً للأيقونات المقدسة .  
بل إنه احتاج أن يصيد العصافير كى يأكلها ويشبع بها جوعه .

وليس غريباً علينا أن نفهم أن قصته « من الأعماق السفلى » تحتوى  
أشخاصاً يشهدون أو يطابقون أولئك الذين خالطهم في صباه وشبابه .  
بل ليس غريباً علينا أن نفهم أنه قد ألهم الواقعية في الأدب لأن مارآه  
من واقع حياة هؤلاء الناس قد ألهمه هذا المذهب .

لأنما الغريب أن نعرف أنه تغلب على هذا الوسط السيئ فلم يقتد  
بأحد من أولئك المجرمين ، بل رفع نفسه فوق وسطه . فلم يتعود شرب  
الخمور ، ولم يقنع بالبطالة والتشرد ، ولم يقع في جريمة أو فساد آخر .  
ولأنما خرج من هذا الظلام ينشد النور في درس المذاهب واقتناء الكتب  
والتفكير في الإنسانية ، وترقية شخصية . تغلب على وسطه ، وتغلب على  
هذا الميكروب الذى كان يأكل رثتيه مدة أربعين سنة .  
ونحن هنا إزاء رجل نجح في الأدب وأخرج الكتب العظيمة .

ولكنه قبل أن يخرج كتاباً من مطبعة أخرج لنا حياته التي نبتج في تأليفها . وحياته هذه هي خير مؤلفاته . وهي التي تلهبنا أكثر من أى كتاب من كتبه .

ولكن ما هو الحافز في هذه الحياة ؟

\* \* \*

أعتقد أن أعظم نعمة أنعمت بها الأقدار على مكسيم جوركى أنه منذ بداية شبابه ، كما يخبرنا هو عن ذلك في ترجمة حياته ، عرف المذهب الاشتراكي . وكان هذا المذهب جديراً بأن يلصق بقباه أكثر مما يلصق بقلب أى إنسان آخر ، لأنه رأى بعينه ، واختبر بأسلوب عيشه في الفقر والتشريد والصعلة ، أكثر مما كان يرى ويختبر غيره . فكان للاشتراكية الوقع العميق في نفسه .

وهذا الوقع هو الذى نقله من الواقعية إلى الرومانسية . لقد اكتسب الواقعية مما رأى واختبر . فصار ينقل إلينا في أدبه صوراً من الفقر والحرمان ، وما يجران على الفقير المحروم من الانهيار النفسى والتفكك الأخلاقى في بعض الأحيان . كما يبعثان في أحيان أخرى قوة جديدة للتغلب والسيطرة على الوسط .

ولكن هذه الواقعية التي اكتسبها من واقع حياته الأولى استمحات عنده بالمذهب الاشتراكي إلى رومانسية علمية . فصار يرسم لنا الأهداف الجديدة للارتقاء الشخصى ، وأيضاً للارتقاء الشعبى عن طريق العلم الذى يخدم الإنسان ويسخر الطبيعة ويغيرها لتوفير الرفاهية للجميع .

إن بعض الناس يؤمنون بالاشتراكية لأنها عدل ورحمة . ولكن المفكر العلمى يؤمن بها لأنها علم تتفتح لنا أبوابه في النظام الاشتراكي



فقط حين تنطلق الطاقات لجميع أبناء الشعب للإنتاج والاختراع والاكتشاف والثراء والرخاء .

وهذه هي اشتراكية جوركي . وهذا الأمل في تحقيقها هو الذي يجعله يحلم بالسعادة ، ويعود رومانسيًّا يرسم لنا ما سوف نستمتع به بعد تعميم هذا النظام للعالم .

\* \* \*

قبل ثورة عام ١٩٠٥ الفاشلة كان جوركي يؤلف القصص القصيرة التي يعالج فيها أعماق الفقر والبؤس ويبعث فيها بخمائر الثورة . وكان موقفه الاجتماعي من مؤلفاته الفنية هو أن الفقر ساحق عام ، ولكننا نستطيع أن نلغيه بالعلم والاشتراكية . وأن الفقير زرى في معظم أحواله لأنه يحيا في وسط سيئ يحمله على الإجرام والذيلة ، بل يحمله على أن يفر من الجوع والبؤس بالحمر .

ثم رأى بعد الثورة الفاشلة في عام ١٩٠٥ أن هناك يأساً عاماً ، وأن السلطات الروسية قد استأنفت قسوتها وحشيتها ، فألف « الأم » .

ومغزى هذه القصة أن الثائرين يجب ألا يأسوا . وهو يشرح ، كأنه الدليل المرشد ، كيف يجب أن يستعد المتآمرون ، وكيف يعرفون الخائن فيتنقونه ، وكيف يحاربون الجواسيس . وقصة « الأم » من هذه الجهة ليست قصة فقط ، إذ هي قبل كل شيء دليل يوضح أساليب الثورة . وهذا هو المغزى العام منها .

ولكن هناك مغزى آخر يمكن أن نسميه المغزى الشخصي من الثورة . هو أن العامل الفقير ، عندما ييأس يفسد . ويهرب من الحياة بالحمر والذيلة . ولكنه عندما ينهض ، ويحس أنه رجل له آمال في الارتقاء العام وتغيير النظم الاستبدادية ، عند ذلك يعتمد إلى نفسه هو فيرق

شخصيته ويعبر أخلاقه . فيشرع في التعلم ، أو ما نسميه « التثقيف الدائى »  
فما هو أن تمضى عليه سنوات قليلة حتى يكون قد انتقل من العامة المهنية  
إلى الثقافة العالمية . وخاصة إذا كانت هذه الثورة التى ينشدها هى  
النظام الاشتراكى .

\* \* \*

كما أن هناك « عقداً » أو « مركبات » فى الأخلاق تعين لنا سلوكنا  
وأهدافنا . كذلك نحن فى دراستنا وثقافتنا نجد أننا فى أسر هذه العقد  
أو المركبات الذهنية النفسية التى تكسبنا الحوافز وتبعث فىنا النشاط  
للدرس ، وتفتأ تملأنا اهتمامات تكاد تكون هموماً مؤلمة ، لا ذرتاح إلا بعد  
أن نحلها ونفترج من أسرها .

وهنا كلمة عن شخصى أنا من حيث اختباراى للشهوة الثقافية  
والإرشاد للعلوم والآداب . فقد وجدت عقدتين فى حياتى كان لهما كل  
الأثر فى توجيه أبحاثى ودراساتى .

العقدة الأولى هى نظرية التطور التى طرأت على ولما أبلغ السابعة  
عشرة من عمرى .

وكانت مجلة المقتطف تسميها نظرية النشوء والارتقاء . وما هو  
أن عثرت عليها حتى وجدتني فى عاصفة من التفكير والتردد .

هذه النظرية ، هذه العقدة ، جعلتني أبحث الأديان ، وأدرس  
البيولوجية ، أى علم الحياة ، وأقتنى عشرات بل مئات الكتب عن الإنسان  
البدائى ونشأة الحضارات . وأسلوب الحياة عند المتوحشين فى أيامنا ، وثورة  
العلم على التقاليد فى النهضة الأوروبية ، ومعانى التطور الاجتماعى ،  
وتاريخ الأرض ، وأصل الكون ، ومستقبل الإنسان . وأخيراً السيكلوجية ،  
أى علم النفس .

١٨٥

كل هذه الدراسات كانت ، ولا تزال عندى ، تعود إلى العقدة الأولى التى غرستها فى نفسى نظرية التطور . والمهم الذى يجب أن أذكره أنى مازلت فى أسر هذه العقدة . وأن استطلاعاتى الجديدة للثقافة تعود إلى جنودها الأولى حين كانت سنى ١٧ سنة . وهى الأصل فى اتجاهاتى العلمية .

والعقدة الثانية هى الاشتراكية التى طرأت على وأنا حوالى العشرين فى لندن حين التحقت عضواً بالجمعية القابلية ؛ فقد حفزنى هذا المذهب على بحوث واستطلاعات اجتماعية جديدة .

ما هى علة الفقر ؟

ما هو معنى الاستعمار ؟

هل البغاء عند محترفاتهن استهتار أم فقر ؟

هل الجرائم تعود إلى ما يسميه بعضنا « سوء الأخلاق » أم

إلى الفقر ؟

بل كذلك المرض ، يعود إلى عادات سيئة أم إلى قلة التغذية ؟  
إلخ . . إلخ . . ودفعتنى هذه البحوث إلى أن أدرس العناصر التى يتألف منها الغذاء الحسن ، بل إلى أن أدرس طرق الزراعة العلمية والتقمايدية ، وإلى أن أدرس مشكلة السكان . إلخ .

ولكن نظرية التطور ، ثم نظرية الاشتراكية ، زيادة على ما حملتنى كل منهما على الدرس ، حملتنى أيضاً على الآمال البعيدة ، بل أحياناً المسرفة ، فى مستقبل الإنسان القريب بالاشتراكية .

والذى أفهمه من حياة جوركى أنه انبعث بدراسة العلم والاشتراكية إلى الآمال الإنسانية العظيمة التى نصفها بأنها رومانسية .

إننا فى حديثنا العام نفرض على الدوام أن المذهب الاشتراكى مذهب

إنساني بار ، وأن الاشتراكيين يضحون ولا يكسبون منه شيئاً . ولكنني باختباراتي أستطيع أن أكذب هذا الفرض ، وأنا أقول إنني اكتسبت من إيماني بالاشتراكية هذه الدراسات والاستطلاعات التي لا تنقطع ، والتي أحس منها أن ذهني حي ، وأنه في شباب ، ينمو وينضج . وأنني أتفاعل في حياتي بالمستقبل ، ولا أخشاه ، ولا أتشأه .

١٩ ٢٠ ٢١

ولكننا نجد في جوركي شذوذاً ، أو فداذاً عجيبة فيا يخصص بتأثير الوسط على الأخلاق . فإن الوسط الذي نشأ فيه . وسط الأسرة من الحدود والأعمام والأخوال ، هذا الوسط كان هاوية من الحسنة والشراسة والاجرام والرذيلة . وأيما مفكر قد تشبع من الثقافة الاجتماعية ، يقرأ عن هؤلاء الأشخاص الذين نشأ بينهم جوركي ، لا يتألك الإحساس بأنه ، أي هذا الوسط ، كان جديراً بأن يخاق منه أعظم مجرم في العالم .

ولكن جوركي كذب هذا المنطق ونشأ أعظم إنسان في العالم . وصحيح أنه كانت له في هذا الوسط جدة بارة أحبته وخدمته . ولكن هل يكفي للنشأة الحميدة أن يكون هناك شخص واحد فاضل بين عشرة من الأرزال ؟

وإذا لم يكن الشأن كذلك فلإلام تعزو هذه النشأة العصامية التي انسمت بها حياة جوركي ؟

كان جوركي عصامياً ، ولكن ليس في جمع المال كما هو المعنى العرفي ، وإنما في تأليف شخصيته وتربية إنسانيته . وليس عندنا من تفسير لهذه الظاهرة الفذة سوى أنه تقلب كثيراً في الحرف والمهن ، ورأى وقارن بين الناس . واستعمل ذكاءه في الفهم والمقارنة وعرف في غضون ذلك المذهب الاشتراكي . واستطاع أن يصوغ حياته وفق خياله . ونحوه

هو الاشتراكية .

وهنا العبرة لكل شاب ، بل لكل فتاة . فإنى لا أكاد أنخيل وسطاً عائلياً أسوأ من الوسط الذى نشأ فيه جوركى . ومع ذلك تغلب على هذا الوسط كما تغلب على مرضه ، السل ، مدة أربعين سنة . وامتلأ آمالاً فى المستقبل الاشتراكى .

\* \* \*

ومع ذلك لا نستطيع أن ننكر تأثير الوسط أو قيمته فى جوركى ، أو بالأحرى فى مؤلفاته . ونحتاج هنا إلى المقارنة بين تولستوى وجوركى . فإن الذى لاشك فيه أن نشأة المؤلف ، ووسطه العائلى والاجتماعى ، يؤثران على موقفه من الدنيا وآرائه وفلسفته واتجاهاته . بل كذلك على أسلوب تعبيره وموضوع تفكيره . ولا يكاد أحداً يتغير ويخالف هذه القاعدة إلا إذا عاش فى وسط اجتماعى آخر يززع عاداته وعقائده السابقة .

فقد نشأ تولستوى على القمة ، فى أسرة يرأسها كونت .

ونشأ جوركى فى الهوة ، فى أسرة أكثر أفرادها من المحرمين .

ولذلك نجد أن تولستوى ، على الرغم من يقظته وبغضه لمعيشة النبلاء ممن يضارعونهم فى الجاه والثراء ، لا يزال يحس إحساسهم . فهو لا يؤمن إيماناً كاملاً بالاشتراكية ، بل لا يؤمن بالحضارة الصناعية . وكل ما نجد فيه أنه إقطاعى رحيم بالفقراء الذين قلما يكتب عنهم ، لأن أبطالهم جميعهم تقريباً من النبلاء أمثاله أو من المتيسرين . والرحمة المسيحية عند علاج المساوى الاجتماعية . وهو يؤمن بالدين ، وإن كان يحقد الكنيسة .

العدل عند تولستوى هو الرحمة . وألا فقاوم الشر مقاومة إيجابية .

ولكن العدل عند جوركي هو الحق . ومذهبه مكافحة الشر بالسيف والنار .

وأبطال جوركي هم أولئك الذين أسقطهم الفقر على الحضيض . ولكنه يعمل على رفعهم بإيقاظهم وإيجاد الوعي الإنسانى فى قلوبهم . نولستوى لم يدع إلى الثورة ، ولكنه أوجد السخط الذى هبأ لها .

وجوركي دعا إلى الثورة . واشترك بنفسه فى ثورة عام ١٩٠٥ . ثم عاد إلى روسيا بعد ثورة عام ١٩١٧ ، وخدمها فى أمانة وحماسة إلى أن مات فى عام ١٩٣٦ .

\* \* \*

إن التصادم عند حوركي ، بين واقع حياته وأمانى نفسه . هو الذى ينعكس أثره فى أدبه . حين يصف لنا رجال قصصه فيصف الإنسان بأنه بليد وخسيس وجاهل وراكذ وأرعن ومغفل .

هذه هى الصفات التى رآها فى الناس ، فى الواقع .

ولكنه يعود فيشب من الواقعية إلى الرومانسية . فيقول لنا على لسان إبليس فى قصة « الأعماق السفلى » :

« الإنسان . ما أعظمها كلمة »

أجل إن الإنسان سينتصر على بلادته وركوده .

واقعية جوركي جاءت من حياته السفلى مع أخواله وأعمامه .

رومانسيته جاءت من آماله ، بعد أن عرف الثائرين الاشتراكيين ، وبعد أن اشترك معهم بعقله وجهده .

كان يعيش فى الظلام الرأسمالى ويؤمل فى النور الاشتراكى .

كان يعيش فى الرق والفاقة ، ويفكر فى الحرية والرفاهية .

إن القبح في الواقع . جمعه . في الخيال . يفكر في الجمال .  
وكان اليأس يبعث فيه الأمل .

كان يخلم وهو في عدودية المجمع الروسى أيام القيصر في سيادة  
الإنسان على الطبيعة وعلى الآلة . وفي فطرة الإنسان ، بعقاه ، على  
محو الحرافات .

• • •

يجب ألا نتعب من تكرار القول بأن الأدب يجب أن يستنبط من  
شخصية « نفساً أدبية » قبل أن يؤلف في الأدب .

يجب أن يكون رجلاً مكافحاً وإنساناً اشتراكياً .

فأين همى عوامل الرجولة والإنسانية في جوركى ؟

لقد صار يتيماً وهو في السنة السابعة من عمره .

وصار عاملاً يكسب عيشه وهو في التاسعة من عمره .

و بعد ثلاث سنوات من العمل المتواصل ، وفي حيرة وتقل من عمل  
إلى آخر ، وفق اختياره ؟

هذه الأعمال كانت بعد ذلك المواد الخام التي صنع منها قصصه .

وفيا بين عامى ١٩٠٤ و ١٩١٣ أسس واشترك في دار نشر تدعى  
« زنانيا » لنشر الأدب الذى يحمل دلالة اجتماعيه . وبقى طيلة حياته بعد  
ذلك يفهم من الأدب أنه وسيلة لتغيير المجتمعات والناس .

وبقى أربعين سنة يكافح مرض السل ( الدرن ) الرئوى .

وفي سنة ١٩٠٨ وصف الشعب في كتابه « الاعتراف » بأنه :  
« خالق الآلهة . خالق المعجزات » . ويقول فيه أيضاً : « إن قوة

الشعب ، حين يسترشد بالإرادة الذكئة ، لا تعرف حدوداً تعوقها عن التقدم » .

هذا الأمل العظيم إنما أحس به بعد الكوارث العظمى التي حباها يتألم من الفقر في صباه . ومن المرض . أربعين سنة . حتى حاول الانتحار والفرار من الدنيا ولكنه خرج من هذا البأس إلى الأمل الواسع ، فأصبح أعظم مرشد للناس يرشدهم إلى طريق الخير الاشتراكي وما زلنا نحن ، بعد وفاته . نسترشد به ونبني ، أو نحاول أن نبني حياتنا على غرار .

\* \* \*

ولد جوركي في عام ١٨٦٨ ومات في عام ١٩٣٦ . ونفهم من هذين التاريخين أنه أمضى ٣٢ سنة في القرن التاسع عشر و ٣٦ سنة في القرن العشرين . ونفهم أيضاً أنه ألف ، قبل الثورة الروسية ، في عام ١٩١٧ ، وبعدها . فكان من دعاة المكافحين المضطهدين ثم كان بعد ذلك من أبناء الموالين .

كان مولده ، فيما كنا نسميه قبل الحرب « نجني نوفجورود » ثم صارت بعد الثورة تسمى باسمه « جوركي » على نهر الشوبلا الذي نجد ذكره يتكرر في مؤلفاته .

وكانت روسيا قد ألغت الرق الإقطاعي . ولكن ذكراه كانت لا تزال عالقة بالأذهان . ورأى جوركي في صباه ناساً كانوا أرقاء . لهم أخلاق إقطاعية في الدرجات السفلى . ولكنه رأى أيضاً بزوغ الحركة الصناعية والرواج التجاري في المدن حيث المصانع والمتاجر .

كانت روسيا في فترة الانتقال تصطبغ فيها الأخلاق الإقطاعية التي تعتمد على الإيمان والتواكل والحفاظة التي تقارب الجمود ، والأخلاق الجديدة ، أخلاق المتجر والمصنع .



وكلمنا ، نحن أبناء القاهرة الذين أمضوا بعض حياتهم فى الريف نعرف الفرق بين الفلاح ، هذا الإنسان القديم ، الذى يخرج علينا بأخلاق الفراعنة ، والذى تغايت عليه الأخلاق الإقطاعية ، ثم هذا الإنسان الجديد ، العامل فى المصنع أو المسجر ، بل أيضاً صاحب المصنع أو صاحب المتجر . هؤلاء جميعاً قد تغلبت عليهم الأخلاق التجارية الصناعية . وهم يعيشون فى المدينة الصناعية المنبهة بينما الفلاحون يعيشون فى القرى النائمة الغائلة .

رأى جوركى القرية التى لم تكد تتخلص من أخلاقها الإقطاعية ، كما رأى المدينة الصناعية . ومع أنه عرف أن مكانه هو المدينة ، هو الحضارة ، هو الصناعة ، هو استقلال الشخصية ، هو التعقل والتساؤل بدلاً من الإيمان والتسليم ؛ فإنه مع ذلك وحده فى المدينة ما يكره وأعظم ما كان يكره هو المتاجر والعقاية التجارية . كان ظهور المصانع نتيجة لإلغاء الإقطاع وكذلك كان ظهور المتاجر .

وهنا تنب إلى أذهاننا كلمة عصامى ، أو الرجل الذى يصنع نفسه ينشأ فقيراً ، ثم لا يزال يجد حتى يجمع الثروة الطائلة . ثم يحصل على لقب ويشيّد كنيسة فى بلدته .

هو رجل متحرر من قيود الإقطاع ، يجد جيوشاً من العمال يختار منهم ويعين الأجور لعمالهم . ويجمع الثروة يعرقهم وجههم .

ونحن نعرف العصاميين فى بلادنا ، ينشأ أحدهم عاملاً يقطع الحجر للبناء أو ينقاه إلى القاهرة . ثم لا يزال يقتر على نفسه حتى يجمع ثمن عربة يجرها حمار أو جواد للنقل . ثم يسرف فى التقتير حتى يشتري عربة نقل كبيرة . ولا تحصى عليه السنوات القليلة حتى يكون مقاولاً

يبني العمارات .

والثروة الضخمة تأتي إليه عدائد بلا عائق . لأنه يستطيع أن يقتطع من الأجور مقداراً يدخره ، ثم يعود « رأس مال »

قبل أكثر من خمسين سنة قرأت كتاباً ترجمه « يعقوب صروف » مؤسس مجلة « المقتطف » عن صمويل سميلز . وكان عنوانه « سر النجاح » . وفي « سر النجاح » هذا قصص متواليه للعمال الذين انقلبوا من الفقر إلى الثراء . كانوا سمالاً فأصبحوا سادة ، يملكون المتاجر أو المصانع ويستخدمون العمال . قصص نهوض رأس المال في القرن التاسع عشر

ولكن صمويل سميلز لم يسأل ، وهو يروي نوارينهم ، كيف جمعوا هذه الثروات ؟ وهل كانوا يجمعونها لو أنهم كانوا يؤدون الأجور الحقة لعمالهم . كما لم يسأل يعقوب صروف هذين السؤالين عندما ترجم الكتاب .

ويشير جوركي إلى هذا الكتاب بالذات ويسخر به . ويعلم كراهته للتاجر الذي أثرى بإذلال العمال وحرمانهم ما كانوا في حاجة إليه من طعام أو مسكن أو كساء .

وفي جميع مؤلفاته تقريباً نجد هذه الكراهة للتاجر والصانع . أتى للرأسمالي ، صاحب المتجر أو صاحب المصنع الذي يثرى بما يكسبه من عرق العمال .

## شو رفیق حیاتی



أحسن ما اقتنيت في حياتي هو ذكرى برناردشو . فقد لقيت حين كانت الحية لا تزال صهبا ، وتحدثت إليه وسمعت خطبه وقرأت مؤلفاته . ولاني لأحسن إحساس أولئك الذين نغبطهم ممن عاصروا أفلاطون أو أرسطوطاليس ، واستمتعوا بحديثهما ، وقرعوا وناقشوا مؤلفاتهما ، ورأوا ضمايرهما الذهنية تنفث في حياتهم .

ولقد عرفته في عام ١٩٠٩ ورافقته إلى سنيه الأخيرة إلى أن مات في الرابعة والتسعين ، وهي أربع وتسعون سنة من الخلود . ولقد درست فلسفته فكان لي منها توجيه وإرشاد .

ولكني لم أنتفع بمؤلفاته قدر ما انتفعت بحياته وفلسفته التي — إلى مدى بعيد — تنبع من حياته أكثر مما تتألف من أفكاره . أو أن حياته

قد اندمغت في أفكاره فعاش عيشاً فلسفياً. ولست أنكر النشوة الذميمة التي كنت أجدها عندما أقرأ له مؤلفاً جديداً ، ولكن الإيحاء الدائم والتنبيه المزعج لأسلوب عيشي واختيار أهدافي ، إنما كانا ينبعان من حياته أكثر من مؤلفاته .

فقد تناول برناردشو حياته كما لو كانت مادة خام ، وجعل يعتملها ويصوغها حتى أخرجها تمثالا جميلا .  
وقد ألف نحو أربعين كتاباً ودرامة ، ولكن أعظم مؤلفاته هو حياته .

وإني ألفت كثيراً إلى المؤلفين من هذه الناحية ، أي كيف ألفوا حياتهم وصاغوها وجعلوها منها بناء جميلا ، كما لو كانوا يرسمون صورة أو ينحتون تمثالا أو يصفون بطلا في قصة أو درامة .  
وإني لأذكر هنا روسو ، وجيته ، وغاندى ، وولتير ، فلان كلا من هؤلاء قد ألفوا الكتب العظيمة ، ولكن أعظم ما ألفوه هو حياتهم .  
ولو أنه طلب إلى أن أولف في ترجمة برناردشو وفلسفته كتاباً يحتوى عشرة مجلدات لوجدت هذا الواجب سهلاً أنهنس به راضياً في شهور . ولكني أجد صعوبة كبرى في كتابة هذا الفصل عنه ، وهى صعوبة الإيجاز والضغط والاختيار .

ويجب أن أبدأ بكتابه الأكبر وهو حياته . فإنه اتبع أسلوباً من العيش يتفق وكلمته :  
« وإنما يكون الإنسان فاضلاً إذا أعطى المجتمع الذى عاش فيه أكثر مما أخذ منه » .

ومعنى هذا أن المجتمع قد كسب بحياته فضائل وأخلاقاً وعلماً وأدباً وحكمة .

وقد نظر إلى جسمه كأنه تحمة غالية . وفهم من الطهارة أكثر مما نفهم ، فجمعها في أمعائه ، إذ رفض أن يجعل جسمه حانة للجثث الحيوانات . والتزم الطعام النباتي ، وعاش ٩٤ عاماً سائماً ، فزهن على أنه كان بصيراً بالغذاء الملائم للتعمير والصحة .

وقد كان التعمير بعض أهدافه ، كما كان بعض فلسفته . فإنه كان يقول إن أعمارنا قصيرة لا تتسع للدرس والعمل والاستمتاع ، ويجب أن نعيش نحو ثلثمائة سنة على سبيل العلاج الوقى لمشكلاتنا الاجتماعية . أما الهدف الأخير فيجب ألا تقل أعمارنا فيه عن ألوف السنين ، لأنه إذا طالت أعمارنا اهتممنا بالدنيا وأصلحناها . أما مدامت أعمارنا قصيرة فإننا نخطف اللذة والمتعة ، ولا نبالي إصلاح هذه الدنيا ، لأننا زائلون منها قريباً .

وقد أحب واشتعل في نفسه طب العشق فلم يطفئه ، ولكنه أبصراً لم يؤججه حتى لا يحترق به . فقد عرف الممثلة « إلين ترى » ، وكانت الروعة في الجمال والحكمة في العيش . وكانت تجمع إلى هذا ذكاء الإحساس . فكان يذهب إليها كل مساء ويراها وهي تمثل ، فإذا كان الصباح التالي كتب إليها خطاباً ينسأى فيه بحبه ويسط لها أعاجيب من إحساسه وذكاؤه في تفتن وحماسه .

ولم يبال أحدهما الآخر . وقد طبعت مراسلاتهما بعد ذلك ، وهي جديرة بأن تكون دليلاً للمحبين الذين يرتفعون بالحب إلى التلت الأعلى من الجسم البشرى .

ولم يحظ بتعليم جامعي ولا مدرسي ، ولكن أوربا الفهيمة عرفت فيه بعد ذلك أسمى نفس بشرية تعيش في عصرنا . ذلك أنه جعل سنى عمره الطويل جميعها سنى دراسة ، ومؤلفاته هي مشكلات اجتماعية قد سلط

عليها جهده ودكاه فدرسها وأخرجها في درامة كوميدية فنية ، نقرأها أو نراها على المسرح فنحس بالضمير الواخذ والعامل الحافز حتى حين نضحك من أشخاصها ووقائعها .

وقد كان المسرح قبله ميداناً للشخصيات ، فأحاله إلى ميدان للأفكار وكان ميداناً للتبدخ بوصف الحياة في القصور أو صلصة السيوف أو الحياة الزوجية الرخيصة ، بايجاد الشخص الثالث بين الزوجين ، فجعله مكاناً للتفطن في معاني الحب والبطولة ، ومعايش الفقراء والمبشوسين ، ومعالجة الطموح الديني ، وتطور الإنسان بعد آلاف السنين .

وكل هذه المشكلات كانت مشكلاته الخاصة التي درسها لأنها بعض تربيته .

عرف برناردشو الفقر والثراء ، وعرف الكفاح في السياسة والفلسفة والعلم والأدب ، وصرخ صرخة فولتير في مأساة دنشواي ، وكشف عن أئوم السياسة الإمبراطورية البريطانية في الحرب الكبرى الأولى . ونال جائزة نوبل فسلمها لجمعية تنمية العلاقات بين أروج وبريطانيا . ودفع ثلاثين ألف جنيه لبناء منازل للعمال . ولم يعرف قط التدخين ، وكان يقطع الخمر إلى ما قبل وفاته بنحو عشر سنوات . وطاف حول الدنيا ، وصادق العظيمين سدني ويب وزوجته . وكانا يرتفعان إلى مستواه في روح البر بالدنيا ، وكانا يمتازان بالدراسة الاقتصادية .

\* \* \*

قبل أن ألتى برنارد شو وجهاً لوجه كنت قد قرأت بعض مؤلفاته ، فوجدت القوة التحريرية فيها تعادل أو تزيد على ما لقيته في فولتير ونيتشه .

ولما التقيت به في الجمعية الفابية في لندن أحسست كأنى إزاء أجمل

رجل في العالم ، فقد كان مهيد القامة أحمر شعر اللحية والرأس . وكان في نعمات صوته صحلة خفيفة محبة ، وكانت كاماته للناساة الإنجليز بشأن دنشواى قد جعلتني أحس كأنه واحد منا نحن المظلومين المضروبين المشنوقين لأنه بكى كما بكينا . ولم أترك له كلمة بعد ذلك لم أقرأها إلى يوم وفاته .

بل إن حبي له قد حماني إلى أن أقتدى به في التزام الطعام النباتي . وبقيت على ذلك سنة كدت أدوت في نهايتها من الهزال ، ولم يكن هزالى بسبب المذهب النباتي وإنما كان لجهلى قيمة البيض واللبن عند النباتيين .

كان برنارد شو بعد نفسه صحفياً قبل كل شيء ، وقد رأينا نحن فيه الفيلسوف العميق والمؤلف المسرحي المبدع والأديب الرصين ، بل أحياناً العالم الذى يستطيع أن يجادل العلميين في أخص نظرياتهم . ولكنه كان يحمل كل هذه الكفاءات بقوله إنها « صحفية » من حيث إنها تتصل بالمشكلات العصرية . والصحفي العالى يجب أن يرتفع في تفسير هذه المشكلات ومعهما إلى المستوى الفلسفى . وأن يكون العلم والأدب بعض شئونه الدراسية .

ولد برناردشو في عام ١٨٥٦ أى قبل افتتاح قناة السويس بثلاث عشرة سنة . وكانت سنة ٢٦ سنة حين وطئت أقدام الإنجليز أرض وطننا ولست أذكر هذين التاريخين ارتباطاً ، ذلك أن الحادث الأول قد أبرز مصر في وجدان الأوروبيين .

وأما الحادث الثانى فقد أبرز للمفكرين من الإنجليز رجال حزب الأحرار ودناءتهم ورياءهم بشأن الحرية التى داسوها في مصر ونفوا زعيمها العظيم إلى سيلان .

وكان من هذا أن فكر بعض الأحرار ، ذلك حرب الأشرار وإنشاء الجمعية الثأرية ، لنسر الدعة الأشرار فيه . وكانت هذه الجمعية التي السحق أنا بها . والتي أجادني ، رقي حاف إلى أوربي متسان ، كانت السبب الأول لإيجاد حرب العمال التي أسندت إليه رئاسة الحكومة البريطانية أكثر من مرة . وكان برنارد شو أحد مؤسسيها وأكبر داعية لنشر الاشتراكية الثأرية . أتى التدرج فيه ، التي تامل وتعالج دون أن نشور وتهدم .

عاش برنارد شو طوال عمره وهو يدعو إلى الاشتراكية ، وقد اتخذ الطرف اليساري منها هذه السنين الأخيرة من عمره . ولكننا على الرغم من أننا نجد أن نظرياته ثورية فإن خططه كانت عمالية . وهو لذلك يعنى أكبر العناية بالبحث في مسائل المجالس البلدية التي نجد فيها بؤرة العمل الاشتراكي .

وهو أفلاطوني الذهن حين يتحدث عن العمال ، إذ يستصغر شأنهم ويقول بإنجاد صفوه معينة لمعالجة المسألة . وكأنه هنا فاشي يتحدث ، كما كان يتحدث مؤسولني . ولكن فقرات اليأس هذه فلبانة عنده ، وسرعان ما كان يهبط منها إلى الاعتماد على الشعب .

وهو بالطبع عاود الاستمرار وعادو الاستغلال ، ويقول بالأهم ومؤلفاته ، رسائل وكتبا عن الاشتراكية ، عايدته وهي نسيم يسبحها بأها شعبية وإيضاحية .

واختصاص برنارد شو الأدبي هو التأليف المسرحي . وهو يصنع لكل درامة أو كوميديا مقدمة فهد تزيد أحيانا على مائة صفحة ، يوضح فيها وجهته الفلسفية التي حملته على تأليف هذه المسرحية . بل هو أحيانا يزيد على المقدمة بملحق يبرر أو يشرح فيه بعض ما احتاج إلى إيضاحه



على لسان أحد الممثلين . ومن هنا نقرأ الدراما أو الكوميديا كأنها كتاب مستقل زيادة على قيمتها المسرحية .

وأسابوب برناردشو هو الأسلوب العصري ، أى الأسلوب الديمقراطي . فهو يكتب للشعب باقة الشعب ، وهو لا يعرف التمدح أو النطرف فضلاً عن التهرج . ونحن نقرأه كما لو كنا نقرأ مؤلفاً فى الدين أو الفلسفة أو التاريخ . ومترجمه ، أى مرد جنوده فى المسرح ، هو « هنريك إبسن » الذى جعل الدراما الأوروبية اجتماعية . وقد ألف برناردشو فى نهاية حياته الأدبية كتباً فى الدفاع عن إبسن ، ولكن إبسن كان فناناً مسرحياً قبل أن يكون باحثاً اجتماعياً .

أما برناردشو فمعكس ذلك إذ هو ناقد اجتماعى قبل كل شئ . وهو يستعمل المسرح وسيله لشرح المشكلات الاجتماعية ، وليس هو مع ذلك الوسيلة الوحيدة .

وقد بحث الدين ومستقبل الإنسان ، والحب والحكومة والبقاء والفلسفة ، فى نحو ثلاثين أو أربعين مسرحية . ومعظم مسرحياته كوميديات فاد طعم فيها التفكير الاجتماعى بالفكاهة .

وقد تجددت المسارح الأوروبية بهذا الاتجاه الجديد الذى ابتدعه هنريك إبسن ، ودعمه برناردشو . فالدراما الأوروبية واقعية ، تتجابه الحقائق وتعالج المشكلات ، وليس رومانسية خيالية تعيش فى الأحلام والأمل .

» « «

الكلام عن فلسفة برناردشو يحتوى أيضاً بحث ديانته وأدبه وفنه . لأنه يعالجها جميعها بالروح الدينية . وقد ولد قبل أن يظهر كتاب داروين « أصل الأنواع » بثلاث سنوات ، ورأى واشتبهك فى المعارك النفاوية

حول هذا الموضوع . ورأى الصدمة التي أحدثتها العقيدة الجديدة ، وهي أن الإنسان والحيوان من أصل واحد .

وعندما نقرأ درامته الكبرى « الإنسان والسوبرمان » نحس أن هذا الكتاب هو الامتداد لكتاب أصل الأنواع ، كما هو إيمان ديني جديد يدعو إليه برناردشو خلاصته أن ارتقاء الحضارة في المسكن والملبس والتنقل ليس ارتقاء للإنسان ، وإنما الارتقاء الصحيح هو أن يطول عمره إلى ألف سنة ويزيد منه إلى كيلوجرامين . وأن يكون حصيناً من الأمراض منذ ولادته إلى يوم وفاته . وهذا هو السوبرمان الذي يجب أن يستولد من الإنسان بالانتخاب الحكومي ، بحيث يكون منا كما نحن من القردة . أعلى في سلم التطور ، وأذكى ذهنًا ، وأسلم غرائز .

وقد اصطلم برنارد شو مع الداروينيين من حيث إيمانه بأن الصفات المكتسبة تورث ، وأن الوراثة ليست جامدة كما اعتقد فيسيمان . وفي السنة الماضية عندما احتدم النقاش بشأن هذا الموضوع بين ليسنكو الذي دافع عن وراثة الصفات المكتسبة ، وبين القائلين بأنها لا تورث ، وأن الوسط لا يؤثر في تغيير العناصر الوراثية ، وقف برناردشو إلى صف ليسنكو أو قل إلى صف لامارك قبيل مائتي سنة . وديانة شو كما نفهمها من مؤلفاته ومن حياته أيضاً هي الديانة البشرية التي تنأى عن الغيبيات ، فإن درامته عن المسيحية « أندروكليس والأسد » حملنا على الاعتقاد بأنه لا يختلف عن رينان في بشرية المسيح ، وأن الله كائن في الإنسان ، ولكن إله برنارد شو هو قوة الحياة التي تقف خلف التطور ، وتعمل للارتقاء ، وتسير مكافحة نحو النور والحب . وإلى هنا تقف « غيبياته » ، غيبيات لا ترضى المؤمن ولا تقنع الملحد ، وهي أقرب الأشياء إلى برجسون . وعندى أنها بعض روايب القرن التاسع عشر التي علفت به هو وبرجسون ، كما تعلق أساليب الطفولة بالرجل الناضج . وهو يقول : « إنسان بلا دين

هو إنسان بلا شرف » وهذه عبارة ساسية قد استنتجها من حياته إذ هو لم يؤلف قط كتاباً أو رسالة إلا بروح الدين ، أى بروح المسئولية أمام المجتمع . بل ماذا أقول ؟ أمام البشر والأحياء والتطور . ومن هذه العبارة أيضاً نفهم أن نظرتهم للدين اجتماعية أخلاقية .

ومهمة الفلسفة هى فى النهاية إيجاد النظريات . والجاهل يحتقر النظريات ، ويزعم أنه عملى . ولكن ليس هناك من الأشياء العملية ما هو أفضل من النظرية الحسنة ، لأننا نفتقد بها ، ونستغنى بها عن كثير من الجهود العاث .

وكلاهما ، برناردشو وبول سارتر ، يقول بجرية التمرد من حيث حقه فى أن يعمل كما يشاء . ولكن الهدف يختلف بينهما . فإن برناردشو يرغب من هذه الحرية خير المجتمع ، من حيث إن حرية الإنسان تسير به نحو الخير إذا أدى الخير ، ونحو الهلاك إذا قدم الشر . فالمجتمع كاسب من هذه الحرية . دعوا السكير والنهم والمستهتر والمجرم يمارس كل منهم حرته ، لأنها فى النهاية ستقضى عليه بالهلاك فينتفع المجتمع . ولكن بول سارتر يقول فى حصة فلسفية ليس لها نظير : « أنا وحدى » وعلى المجتمع السلام

وبرناردشو مثل ولز ، ينظر النظرة البيولوجية للإنسان فيقول بضرورة التطور . أجل . إن التطور هو الديانة الأصلية عند شو .

مات برنارد شو وكان أجمل الأساطير فى حياته . ولقد رافقته وتعلمت منه ، وحاولت أن أقتدى به ، فكنت أصغر أحياناً وأقصر أحياناً . ولقد حرصنا بالقدوة والعمل على أن نمارس الأدب لخدمة الجمهور ، وبعض هذه الخدمة أن نجعل ساستنا وقادتنا متمدينين مستنيرين . وهذا هو ما حاولت ، ولكنى للأسف لم أنجح . ولقد أوصى بأن يحرق جثمانه فى المرمدة . وقد أحرقت زوجته

فيها من قبل ، كما أحرق جثمانا صابغته ولم وروحيته . وهذا الاحترار هو طهارة أخرى مارسها شو في مؤنه كما مارس البابا في حياته

" " "

مما يستحق الملاحظة أن الأمم العربية جميعها فهمت النهضة على أنها التحرر من الأجنبي المستعمر ومن الوثائق المنهكة . فطالبت بالاستقلال والديمقور ، واعتقدت أن كل شيء من أذانبها قد تم . ولكن الأمم الأوروبية فهمت النهضة أو النهضة المنوالة فيها على أنها قبل كل شيء تحرير الضمير البشري . فمصلحت الدين من الأولى ، وكافحت التقاليد ، وتمردت على سلطته البابا ، وألغتها واعتنقت العلوم ، ومارست الفنون التي تعمل للتشوير الذهني والمعاداة البشرية . وهذا عالم نفكر فيه الأمم العربية إلى الآن مع أنها تحمل من أعباء الظلام ما يرهق الضمائر ويسود العقول .

والهاضمون في أوروبا هم عامةؤها وأدباؤها ولسوا ساستها . وهم جاليانو الذي خالف الكنيسة وأثبت أن الأرض ناوور حول الشمس . هم لوثر الذي انفصل من البابا وترجم الكتاب المقدس . هم دافنشي الذي قال بأن الجبال كانت البحار تغمرها . هم داروين الذي أرجع الإنسان والحيوان إلى أصل واحد . هم رينان الذي قال بشرية المسيح . هم لبسن الذي رفع المرأة من الأنثوية إلى الإنسانية .

هؤلاء هم الهاضمون الذين غيروا أوروبا ، ورناردشو واحد منهم فإنه بأسلوب عيشه ومؤلفاته المسرحية دعانا إلى حياة الطهر وكافحة السفاق الاجتماعي . وكانت مهمته تحرير الضمير البشري من الخرافات والتقاليد والحبس الفكري ، وبعث الآمال في مستقبل البشر على هذه الأرض . وصحيح أنه كافح قوات الظلام التي يمثلها الاستعمار

والاستبداد ، ولكنه كاهج أبضاً ، وبقوة أكبر ، قواب الظلام التي  
تمثلها التقاليد وموروث العوائد الغريبة .

ولو فهمنا نحن المصريين دلالة النهضة الأوروبية وعما لنا لنحرير  
ضميرنا ، لكان لنا إلى جنب الحرية السياسية حرية أخرى أكفل  
للسعادة وأعمل لتكوين الشخصية . ولكان لنا منها موقف آخر حيال  
المشكلات الاقتصادية والأخلاقية والثقافية . وفي هذه الحال ما كان  
المستما ، أن يمس عقولنا بقوانين محد من حرية الصحافة ، أو يسلط  
علينا بوليس الأفكار ، كي يعين لنا ما يحوز وما لا يجوز أن نفكر فيه  
ونكتب عنه .

أجل . إننا ما زلنا بعيدين عن دلالة النهضة الأوروبية .

\*\*\*

ليس من الصديق أن أرعم أنى اقتديت برنارد شو فإنه رفع نفسه  
إلى مستوى عال من « العبث الساذج مع التفكير السامى » وعاون على  
ذلك وسعاً متمدن لم أجده أنا مثله إلى يوم خلع فاروق من مصر حيث  
يكافأ الرذل على رذيلته ويعاقب الفاضل على فضله . والأصل في هذه  
الحال المعكوسة هو الإنجليز من ناحية والتقاليد الشرقية من أخرى .

واكنى حاولت ، وكررت المحاولات ، ولم أتعب ولم أسأم . وخير  
ما أخذت عن برنارد شو هو هذا الروح العلمى الذى يسود مؤلفاتى  
فإنى مثله علمى الذهن أدبى الوسيلة فلسفى الهدف . أمتاز بالتفكير العلمى  
والتعبير الأدبى . وهذا إلى أنه حبيب إلى الاشتراكية ونقلها عندى من  
مطلق العقل إلى عاطفة القلب . أجل . إنه جعلها ديانى العملية . فابس  
البر عندى إحساناً وصدقة ، وإنما هو البرنامج الاشتراكى الذى يوفر

لكافة الشعب طعام الجسم وغذاء الذهن وحرية الضمير والإقدام على المستقبل .

وهو ، بعد داروين ، الذى جعلنى أستمسك بالتطور وأجعل منه الديانة المذهبية لحياتى وفكرى وموقفى البشرى . وقد كان هو يقول بالحاجة إلى « وزارة للتطور » تعمل لترقية السلالات البشرية . وهذا تفكير يعلمو علوماً عظيماً على الصغائر التى يشتبك فيها صغار الأدباء .

وحين أعود إلى الأفكار التى بثها فى نفسى برنارد شو ، وحين أنظر إلى الدنيا من عدسته ، أحس السرور والغضب والإقدام والشجاعة والجهد والإرادة . أجل . أحس أن حياتى ترتفع إلى مقام التاريخ وأن لوجودى دلالة فلسفية .

\* \* \*

مات برنارد شو بعد أن ملأ الدنيا بفكاهاته ، وهى إفاقيع الحكمة فكنا نضحك ونتعلم . نحن الآن أقل ثراء فى النفس وذكاء فى العقل مما كنا فى أيامه .

وقبل أن يموت بأيام قال زعيم الفكاهة هذا يصف عالمنا فى عام ١٩٥٠ : إن بين كل أمة وأمة حرباً باردة . وبين كل فرد وفرد من أبناء الأمة الواحدة حرباً باردة . وبين كل إنسان ونفسه حرباً باردة ! هذا ما قاله زعيم الفكاهة . وهى كلمات موجعة تصف عالمنا التعس الحاضر . .

\* \* \*

لما مات برنارد شو أطفئت الأنوار فى نيويورك خمس دقائق ، وكذلك أغلقت المدارس فى الهند يوماً كاملاً ، وجرى مثل ذلك أو قريب منه فى أقطار أخرى . ولكن مصر لم تفعل شيئاً من هذا ، كأنها تعيش

فى ذهول لا تقدر القيم الأدبية والاجتماعية فى العالم . والواقع أنها كذلك .  
ولو كانت هناك أمة مدينة لبرناردشو لكانت مصر فإن الصفحات  
القليلة التى كتبها عن دنشواى تحمل من غلواء الدهن والعاطفة ما ينظمها  
فى عداد الأدب العالمى والبلاغة السامية ، وستعيش هذه الصفحات  
وسيقراها ، كما قرأها ، الملايين الذين سيغضبون من الاستعمار وسيعرفون  
منها حق مصر وباطل بريطانيا .

ولو كنا أمة عصرية لنقلنا إلى لغتنا جميع مؤلفات برنارد شو ،  
ولكانت هذه المؤلفات جديرة بأن تحدث نهضة اجتماعية وأدبية . فإن  
تفكيرنا السياسى جامد ، ونشاطنا الأدبى إما رجعى يتعمق ظلام القرون  
الماضية ، وإما سطحي يتبهرج بالألوان على صفحات الجرائد والمجلات .  
كأنه عبث الصبيان .

ولذلك ما كان أحوجنا إلى التوجيه السيكولوجى الاجتماعى الذى  
يتسم به أدب برناردشو . بل ما أحوج الأديب والسياسى معاً إلى هذا  
التوجيه .





## غاندى داعية الاستغناء



ولد غاندى إنساناً ومات قديساً .

ولم يكن غاندى مؤلفاً من حيث فن التأليف الكتابي وإخراج الكتب ، ولكنه ألف ما هو خير من الكتب . ألف حياته التي كانت مصباحاً منيراً نحو أربعين سنة للبشر من جميع الطبقات . وقد كانت دعواته أو رسالاته متعددة ، فتمد دعا إلى الوطنية الهندية ومحاربة الاستعمار وإلى الاستقلال والحرية كما دعا إلى المغزل والمنسج وإلى الطعام النباتي . ولكن كل هذه الدعوات كان يسودها روح القداسة . ولذلك نستطيع أن نقول إن دعوته الأولى هي القداسة .

ذلك أن وطنيته لم تكن للهند وحدها وإنما كانت إخاء بشرياً لساكن هذا العالم كله .

ولم يكن كفاحه دموياً قائماً على البطش والدم، وإنما كان مقاومة سلبية تهض على حص الهنود على ألا يتعاونوا مع المهتدمرين لهضم حقوقهم وصغط حرياتهم . ولم يكن تدينه لديانة آباءه فقط ، أى الهندوكية ، إذ هو كان يجعل صلاته حافلة جامعة للإنجيل والتوراة والقرآن ، والكتب الهندوكية المقدسة . وقد صام أكثر من نصف عام على فترات كى يحمل الهندوكيين والمسلمين على الإخاء . وبذلك رفع المياسة إلى مستوى القداسة

وقد كتب تاريخ حياته فى أسلوب شعبى ساذج يخلو من التبرج لأنه لم يكن كاتباً أدبياً لعوباً . ومن هذا الكتاب نحس قداسه . ونهفو إلى ذكره فى حين وحنان معاً . كما نهفو إلى ذكرياتنا للأم الحبيبة أو للعشيق التى أوسعتنا سعادة السنين ، أو للابن الذى حملناه على صدورنا وقبلنا وحتيته الطريتين .

وذكرى غاندى عندى هى نشوة يغمرنى فيها إحساس فى كذلك الإحساس الذى أيتعش فيه حين أرى الشفق الزاهى والحقول النضرة والرسم الرائع .

وليست عظمة غاندى من ذلك النوع الذى يحملنا على احترامه ، إذ ليس هناك مكان فى قلوبنا لذكره سوى الحب . وحيث يكون الحب العميق لا يكون الاحترام .

وإلى لأكثر كنوزاً نفيسة فى حياتى لا أرضى بها بدلا . هى أنى عشت وعاصرت تولستوى وبرنارد شو وشفيتزر وغاندى ، وكلهم قديس وليست قداسهم من ذلك النوع القديم حين كان ينزوى الراهب فى صومعته بعيداً عن المجتمع كى ينشد خلاص نفسه بالصلاة . لأن هذا الراهب هو فى صميمه أنانى يطلب الخلاص لنفسه فقط . ولكن

٢٠٩

هؤلاء القديسين العصريين كانوا يتألمون ويصومون ويكافحون من أجل خلاص البشر .

وقد استطاعوا أن يغيروا الأوزان والقيم البشرية ، وأن يغرسوا في قلوبنا حباً جديداً وأن يعلمونا أسلوباً فلسفياً للعيش .

مات غاندى في سنة ١٩٤٧ وهو أعظم رجل في العالم . ومع ذلك كان كل ما يملك عزرة تدر له اللين وشملة تكسى جسمه لا يريد ثمنها على ثلاثة أو أربعة قروش .

وكان يغزل بيده ويكتب ويشترى القليل من الفواكه أو الخبز بما يكسب . وبذلك نصب غاندى أمام العالم كاه مثالا يحتاج به على أساليب عيشتنا الاقنائية . ويوضح لنا أن السعادة والشرف والمكانة أيسر من أن نتكلف من أجلها جميعاً هذا الجهد ، بل هذا العذاب في اقتناء المال والمرولة التعسة التي نعيش بها من أجل التكاثر بهذا المال .

والفهم العام للنسك هو أنه عادة أو رهبنة دينية قد نشأت في الأمم الشرقية ، وهو كذلك إذا فهمناه على أنه انزواء في صومعة .

ولكن الحرمان الذي فرضه على نفسه كل من برنارد شو وتولستوى وغاندى وشفيتزر هو نسك آخر ، نسك غربي ينهل على أسس من الثقافة الغربية غايته خدمة المجتمع وإنهاض البشرية وتجديد القيم الاجتماعية . بل إنه ليس نسكاً ، لأن المعنى الأصيل للنسك أنه الحرمان من بعض الملذات في الطعام أو الشراب أو اللباس أو السكنى أو إشباع الشهوات . ولكن هؤلاء الأربعة الناسكين لم يحسوا . وهم يحرمون أنفسهم ما نحسب أنه متاع ، أنهم قد فقدوا شيئاً لأنهم قد أخذوا بقيم جديدة تجل ما نعتز أو نلتذ أو نفخر به من ثراء أو اقتناء ، تافهاً لا يحرص عليه الرجل العظيم بل لا يباله .

حادثة واحدة في حياته غاندى تدلنا على أن استغناءه لم يحمل معنى القهر ، وهو انقطاعه عن الاتصال الجنسي منذ بلغ الرابعة والثلاثين فهو لم يكن يقسم نفسه على هذا الحرمان . ولم يكن يحس أنه حرمان . ذلك لأن الآمال والآفاق التي كان يترامى إليها تفكيره كانت تغمر نفسه ، وتسغل كل وقته ، وتهيب به ، بما تحمل من عظمة ومجد ، أن يسي مادونها من ملذات أخرى . فهو لم يكن يشتهي طعام اللحم أو الاتصال بالمرأة أو اقتناء الثراء لأن نفسه كانت مغمورة بما هو أسهى . فالانكشاف هنا لبس قهرياً أمراً وإنما هو سيكولوجي . أى أن غاندى قد سد القنوات في شهواته لأنه جمعها كلها نهراً واحداً نحو غاية موحدة هي الإنسانية .

وكي يفهم القارئ هذه الحال ، عليه أن يذكر مثلاً ذلك الأب الذي يفقد ابنه الحبيب ، فإن كثيراً من الآباء في هذه الحال يحسون صدوداً عن المرأة كأن الشهوة الجنسية قد أصبحت حراماً لا يجوز لهم الاستمتاع بها بعد أن ثكلوا الابن الذي أحبوا . وهذا الصدود هو في منطق النفس نذر لشيء آخر .

وكان نذر غاندى الذي سد قنوات شهواته جميعها تقريباً هو حب البشر واستقلال الهند ومحو النجاسة وطرد الإنجليز .

\*\*\*

وبما ينهنا في حياة غاندى أنه على الرغم من المسحة البدائية الساذجة التي تبدو بها صورته لنا إنما كان غريباً في ذهنه عصرياً في فكره . بل أكاد أقول إنه كان ماركسياً في أسلوب كفاحه للإنجليز ، من حيث إنه فهم الاستعمار على أنه استغلال للأرض والبشر في الهند لمصلحة الإنجليز فجعل مكافئته قائمة على الاستكفاء الاقتصادي بتعميم المغزل والمنسج ومقاطعة المصنوعات الإنجليزية .

ولم يزل يدعوهم للعمل إبداراً لحاه الآلة اليدوية الصغيرة على  
معداة الغار الذي يلبس إلى رجاها ، وها على الحائك والبار ، وإنما هو وجهاً أن  
ولم يزل الحائك يلبس إلى رجاها ، الحائك والكافة والفراع ، مع الجوع في  
الرياء ، وندم الإجابة لأهله ، وندمهم وتصايبهم لفتلها في المهل ،  
كل ما جعله يندم ، في الدسياء التي دعم البيوت الهندية حيث يعمل  
الأرب ، والأم والأبناء ، في العمل ، أن يستطيع الإنجاز أن يتأخجا  
ويعملها .

وبما أمل للحركات الوطنية في مصر والهند وتركيا نجد ظاهرة تستحق  
الانتباه . هي أن جميع الوطنيين في هذه الأقطار الذين قادوا هذه  
الحركات ، قد أمانوا بثقافته أو ربيبه وأنشأوا بالغيم والأوزان الأوربية .

أما الشرفيون الذين نشأوا في حضن الثقافات الهندية الدينية أو  
الاسلامية فلم يزرعها هذه الحركات ولم يستلعبها أن يعملوها بتفكيرهم .  
فإن دماء الهندية الهندية ، لم يزلت وفاءت ، وفروها نعلوا وجههم في  
أمرنا ، إن أناته ، ذلك مما دعا إلى شأناها في دماءها للأحلاف السريعة .  
وهذا هم الآن أصبحوا في دهر حيث حدد أن الزعامة الوطنية والانتهاص  
القومى العام ، والاعرف القائل يعمل عملها ولا يزال يحمله أولئك  
الذين هم الذين يعملها في أم ، يا . أو أمانوا بالثقافة الأوربية وما تحمل  
من أم ، يا ، وهم يجاهدوا في الابداء والأحلاف والاحماع .

وهذا ، ان الاستعمار البرطاني في الهند قد قد نفاديس البقرة ويؤيد  
دظام اليهودين ويؤيد حجاب المرأة . لأن أعظم ما يؤخر هذه الأمم السريفة  
هو هذه القليل المجهود . بل لولا هذه القليل لما استطاع الاستعمار  
أن يظلم هذه الأمة أو يندم .

ولعلنا لا نسى هنا أن الإنجليز كانوا يجارضون حركة فاسم أمين

بشأن تحرير المرأة ، وكانت ناظرة المدرسة السنية الابتدائية للبنات تصر على اتخاذهن للبرقع .

ولكن الاستعمار مذهب غربي وهو ، مع أنه يدوس الأمم الشرقية ، لا يزال يحمل في طياته السم الذي يقتله في النهاية . لأنه ينقل معه الثقافة الأوروبية التي تحيل بعض الشرقيين إلى أوروبيين في الذهن والعاطفة والنظرة . وهؤلاء يفكرون وينتهون إلى دعوة الاستقلال والتحرير من شيئين معاً وهما الاحتلال الأجنبي وأيضاً التقاليد المتحجرة .

ولذلك ما كاد الهنود يحلون الإنجليز حتى عمدوا أول ما عمدوا إلى إلغاء نظام الطبقات الذي كان يؤيد بقاء المنبوذين ولولا منهوذاً وزارة المعارف . كما منحوا المرأة حق المساواة بالرجل في الميدان الاجتماعي وأيضاً حق الانتخاب للبرلمان وللوزارة . وهم في ذلك يشبهون مصر .

وليس شيء في الدنيا أسوأ من الاستعمار الأجنبي سوى التقاليد الشرقية المتحجرة . وليس شيء في الدنيا أسوأ من التقاليد المتحجرة سوى الاستعمار الأجنبي . ولكن مع ذلك حين أتأمل بعض الأمم التي لا تزال تعيش في استقلالها واستبداد تقاليدها أحس كأنني أرغب في استعمار أجنبي يصفعها الصفعة المنبهة التي توقظها وتنبهها وتحملها على إلغاء تقاليدها .

\* \* \*

ثلاثة رجال يبرزون في حياة غاندى من حيث تكوينه وتوجيهه في التفكير الاجتماعي . وهؤلاء هم : ثورو وتولستوى وروسكين . وكانوا جميعاً من المتمردين على الحضارة الأوروبية يحاولون الارتداد عنها إلى ما هو أبسط وأقل تعقداً وأميل إلى الخدمة والتعاون دون السلطة والاستثمار .

٢١٣

ولا يستطيع التأمل لنشاط هؤلاء الثلاثة ، الدارس لأفكارهم ونظرياتهم ومثلياتهم ، أن يقول إنهم كانوا على بصيرة تامة بالحضارة الأوروبية ومنتهاتها ، ولكن تمردهم كان بمثابة التنبية إلى ما فيها من أخطار تلمصق بالاجتماع الاقتنائى الذى أنهت إليه حيث يعيش كل فرد وغايته الاقتناء والإثراء فى مباراة عنيفة قاتلة .

كان ثورو أمريكياً ، ولد فى عام ١٨١٧ ومات فى عام ١٨٦٢ . . اشتغل بالتعليم وبغيره . ولكنه فى عام ١٨٤٥ ترك حياة المدن وهاجر إلى الغابة ، حيث بنى لنفسه كوخاً وجعل يعيش حياة بدائية يصيه السمك من بحيرة قريبة ويأكل الثمار البرية ويعمل بالأجرة فى الحقول القريبة .

وكان يقضى معظم وقته فى تأمل الحيوان والنبات فى الغابة . وهو واضع عبارة « العصيان المدنى » التى أخذها عنه غاندى . وكان يعنى بهذه العبارة أن لكل فرد الحق فى أن يستقل بشخصيته ويرفض العادات والمطامع الاجتماعية ويعيش وفق مثلياته الخاصة وهو عاص لا يخضع للمجتمع . وبقي إلى عام ١٨٤٧ بالغابة حين عاد إلى المدينة وعاش مع صديقه « إميرسون » وألف كتاباً بعنوان « والدين أو الحياة فى الغابة » .

وهو يروى فى هذا الكتاب اختبارات ، وكيف أن حاجاته جميعاً من لباس وغذاء وسكنى لم تكن تكلفه سوى القليل من الجهد والقليل جداً من النقود .

وواضح أن غاندى حين ترك المدن وآوى إلى معتكفه فى الطبيعة يقنع بما تدره عليه عززته من اللبن والخبز ، وأيضاً يقنعه بتلك الشملة التى كان يشتمل بها دون أى لباس آخر ، إنما كان يستضىء بثورو فى حياته فى الغابة . ومكافحته للإنجليز الاستعماريين بشعاره « العصيان المدنى » يعود إلى القدرة على الاستغناء . فإنه نبذ الرفاهية فضلاً عن البذخ وقنع

بالقليل الذى لا يستطيع الإنجاز أن يحرموه منه . وكان ثورو على الدوام فى ذمّه : رجل قابع يحمل عدما يحتاج ، ودرتاح ونشأه الشمس والشجر والماء والسحاب ، عدما لا يحتاج . والحنارة القائمة ندعونا إلى الافئدة والإثراء والجهل والمباراة . ولكن عبرة ثورو هى كيف نستغنى ؟ وليس كيف نقتنى ؟

أما تولستوى ، فليس هناك من يجهله . فقد ولد فى عام ١٨٢٨ بهات فى عام ١٩١١ وكان فناً عظيماً يؤلف القصص الخالدة كما كان أنبلًا قسماً متمرداً على الحضارة أيضاً مثل ثورو . وقد حرّمته الكنيسة الروسية لأنه ألف كتاباً عن إيمانه وصف فيه المسيح باعتباره إنسان عظيم لا أكثر ، وأن دعوة المسيح إلى الحب البشرى هى الخلاص لجميع الناس وأن « ملكوت الله » كما جاء فى الإنجيل ليس حياة أخرى بعد الموت وإنما هو فى قلوبنا وأنفسنا وعالمنا هذا ، وأنه يتحقق بالحب بين البشر . وقد عاش فى الأرض التى ورثها عن عائلته وحاول تسليم هذه الأرض للفلاحين ، ولكن عائلته منعتة ، وكان يصنع الأحذية بنفسه للفلاحين . كما أنه أنشأ مدرسة لأولادهم وأصدر مجلة فى التربية .

وقبل وفاته بنحو عشرة أيام خرج هارباً من بيته يريد أن يرضى ضميره ويعيش كأحد الفلاحين .

وقرأ غاندى مؤلفاته وهو فى أفريقيا الجنوبية فتأثر بها كثيراً . وكان أن أسس ما سماه « مزرعة تولستوى » حيث كان يعلم أبناء الهنود ويزرع أرض المزرعة ، ومن هنا نشأت عنده فكرة التعام بالأسل ، وهى الفكرة التى أحالت التعليم إلى تربية .

ويرى كثير من الناقدين أن الخطة التى اتبعها غاندى فى مكافحته للاستعمار فى الهند وهى « المقاومة السلمية » أى تقبل العدوان فى صمت



وثبات إنما نرجع إلى معالم تولستوى في شرحه للمسيحية ، هذا الشرح الذي سجل عليه جبران الكسيسة له حتى قال رومان رولان الأديب الفرنسي المعروف « - وسمي دافلت كى أيبس أن غاندى كان ينطوى على قلب إنجيل نضاهى تحت كساء من الإيمان الهندوكى - أما روسكين الذى أحبه أيضاً غاندى فكان من الأدباء الإنجليز . وقد ولد في عام ١٨١٩ ومات في عام ١٩٠٠ ، وألف عددا كبيرا من الكتب في الفنون والأخلاق والاجتماع . ولما مات أبوه عام ( ١٨٥٥ ) ترك له ثروة طرقت وقتئذ مدافع دائلة ونحو مئتين ألف جنيه فلم يملكها بل نذر منها للمنشآت الاجتماعية والعملية وقع هو بأن يعيش بفقره .

” ” ”

لم يكن غاندى بضع الفواعل كى يتميد بها ، وإنما كان يفرص القناعة أو المبدأ للاسترشاد الأخلاقى في الخطه العملية . ولذلك حد أن التزامه للمساومة السلمية لم يكن جامدا . إذ هو كان يلجأ إلى العمل الإبدعى من وقت لآخر . أى أن « العصيان المدنى » لم يكن عنده ركوداً أو انحرالا أو مسوداً ، وإنما كان أيضاً عصياناً مباشراً كما نرى في حادث الملح .

ذلك أن الحكومة الهندية كانت في استغلالها الإمبراطورى تمنكر مساهمة الملح ، وهو إدام أو تابل يحتاج إليه كل فرد . فالكسب عظيم منه والضرورة تكفل رواحه الدائم . ورأى غاندى في سنة ١٩٣٠ أن هاهنا فرصة ينبى أن تسعل لتحريك الترد على الاستعمار وتجربه الشعب الهندى على عصيان القوانين والأخذ بالسجاعة ، فدعا إلى مظاهرة شعبية تبدأ من دعتكته حيث كان يقم إلى شاطئ البحر حيث الملاحات الحكومية .

وهناك يخالف غاندى القانون عمداً ويرل المتظاهرون إلى الملاحات

ويحملون الملح محاناً . وكافح المستعمرون هذه المظاهرة بكل الوسائل ووجدوا من الهنود أنفسهم من أيدهم في تزيف هذه الحرية أو شلها ، فنعوا القطارات من السفر إلى الشاطئ . ومنعوا الخطابات . وعطأوا الصحف وراقبوها . وأوفدوا البوليس والجيش يحمل كل فرد منهم هراوة ضخمة ، ثم أنحوا على المتظاهرين بالضرب أو بالأحرى بالخبط حتى تحطمت الرؤوس والأجسام وخضبت الأرض بالدماء وألقوا القبض على رأس الفتنة وداعية العصيان غاندى .

ولكن كل هذا لم يهزم المتظاهرين . وبقي العصيان يفشوزداد وامتألت السجون وفاضت . فأسس الإنجليز حظائر من الأسلاك يحبسون فيها الثائرين ، وأصبح المسجونون يعدون بمئات الألوف . وانتشر روج الترد في جميع أنحاء الهند فامتنع المالكون من أداء الضرائب واستقبال ألوف الموظفين . وتراعى للإنجليز أن الثورة تسير في طريق النجاح وأن الأداة الحكومية قد شلت . وعندئذ فكروا في أساليب آخر للمكافحة . فإتهم إلى جنب الضرب والاعتقال عمدوا إلى الحكم بالغرامات ، ولكنها كانت تجربة تعلم منها غاندى وتعلم الهنود كيف يكافحون . وفهموا وفكروا ودبروا .

وفي عام ١٩٣٩ عند شوب الحرب الكبرى الثانية ترك غاندى هذا الأسلوب القديم للمكافحة . ودعا دعوة أخرى هي « اتركوا الهند » . وترك الإنجليز الهند في عام ١٩٤٨ . وتحقق الاستقلال .

\* \* \*

وكان الهنود يعيشون أيام الإنجليز في تقاليد الفقر والجهل والمرض ، وليس شيء يعمل للدلة والهوان مثل هذه العناصر الثلاثة التي تجمع شرور العالم كلها . وهى العون الأول للاستعمار . ولذلك حاربها غاندى

جميعها بطراز حديد من المدارس بلا ثم ظروف القرية الهندية . وهذا الطراز هو ما يسمى الآن « التربية الأساسية » .

في عام ١٩٤٥ كتب أينشتين عن غاندى هذه الكلمات البليغة :

« إن غاندى يتزعم الشعب الهندى لا يؤيده في هذه الزعامة أية سلطة خارجية . وهو سياسى لا يقوم نجاحه على الحيلة أو المهارة في الوسائل الفنية إنما على القوة الاقتناعية في شخصيته ، وهو مكافح مظفر يحتقر على الدوام أساليب العنف . وهو حكيم متواضع قد تسليح بالإرادة كي يتناسق سلوكه ، وقد أرسد كل قواه لأن ينهض بشعبه ويرقى بمصيره . وقد جابه توحش أوربا بوقار إنسانيته ولذلك كان على الدوام يرتفع عليها . إن الأجيال القادمة سوف تشك في أن إنساناً مثل هذا سعى بقدميه على أرضنا »

وهذه كلمات عظيم قد رأى العظمة في غيره وفطن إليها .

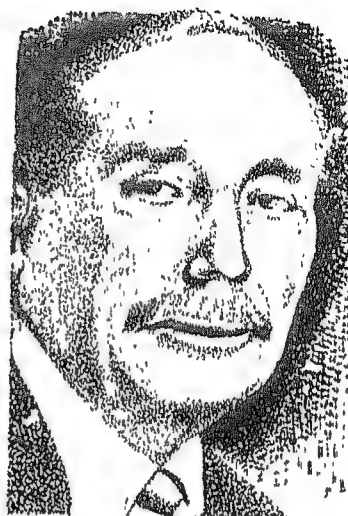
\* \* \*

عالمنا أن غاندى أيضاً حكمة الحكم ليست بالافتناء وإنما هي بالاستغناء ، وأننا نستطيع أن نحقق السعادة والمكانة ، وأن ننجز وعد حياتنا على الأرض ، بالقليل من الحاجات دون هذا البذخ الذى يضيئنا بلوعة ثم لا يسعدنا الحصول عليه ، وأن ضرورات العيش من مسكن وملبس ومطعم قليلة ، بل إننا إذا أقلنا منها عشنا على أحسن حال كما تتوافر لنا بهذه القوة والوقت للاستمتاع العالية .

وعلمنا نحن الشرقيين أن الاستعمار عدو لا شك فيه ، ولكن هناك ما هو أعدى منه لنا وهو الاستمساك بعادات وتقاليد وقيم ثقافية واجتماعية شرقية لا يصلح أن تبقى في القرن العشرين .



## ويلز فيلسوف الصحافة



الصحافة أدب جديد لم يكن يعرفه أسلافنا ، غايته أن يرتبط  
الكاتب بمجتمعه ويكتب عن عصره ويدرس مشكلاته . ولهذا الأدب  
قواعده بل سنته التي يجب أن يلتزمها الصحفي . وإذا كانت البلاغة لم  
تدرس إلى الآن هذا النوع من الأدب فلذلك لأنها تبني قواعدها على  
حال اجتماعية قد مضى عليها أكثر من ألف سنة . ومن هنا عقم هذه  
القواعد في عصرنا وخيمت نتائجها .

قواعد البلاغة القديمة تعلمنا كيف نكتب في جد الجاحظ أو هزل  
الحريري ، ولكن الصحفي الذي يكتب عن شؤون البورصة ، أو الفيتامين  
البلعدي في الحميرة ، أو مناقشات مجلس النواب ، أو قتل البريد بالطائرات ،  
أو القنبلة الذرية يجد قصوراً عظيماً في لغتي الجاحظ والحريري  
بلاغتهما .

وإذا كان الأديب يكبر بمقدار مسئولياته ، فإن الصحفي هو أعظم الأدباء في عصرنا . لأن أعظم ما يؤثر في الجمهور ويعيره ويوجهه للخير أو للشر هو الجريدة ، وذلك لقوة الإيحاء الذي ينشأ من تكرار ظهورها كل يوم أو كل أسبوع .

ولذلك أول شرط لبلاغة الأدب الصحفي أن يكون من يمارسه أميناً لقرائه مخاصماً لمثلياته ومبادئه ، لا يخون ولا يحرف ، لأن في خيانتة أو انحrafه إفساداً للقراء وبعثاً للشر . ثم يجب أن يكون على دراسة متابرة للمشكلات العامة ، إذ هي موضوعه الذي يتجدد كل يوم . ومهمته هنا أن ينير ويرفع مستوى البحث من ظلام الجهل والعمية إلى نور المعرفة والثقافة . وأبصاً من العاطفة إلى التقل . ويجب أن تكون له أهداف فلسفية يتجه بها ويوجه قراءه إليها . والفاسمة ألزم للصحفي مما هي لأي أديب آخر لقوة التوجيه التي يملكها أكثر مما يملكها أى أديب آخر .

وقد يضحك قارئ الصحيفة الأسبوعية المهرجة من كلامي هذه . ولكنني أذكره بأن أعظم من مارسوا الصحافة في مصر هو لطفى السيد وهو فيلسوف يهتم بأرسطوطاليس كما يهتم بترقية الزراعة أو الصناعة . وكذلك الشأن ، على مدى أوسع في صحف أوروبا وأمريكا . وصحافة بلا فلسفة هي صحافة العوام يكتبون للعوام .

لقد عرفنا أديبين صحفيين من أعظم أدباء العصر هما برنارد شو و ه . ج ويلز . كان كلاهما يكتب في الصحف ويؤلف الكتب . ولكن مؤلفاتهما . هي أدب صحفي ممتاز . ولأنه ممتاز ، قد جمع وحفظ في صيغة الكتاب وما من كتاب ألفه هذان الاثنان إلا وهو يعالج مشكلة بشرية أو اجتماعية أو اقتصادية يجب أن تعالجها الصحيفة اليومية أو الأسبوعية . ومؤلفاتهما قد لا تقل عن مائة مجلد . وقد كان من حظي أن أرافقهما

وأتعلّم منهما نحو نصف قرن . فقد كتب رناردشو عن فضائح الإنجليز في دنشواي ، وعن الأثمان والأسهم في البورصة ، وعن المجلس البلدى في لندن ، وعن الحب والزواج ، وعن الإلحاد والإيمان ، وعن التأميم ، وعن الحرب والسلام ، وعن اللغة والهجاء . وكل هذه الموضوعات صحفية . وكذلك الشأن في ه . ج . ويلز فقد كان آخر ما كتبه قبيل وفاته بأيام مقالاً عن أخطار القنبلة الذرية . وقد دعا إلى الإيمان بالأديان بقوة وتكرار وإلحاح ، ثم رأى أن يدعو دعوة أخرى مضادة استغرقت سائر حياته . ولكنه كان مخلصاً حتى عندما نعده ضالاً منحرفاً . وكان مخلصاً في الدعوتين لأنه كان متطوراً .

وحياة ويلز الأدبية منذ شرع يكتب حوالى عام ١٨٩٥ إلى وفاته في عام ١٩٤٥ هى تاريخ نصف قرن من التطور الذهبى لكاتب عظيم لزاء التطورات والانقلابات العلمية والاقتصادية والسياسية . ومؤلفاته الأولى كلها تغاؤل واستبشار بالمستقبل . . . العلوم تسود المعارف وتغربلها ، تزويد سلطة الإنسان على الأرض والماء والسماء ، الأمراض تنهزم وتتمحى ، المصنوعات الزراعية تزيد وتلغى الجوع ، الروح التنظيمى يعم العالم بالاشتراكية والتعليم يزداد . أجل ، وسوف تؤلف لجنة عالمية تتصل بعصبة الأمم أو بالأمم المتحدة تؤلف موسوعة من نحو ثلاثين أو أربعين مجلداً ، ثم تترجم إلى جميع لغات العالم . وعندئذ تتداول جميع الشعوب هذه المعارف المثقفة بأرخص الأثمان ويدخل ويلز في التفاصيل فيقول يجب أن تؤلف هذه الموسوعة على مبدأ الورق السائب بحيث يستطيع المقتنون للموسوعة أن يستبدلوا بالأوراق التى قدمت وعقمت معارفها أوراقاً جديدة تحوى المعارف الجديدة وتبقى الموسوعة بهذه الطريقة يطرد تجدها على مدى السنين . وهذا الاستبشار بالمستقبل يملأه طرباً . فهو داعية حب وخير

وإيمان حتى ليكنب عن الكوارث التي وقعت يأيوب، وهو أيوب عصرى ، وليس نورائياً ، بحيث يذهب المال والولد والنسل والضرع ، يذهب كل منى - ولكن يبقى الإيمان . الإيمان بالله ملك الملوك .

تم تأني الحرب الكبرى الأولى فيخدم شى من هذا الذهب . ولكن يبقى منه شىء كبير . إذا هو يؤلف لنا فى عام ١٩١٩ تاريخاً للعالم كله بقول فيه إننا أمة واحدة ، وإن هذه الدنيا قريننا الكبرى التي يجب أن نُنظمها ونُخلط حركة المرور فيها . وإننا يجب أن ننتهى لإيجاد حكومة واحدة مع إدارة عامة موحدة للتعليم فى دول الدنيا . ولكن بعد عشر سنوات نرى هذا الاستبشار بالمستقبل يتقهقر ، فهو غاضب حائق يائس وهو يدعونا إلى مادية صرفة ، مادية منظمة يتوافر فيها الطعام والسكن والمعرفة . ويقول إن هذا هو الدين . وبعد أن كان يستخرج من التوراة شخصية معذبة ينقلها إلى عصرنا ويثقلها الهموم والمتاعب وينتهى بها بعد كل ذلك إلى الإيمان والرضى والفرح ، يعود بعد عام ١٩٣٠ فيجمع أشياء أخرى من التوراة يهاثر بها ويسب ويقذح . حتى إذا بلغ عام ١٩٤٥ يعمه اليأس العلمى الذى كان أساس الأمل من قبل ، فيتحدث عن انقراض البشر بالقنبلة الذرية .

\* \* \*

لقد عشت مع هذا الإنسان وأحببته ، وإليه أعزو روح الحد فى برنامجى الثقافى والأفاق الموسوعية فى معارفى ، والاتجاه الدينى الذى أتجهه فى الصحافة فضلاً عن التأليف . فإنى أدرس جغرافية هذا العالم وتاريخه بالروح الدينى ، واهتمامى بما يجرى فى إسبانيا على أيدي الفاشيين ، أو فى الصين على أيدي الشيوعيين ، يفوق اهتمامى بشئون الشخصية .



٢٢٣

وأحداث العالم الكبرى يزيد وقعها في نسي على الكوارث التي تقع بشخصي . ومشكاة القنبلة الذرية هي أكبر من أن أقول إنها مشكلة لي . ولم أكره ولز إلا في يوم واحد . وذكرى لهذه الكراهة يدل على أنها حزت في نفسي حزاً لم يبرأ إلى الآن ، ذلك أنه قال في مقال صحفى إنه لو كان على سفينة ومعه برناردشو وبافلوف العالم الروسى ثم تعرضت السفينة للغرق واضطر إلى الاختيار بين إنقاذ شو أو إنقاذ بافلوف لأنقذ بافلوف دون شو !

وأتأتى هذه الكلمة كما آلت برناردشو كثيراً حتى إنه كررها في مضمض . وعندى أنه لو كانت نفس برناردشو من ذهب فإن نفس ويلز من طين ، حتى لو قيل لي إن الطين أنفع من الذهب . وأستطيع أن أقول لروح ويلز : أنت روح من طين ، لأن ويلز لم يجن هذا الجنون المقدس الذى رأيناه من شو في حادث دنشواى . أين كانت بشريتك التى تزعم أنها ديانتك السيامية حين شتى أبناءنا وجادوا أمام أمهاتهم وأبنائهم وزوجاتهم وآبائهم ؟ لقد كنت أنخرس حين نطق ، بل حين صرخ برناردشو .

وبافلوف عالم سيكولوجى ، وشو أديب . ولكنه في أدبه يعلو على العلم ، وزعة ويلز العلمية هى التى أسقطته هذه السقطة .

نشأ ويلز في بدرون الحياة الاجتماعية إذ كانت أمه نخادة في مذ لأحد الأثرياء ، وأول ما يذكره من ذكريات الطفولة هو رؤى لأخذية الناس وهم يسرون على طوار الشارع وهو قاعد في أسفل الطبقة البدرونية يتطلع من النافذة إليهم فيرى أحذيتهم دون وجوههم . وله كتاب أو رسالة تدعى « تعس الأحذية » .

واستطاع أن يتعلم ويصل إلى كلية العلوم حيث تخصص في البيولوج

« أى علم الحياة » وألف كتاباً عن تشريح الأرنب . وكان الدكتور هيوم ، الذى كان يدير مصلحة الجيولوجيا فى حكومتنا ، زميله فى الكلية .

وحوالى عام ١٨٩٠ حين شرع ويلز يكتب كانت الأصداء للمناقشات الفلسفية والعلمية لنظرية التطور تتردد فى ذهنه ، ومن هنا مؤلفاته الأولى التى تنزع إلى الخيال العلمى وتجرى على نسق « جول فيرن » ، وإن تكن على مستوى أعلى . وهى تتدرج من التافه مثل قصة « طعام الآلهة » إلى الجليل مثل « حرب العوالم » .

ورويداً رويداً ينجذب العالم ويلز إلى الأدب والفلسفة والاقتصاد والسياسة بضغط الحوادث ، إذ هو يعيش فى مجتمع حى ويقرأ صحفاً مرآوية تنقل إليه صورة العالم المذهب بالإمبراطورية البريطانية والاستعمار الفرنسى ، والتعطل الذى يشقى ملايين العمال ، والجهل الذى يعم الفقراء ، والمرض الذى يبلهم ، فيشرع فى الدراسة وينتهى إلى تأليف كتاب « عوالم جديدة للقداش » يقول فيه إن العلاج الوحيد للعالم هو الاشتراكية وليس شىء غير الاشتراكية .

وهنا يتعين موقفه . فهو اشتراكى ارتقائى يسارى . وعندئذ يدعوه زعماء الجمعية الثابية كى يكون عضواً فيها حتى تنتفع بمواهبه الأدبية فى نشر الاشتراكية . ويدخل الجمعية ويلقى المحاضرات ، ولكنه يصطدم ببرناردش وينهزم فيخرج من الجمعية . فهذه هى الحزاة الأولى بين الأكاديميين ، وقد تركت على لسانه مرارة جعلته ينطق بتلك الكلمات الحاقدة عن موت برناردشو وحياة بافلوف .

وكان الخلاف بشأن برنامج الجمعية ، فلما ويلز أصر على أن يكون ضمن هذا البرنامج وفى أساسه تحرير المرأة . والتحرير هنا يزيد عشرة أضعاف على ما يفهمه القارئ المصرى عن معنى التحرير . وعارض برناردشو

هذا الاقتراح لا لأنه يكره التحرير بل لأنه كان يرى أن الجمعية يجب أن يقتصر نشاطها على نشر الاشتراكية ، وحسبها هذا دون التطاع إلى أية دعوة أخرى .

حدث هذا حوالي عام ١٩٠٦ ، ومن ذلك العام إلى يوم وفاته في عام ١٩٤٥ نجده في ويلز المجاهد المتوسع في جهاده ، وجهاده هذا للعالم وليس لبريطانيا وحدها فهو يدعو إلى إيجاد قانون أساسى عام ينص فيه على حق كل إنسان . فلكل إنسان الحق في العيش وفي العمل ، كما أن له حق التفكير والعمل ، وكذلك الحق في المعرفة . أى يجب أن يتعلم .

وهو يدعو إلى ارتباطات ونظم عالمية لا تزال في نمو وارتقاء حتى تتخلص الحكومات العديدة القائمة وتزول في حكومة عالمية واحدة وهو يدعو إلى إيجاد قانون عام لصيانة الثروات العامة باعتبارها ملكاً مشاعاً للأمم ، للبشر . أى يجب أن يحافظ على مناجم الفحم في إنجلترا أو عيون البترول في إيران ، وغابات أفريقيا والهند ، ووحوش الغابات ، باعتبار أن كل هذه الكنوز إنما هي ملك عام مشاع للبشر . وليس لأمة أن تستأثر بواحد منها .

وهو يطلب التنظيم العلمى للإنتاج ، ويذكرنا أن مدينة برمنجهام وحدها تستخدم من القوة في أيامنا لإنتاج مصنوعات مقدار ما كانت تستخدمه بريطانيا جميعها أيام الملكة إليصابات حوالي عام ١٦٠٠ ، وأن العلم هو الذى أدى إلى ذلك وأننا حين نستخدم العلم في الزراعة والصناعة والبناء في أقطار العالم فإن الجوع يزول كما أن الوقت يتوافر لجميع أبناء البشر كي يهنأوا بالسعادة وكى يتعلموا طوال أعمارهم .

والتعليم هو وسواس ويلز ، وسواسه النبيل ، فإنه يرى أن التنظيم العلمى لأحوال عالمنا جدير بأن يهيئ الفرصة لكل إنسان كي يحظى بتعليم جامعى .

وبداية هذا التعليم هو إخراج الموسوعة التي أشرنا إليها .  
 لست أشك في أن هناك من يحبون أن يسألوني حين أكتب عن  
 أحد الأدباء عن قيمته الفنية ، وإذن ما هي قيمة ويلز الفنية ؟  
 وجوابي أن الفن ، أى العناية بالتعبير الجميل وتصوير الأهداف  
 والصور الجميلة ليست في ويلز أو شو أو تولستوى أو أى أديب آخر  
 أحببته ، وإنما أحببته لأنه انغمس في مهمة أكبر وأخطر وأجل وأسمى  
 من هذا الذى يسميه البادئون والذاهلون والموهون فناً .  
 أين يكون الفن في حبل المشنقة الذى يسمح بالصابون كى يأخذ بعنق  
 المشنوق ، ويضعفه كما يقول تولستوى ؟  
 أين يكون الفن في البغى تبيع عرضها لكل قادم كى تجد القروش التي  
 تأكل بها كما يقول برناردشو ؟  
 أين يكون الفن في ويلز وهو يكافح من أجل التنظيم العالمى ويبحث  
 الوسائل لإلغاء الحروب والجوع والجهل ؟  
 الحق إن قصص هـ . ج . ويلز ودرامات برنارد شو هي جميعها  
 لإبراز الأفكار ، وليست لإبراز الأشخاص . وهي جميعها لعرض  
 المشكلات وليست للفن .  
 لقد عالج هؤلاء المؤلفون أقدارنا وقروحنا ، ولطخوا أيديهم في  
 المعالجة بالوحد والدم ، كى نتعلم النظافة والصحة ، فلم يجدوا مع الوحد  
 والدم مجالاً للفن .  
 فإذا ذكرت لى أن دستوفسكى قد عالج الوحد والدم وكان مع ذلك  
 فناناً ، فإنى أجيب بأنه لم يكن من البشر إنه كان قديساً فوق البشر .  
 وأخيراً يجب أن نتحم الكلام عن ويلز بأن نتعمق قلبه ونسأل عن  
 إيمانه وديانته .

والقارئ لمؤلفاته العديدة يستطيع أن يقول إن هذا الإيمان أو هذه الديانة هما العالمية أو البشرية من حيث إن تنظيم العالم يؤدي في النهاية إلى خدمة البشر . وقد انتهى إلى الفور من الغيبيات ، بل إلى القول بضرورة مكافحتها وألف في ذلك رسائل وكتباً . وعند ويلز أن الدين ، وهو الدين البشري ، ضرورة حتمية للنفس ، وهو يعرفه بأنه تشوف الإنسان إلى ما هو أعلى منه وسعيه لمصلحة عالمية تعلو على مصلحته الشخصية . وهو يقول هنا إنه ليس هناك هناة أو سعادة إلا حين نلغي ذاتنا ومصلحتنا في سبيل ذات ومصلحة تعاون علمينا . وهذه الذات هي البشرية جميعها وهذه المصلحة هي العالم كله .

والهدف الذي يهدف إليه هذا الإيمان هو بكلمات ويلز نفسها : « الانتصار المتدرج على الجوع والعطش والمناخ والمادة ، والقوة الآلية والألم الجسمي أو العقلي ، والفناء والمسافة والوقت . وعلى الأشياء التي تبدو لنا كأنها قد فقدت في الماضي ، وكذلك على الأشياء الممكنة في المستقبل . وسيتبقى نوعنا ، النوع البشري ، في امتداد هذا الكون الأوسع كي نعيش فيه على وجدان أكبر .

كلمات مادية صرفة ، ولكنها تهدف إلى خدمة البشر . فاختراع آلة « لتكييف الهواء » هو انتصار على المناخ ، فهو دين . ومخترع البنسيلين هو رجل دين أيضاً لأنه تغلب بهذا العقار على ألم جسمي أو عقلي . فإذا سألنا ويلز : ماهي هذه البشرية التي تهدف في ديانته إلى خدمتها ؟ لأجاب بأنها البشرية المتدرجة في التفوق ، وقبل سنين دعتة جريدة الماتان الفرنسية إلى أن يدلي برأيه بشأن المشروع الذي كانت تعده الحكومة كي تصدر قانوناً لمساعدة العائلات على زيادة التناسل فكتب يقول بأن الآباء الذين يستحقون هذه المساعدة هم الأكفاء جسماً وعقلاً . أما من كانوا غير أكفاء ، أي من كانوا ناقصين في صحة الجسم أو صفاء العقل ،

فليس من المصلحة البشرية أن ندعوهم إلى زيادة التناسل . وهذا اتجاه تطوري دارويني . أجل ، إن نظرية التطور قد غمرت العالم المثقف بروح ديني جديد لأن الإنسان يجب أن يعلى عليه إذ هو معبر بين المرد والسبرمان .

ويلز فيلسوف الصحافة ، هو ثمره الاندفاع العامي في القرن التاسع عشر ، قد وجد في ديمقراطية القرن العشرين الجديدة ميداناً لثعاليمه . لأن هذه الديمقراطية عممت التعليم بالمدارس . حتى أصبحت العالم الإنجليزيت يطبع في العام أكثر من عشرين ألف كتاب جديد ، وهذا زيادة على مئات الجرائد اليومية والمجلات التي تعلم وتثقف هؤلاء المتعاطين الديمقراطية . وكان ويلز قوة توجيه لهم . وكانت النبذة العالية في صوته هي : هذا العالم هو عالمنا ، هو قريتنا . هو حديقتنا . وعائنا أن نصالحه وننظمه .

ولإني أكتب هذه الكلمات في صبيحة أول يناير من عام ١٩٥١ اليوم الأول من النصف الثاني من القرن العشرين فأحس كلمات ويلز بل أحس قوة الصديق فيها . ذلك أننا قبل أربعين أو خمسين سنة كنا نقول إن حرباً قد تقع بين دولتين أو ثلاث دول لاشأن لنا بها ، ولكن هذا القول لم يعد يصدق في أيامنا . فإن حرباً تقع بين روسيا وأمريكا هي حرب أهلية للعالم كله ، هي قتال جنوني يشتبك فيه جميع سكان هذه القارية . هذا العالم ، في تشنجات دموية تزلزل وتحطم . . . هذه هي عبرة ويلز وهذه هي رسالته .

## شقايتزر صديق الزوج



السيكولوجية هي التجسس على النفس . وقد تعودت . بما كسبته من  
الدربة السيكلوجية ، أن أتجسس على المؤلفين وأن أسأل عن حياتهم  
ومكانتهم الاجتماعية ، وتربيتهم ، حين أرغب في الوقوف على البواعث  
التي حملتهم على الدعوة إلى فكرة معينة أو اتخاذ أساليب خاص . ثم كثيراً  
ما أحس ، كما سبق لي أن أشرت إلى ذلك ، أن حياة المؤلف هي نفسها  
كتابته الأول ، وأنه إذا لم يكن قد أحسن تأليفها فإنه لن يحسن شيئاً  
آخر . وأن مشكلاته الخاصة التي عاناها في حياته هي نفسها المشكلات  
العامة التي عاجلها في مؤلفاته .

اعتبر مثلاً تولستوى . فإنه جحد مناعم الحضارة ، والانغماسات  
الكتولية والجنسية ، وحياة الترف والثراء . بل إنه بعد أن قضى سنى

النضج والإيناع وأخرج المؤلفات الفنية البديعة ، عاد فوجد الفن وعده استهتاراً يجب أن نتجنبه وأن نقنع بسداجة العيش بل بالفقر والكفاف . وكل هذه المؤلفات كانت ثمرة حياته أو مرآة حياته . فقد اغدس في اللذات الجنسية أيام شبابه ثم نفصها وجعلها . ولكنه أحسن من التوترات ما جعله يكافح جسمه ويضغط أعصابه . وكانت مؤلفاته تفرجاً أو شرحاً أو علاجاً لهذه التوترات والضغط . وكان يقول بأننا يجب أن نتجنب المرأة إلا بغية التناسل . ثم كان يهزم أمام هذا العزم فيطلب زوجته ويترضاها . وبلغ من كراهته للفن أن قاطع تأليف القصة باعتبارها تسالية وخيمة تنأى عن جد الحياة . ولكنه ، وهو فوق الثمانين ، كان يؤلف القصة ثم يخبثها في درج المنضدة . وكان يحاول أن يعيش بالكفاف ، وأن يحترف صنع الأحذية وأن ينزل عن أرضه للفلاحين . ولكنه كان ينهض في الفجر و « يأمر » خادمه بأن يلجم جواده ويخرج به إلى الحقول فيعدو به في وجه الريح ويلتذ هذه « السيادة » على الارض بل هذا الكفاح للريح والطبيعة .

وليس شك أنه كان ، بعد أن يعود إلى غرفته ، يندم على ضعفه ويحاول أن يكف ، لا بل أن يربى نفسه من جديد ، فيخرج من درج المنضدة المشروط والأديم كمن يصنع حذاء سمخيفاً ركيكاً لأحد الفلاحين . وما أعتقد أن حملته على شكسبير كانت إلا تفرجاً عن إحساسه بالخطيئة التي كان يرتكبها هو بانغماسه في الفن . فإن شكسبير كان فناً عظيماً ، وكان تولستوى فناً عظيماً أيضاً ، وقد رأى صورته في شكسبير فلن في شخصه هذا الشاعر الإنجليزي العظيم . وهو إنما كان يلعب نفسه ويحاول التخلص من هذه المتناقضات التي كانت تحطم أعصابه . وأى تناقض أكبر من هذا الانفصال بين ناس يعيشون في ترف الفن يؤلفون الأشعار والقصص ، وبين الملايين الكادحة التي تحيا بلا حياة وبلا فن ؟



٢٣١

إن عمولنا تزداد فطمة وبصيرة حين نتمعق حياة المؤلف ونسأله .  
من أين لك هذا ؟

من أين لك هذه الأفكار ؟ وما هي الأحداث التي نزلت بك ثم  
أنتجت هذه الأفكار في مؤلفاتك ؟ ومن أين لك هذا الأسلوب ؟  
وما هي العلاقة بينه وبين مكانتك الاجتماعية ؟ هل أنت من الشعب  
تخاطب الشعب بلغته ؟ أم أنت في مكانة اجتماعية عالية تعاو على الشعب  
فتعالى عليه بأسلوبك ؟

إلى حين أجد مؤلفاً يبغض التعصب الديني ، ويكافح الغيبات ،  
ويدعو إلى مذهب العقلين ، ويقول بضرورة الاشتراكية ، أسأل :  
هل هو فرد في طائفة من طوائف الأقليات تعاني ضغطاً اقتصادياً أو  
اجتماعياً بحيث يجب هذه المبادئ وينقلها إلى الوجدان الفني ؟ أليست  
عائ ذلك أنه قد أحس أن الغيبات تفصل بين البشر ، وأنه لذلك  
بشرى العقيدة اشتراكي المذهب ؟

واعتقادي أنه إذا كان رجل السياسة مكلفاً أن يجيب عن سؤالنا :  
« من أين لك هذا ؟ » بتقديم الحساب المفصل عن ممتلكاته ، فإنه يجب  
على الأديب أن يجيب عن مثل هذا السؤال بأن يكتب تاريخ حياته  
حتى نلفظ إلى البواعث ونتمعق الأسرار ونترى ونستبصر بكوارثه .

\* \* \*

ولكن هناك من المؤلفين والمفكرين من لا يجوزنا إلى مثل هذا  
السؤال لأن حياتهم مكشوفة . وقد كشفوها هم بأعمالهم أو كفاحهم .  
ولذلك نحن نقرأ سيرتهم في هذه الأعمال أو هذا الكفاح لنسترشد ونتعلم  
ونقتدي ، فضلاً عن النور الذي نستضيء به من مؤلفاتهم . وهذا هو  
الشأن في ألبيرت شفيتر .

هو مؤلف فى الأدب والاحتجاج والماستفة والمديحية فله استطاع أن ينير الأذهان ويهذب الحيوال فى الإنسان . ولكنه زيادة على المؤلفات قد عمل وكافح ، حتى إننا لنجد فى هذا الكفاح ما يغينا عن قراءة مؤلفاته . كما نجد فى كفاح شاندى ما يغينا عن مؤلفاته .

قضى شقيرة قرابة أربعين سنة وهو فى « لا مبارينيه » فى سنغال الفرنسية بأفريقيا الغربية يعالج أمراض الزنوج بالحبان ، ويجمع لهم التبرعات من أوربا وأمريكا .

وقد بنى لهم مستشفى ، وأعد له كل ما يحتاج إليه من عتاد صغى وعلاجى إلى الأطباء الذين أقامهم بترك أوربا والرضا بالعيش للخدمة المرضى من الزنوج فى شمس أفريقيا المحرقة .

وكان هذا عملا جليلا أرسده له حياته . وعاد إلى بلاده وهو أعمى إذ لم تتحمل عيناه شمس أفريقيا . ولكنه عاد بعد أن أنجز وعد حياته كما ينجز أحدا وعداً من وعود الشهد والشرف والإنسانية .

وهو يقيم هذه الأيام ( عام ١٩٥١ ) فى قرية القرية من « استراسبورج » ينتظر الموت بعد أن تجاوز الثمانين .

كان ألبرت شقيرة صبيًا ألمانيًا نشأ فى أسرة ألسانية حيث تتأخم ألمانيا فرنسا . وأحياناً تغافلها . وذات نية أبويه أن ينشأ نشأة دينية . وقضى ألبرت تلامذته والتحق بالجامعة فى استراسبورج وحصل على الشهادة الجامعية فى الإلهيات . ولكنه طوال دراسته يكب على الموسيقى دراسة ورائة . ونبع فى العزف على الأرغن ، وهو أكبر آلة موسيقية لانغلو منها كنيسة كبرى فى أوربا . واحتضان الكنائس للموسيقى قد رفع من قيمة هذا الفن وأكسبه الاحترام الذى لانجده للأسف فى بلادنا .

وكان يحصل من العزف فى الكنائس على أرباح كبيرة . وذاع اسمه

٢٣٣

حتى كانت الكنائس الكبرى تدعوه في الأعياد والحفلات . وله مؤلفات عن باخ وعن الموسيقى تعد صفحاتها بالآلاف .

وللى هنا ويتساءل القارئ : رجل حصل على الثقافة وعلى الحرفة وعلى الكسب ، ما الذى بقى من حياته يذكر فيؤثر ؟  
والجواب أن الباقي كان كل شيء . فإنه جحد حياته الماضية كلها وآثر عليها كفاحاً إنسانياً يحتاج إلى الدم والدموع ؟

فقد تساءل سُقيّتر وهو شاب : ماذا أفعل كى أخدم الزنوج الذين سحقهم الاستعمار ، البريطانى والفرنسى والمولدى والبلجيكي ، وكيف أستطيع خدمتهم ؟

وأجاب المبشرون ' بأنه يمكنه أن يرحل إلى أفريقيا حيث يبشر الوثنيين من الزنوج بالمسيحية . أليس هو دكتور في الإلهيات ؟

ولكنه أحس مرارة التهم في هذا الاقتراح . فإنه كان يعرف ، بل يوقن ، أن كثيراً من المبشرين كانوا أعواناً للاستعمار . وزيادة على ذلك تساءل هو : كيف تقدم للزنوج تعاليم المسيحية وهم قد عرفوا أن هؤلاء المسيحيين الذين تعلموا هذه التعاليم هم أنفسهم الذين يهينونهم ويلذونهم ويخربونهم الثقافة والمدنية والعدل والشرف ؟

لا . إنه لن يكذب عليهم ، ولن يزعم لهم أن المسيحيين المستعمرين أشراف . وإذن ماذا يفعل ؟

لقد بلغ الثالثة والثلاثين ، وكل ما يحذقه من المعارف دراية وورائة عظيمة في فن الموسيقى . وأيضاً فقهيات جدلية في المذاهب المسيحية . وأنها لسوف تكون سخرية حقاً أن يقصد إلى الزنوج ويعرض عليهم هذه البراعات !

لا إنه لن يفعل ذلك ..

وحزم رأيه ، ثم حزم أمتعته ، ورحل من ستراسبورج إلى باريس .  
وهناك عاد تلميذاً ، وهو في الثالثة والثلاثين ، والتحق بكلية الطب .

إنه حين يكون طبيباً يستطيع أن يرحل إلى أفريقيا وأن يعالج المرضى من الزوج حتى يعرفوا أن بين الأوربيين من يوازي سراحهم ويعالج أمراضهم كما عرفوا من آلاف الاستعماريين الجبرمين .

وبعد أربع سنوات نال شهادة الطب . فحزم رأيه وحزم أمتعته ورحل إلى لا مبارينييه في سنغال الفرنسية ، وهناك أسس مستشفى .  
وأقام مع زوجته يخدمان الزوج نحو أربعين سنة عاد بعدها في سنة ١٩٤٩ إلى قريته التي عرفها وهو صبي بالقرب من ستراسبورج .  
عاد وهو أعمى .

وإلى هنا نستطيع أن نقنع بأننا عرفنا إنساناً باراً بالإنسانية .

ولكن شقيتزر ، كما كان رجل عمل وكفاح ، كان مفكراً عميقاً يبحث ويستقصي ويحاول أن يتهدى إلى يقين . ومن هنا مؤلفاته العديدة . فقد ألف عن الموسيقى . ثم ألف عن المسيح وحواري المسيح بولس .

ولا بد أنك ، أيها القارئ ، ستقول إن ما هنا إنساناً مسيحياً قد درس الإنجيل وعمل بتعاليم المسيح . وهذا حق . ولكنه ليس كل الحق .

ذلك أن شقيتزر ألف كتاباً عن المسيح الذي أحبه ، وعمل بتعاليمه . ولكنه عالِم حياته بمشروط فرويد بما لا يرضى المسيحيين . وقد قرأت الكتاب وأحسست وأنا في الفصول الأخيرة أن الحلوى التي كنت ألوكلها بلساني قد استحالت إلى علقم مر لا أسيغه ولا أطيعه . ولكنه أي شقيتزر ، يقول ، وكأنه يحس برعشة الاثني عشر الذي أحدثه تماثيل السيكلوجي القاسي : وماذا علينا أن نؤمن بالفلسفة العظيمة حتى ولو كان داعيتها ..

إنها مأساة . وإننا نحن البشر لا نطبق كل الحنى  
وإذن ما هو اليقين الذى يستند إليه شقيتزر ؟

ما هو اليقين الذى يحمله على أن يترك الثراء والجهد والراحة  
والمندنية ويرحل إلى أفريقيا ، ويفضى هناك أحسن سنى عمره فى خدمة  
الزئوج بعد أن يستعد لخدمتهم بالدراسة أربع سنوات فى جامعة باريس ؟  
هذا اليقين هو احترام الحياة . إننا يجب أن نحترم الحياة كائنة  
ما كانت ولا نقتل نمأة إلا إذا حتمت الضرورة ذلك .

ألسنا نحن الأحياء جميعاً ، من العشب الذى ندوسه إلى الجواد الذى  
نركبه ، إلى الكلب الذى يرافقتنا ، إلى الشجرة الخضراء ، ألسنا جميعاً  
نتمى إلى أصل واحد ونسير فى موكب التطور نحو المستقبل ؟

ثم احترام الحياة هو مفتاح يهئ لنا التفكير السليم فى تطور  
المجتمع البشرى ، فهل نقنع من شقيتزر بذلك ؟ إنه يستطيع أن يقول  
انظروا إلى حياتى .

لقد أحببت شقيتزر على الرغم من العلم الذى ملأ به فى . وعلى  
الرغم من السحب الباهرة الناصعة التى أحاطها إلى قنাম أسود . ورضيت  
وأنا كاره أن أستمع بعقلى إلى أقواله ، كما هدأت نفسى إلى عجزى عن  
الرد عليه . وتقبلت دعوته إلى الحياة فى ترحيب وسرور ، لأن دراستى  
للتطور قد جعلتني على إحساس عميق بوحدة الحياة نباتاً وحيواناً  
وإنساناً . ثم هو بعد كل هذا ، لم يعترض بكلمة واحدة على سمو الأخلاق  
التي دعا إليها المسيح .



## چون ديوى فيلسوف العلم



كتب أتحدث ذات مرة مع الدكتور كليفلاند مدير الجامعة الأمريكية بالقاهرة عن مركب أوديب أو مركب النقص لا أدري ، فأنصت إلى ثم رفع عينيه في وجهي يسأل في خبث: هل هناك إحصاءات عن هذا الموضوع ؟

وبهذا السؤال أفحمني وأضحكني معاً .

فإنى أحسست أن السؤال أمريكى « هو سؤال ينبع من الوسط الأمريكى الذى يعتمد على العلم » ويتخيل على أساس المعارف العلمية ، وهو التجربة . والإحصاء يقوم في عالم الاجتماع مقام التجربة في الطبيعيات أو الكيمياء من العلوم المادية .

وينبغي أن نسلم بأن الكثير من معارفنا السيكلوجية لم يرتفع إلى مقام

العلم . وقصارى ما نقول عن هذه المعارف إنها « فروض » ننتفع بها في تفكيرنا . وأن هناك ما يرجح صحتها لأننا ، حين نعمل بها ، نجد النتائج الحسنة .

ولكنها ليست علماً ، وإنما العلم هو ما قام به بافلوف الذى جرب التجارب فى الكلاب واستنتج النتائج . هو أيضاً تلك الحقائق التى استطاع السيكلوجيون أن يستخرجوها بالإحصاء بالتجارب التى قاموا بها بين الطلبة ، أو العمال ، أو الأزواج ، أو المسجونين ، أو نحوهم .

والعلم هو شىء جديد فى عصرنا . إذ ليس هو محض التفكير والاستنتاج . وإنما هو التخيل أولاً ، ثم التجربة باليد ، ثم التفسير بما يتلاءم مع النتائج من هذه التجربة .

وشيوخ الأسلوب العلمى فى أيامنا قد جعل الفلاسفة والأدباء يتشككون فى قيمة ما يمارسون من فلسفة وأدب ، ولذلك أصبحت الفلسفة « تجريبية » .

وصاحب هذا رأى أو هذه الدعوة إلى اتخاذ الأسلوب العلمى فى الفلسفة هو جون ديوى الذى مات قبل سنتين والذى يعد من أكبر الفلاسفة الأمريكيين ، كما أنه مؤسس المدارس « الارتقائية » الجديدة التى دعا فيها إلى أن تكون المدرسة مجتمعاً صغيراً يمثل المجتمع الذى سيعيش فيه التلميذ أو الطالب بعد ذلك . وفلسفته عن التعليم تندغم فى فلسفته عن الحياة .

وأنا أحاول هنا أن أشرح فلسفته التى تأثرت بها ، والتى ما زلت أسترشد بها وأعتمد على أسلوبها فى حياتى الذهنية .

وأبدأ بما أسطيع أن أسميه « مفتاح » التفكير الفلسفى « ديوى » وهو أنه ليس فى هذا الكون ، شىء كائن ، أى ثابت لا يتغير . لأن كل ما فيه



من ناس أو حيوان أو نبات أو جماد هو أشياء « صائرة » أى أنها فى تغير لا ينقطع . أو بكلمة أخرى هى فى تطور .

نحن ، وكل شىء حولنا ، فى صيرورة تغير ، ولسنا فى كينونة ثابتة . واعتقادى أن الذى غرس هذه الفكرة فى الأذهان العصرية هو داروين حين أثبت أن التطور هو الأصل والمبدأ فى عالمنا .

ومادام التغير أو التطور هو الأساس لوجودنا فيجب لذلك أن نقول بالتجربة أى التجربة فى الفلسفة ، والتجربة فى الاجتماع ، والتجربة فى التربية .

ذلك أن مجتمعا ليس نهائياً ، إذ هو سيتطور . ومادام هذا شأنه يجب أن نتناوله بالتغير كلما وجدنا الحاجة إلى هذا التغير .

هذا هو المفتاح الأول . أما المفتاح الثانى الذى يفتح لنا أبواب الفلسفة عند ديوى فهو أن الفصل بين الماديات والمعنويات الذى قال به أفلاطون ليس حقيقة وإنما هو وهم . فالمادة والروح ، والجسم والعقل ، والفكرة والمادة ، كلها شىء واحد .

وهو يجهننا بالقول بأننا لم نعرف قط عقلا بلا جسم ولا فكرة بلا مادة .

أما المفتاح الثالث فهو التسليم بأن معارفنا عن الكون والأشياء مؤقتة ، أى لوقتنا أو لعمرنا هذا فقط . وهى ليست نهائية . ولا نستطيع لذلك أن نقول إنها صادقة . لأن هذه الأشياء فى تطور . وقصارى ما نستطيع أن نقوله عن المعارف البشرية إنها « آلة » و « وسيلة » نفهم بها الأشياء . وغاية هذا الفهم غير النهائى إنما هى التسلط على الطبيعة واستغلالها لمصلحة البشر .

لو كانت الأشياء ثابتة ، ولو كان الكون ثابتاً ، ولو كانت عقولنا

ثابتة ، لكان فهمنا لهذه الأشياء ثابتاً نهائياً . ولكننا نحن جميعاً في  
صيرورة ، نصير وتغير ، ولذلك فإن هذا الفهم أيضاً سيتغير ولا يمكن  
أن يكون نهائياً .

وما عندنا من فهم عن الكون والأشياء إنما هو صورة وفناء  
نستفيع بها ، ويجب أن نستفيع بها في استخدام قوى الطبيعة لمصاحبة الإنسان .  
لا . ليست الغاية من الفلسفة أن نعرف أسرار الطبيعة ، وإنما هي  
أن نستخدم قوى الطبيعة .

أما المفتاح الرابع فهو أن الذكاء البشري اجتماعي .  
فما عندنا من أفكار وآراء وعقائد ، وعواطف ، وفاسطات . إنما جميعها  
جميعها إلى المجتمع الذي نعيش فيه ، وكان يمكن ديوي هنا أن يقول إن  
اللغة الاجتماعية وإنما الوسيلة للذكاء إذ لا يستطيع التفكير بلا لغة .

هذه هي الأسس لفلسفة ديوي التي يسميها « الآلية » أي أن العنصر  
يجب أن تكون آلة أو وسيلة للفهم وللتسلط بهذا الفهم على الطبيعة .

وربما يكون من الحسن أن أخلص هذه الأسس الأربع فيما يلي :

١ — أننا وكل شيء حولنا في صيرورة ولسنا ثابتين على حال لا تتغير .

٢ — كل ما في هذا الكون هو وحدة لا تنقسم . فليس هناك فرق  
بين الماديات والمعنويات ، ولا بين الحياة والمادة . ولا بين الجسم والعقل .  
بل ليس هناك عقل مستقل أو نفس مستقلة .

٣ — معارفنا عن الأشياء مؤقتة ، إذ هي في تغير كلما أن عقولنا التي  
نعرف بها في تغير .

٤ — الذكاء البشري اجتماعي أي أننا ننبعث بنظرياتنا وعقائدها  
وأفكارنا بقوة الإيحاء الاجتماعي الذي ينغرس في نفوسنا في المجتمع  
الذي نعيش فيه .

هذا هو ديوى الميلاسوف . فما هو ديوى المربى ؟

إن شهرته في التربية أكبر من شهرته في الفلسفة . وقد دعت تركيا  
روسيا والصين كي ينظم لها وسائل التعليم . وإليه تعزى هذه الأساليب  
الجديدة في التعليم في الولايات المتحدة نفسها .

التربية عند ديوى هي النمو الذهني . ولكن لما كان الذهن . في كل  
حال . اجتماعياً . فإن المدرسة يجب أن تكون اجتماعية . فإذا كان  
لمجتمع الأمريكي مثلاً يتنقل أفراداه بالسيارة فإن التلميذ يجب أن يتعلم  
قيادة السيارات . وإذن يجب على المدرسة أن تخلق لتلاميذها اختبارات  
اجتماعية بحيث يجتهدون ويحاولون حل المشكلات كما لو كانوا كباراً  
على اهتمام يقط بكل ما يحدث في بلادهم بل في الدنيا أيضاً .  
المدرسة عند ديوى هي جنين المجتمع .

وحين تنطوي المدرسة على نفسها ، وتعلم النظريات وتلقى الدروس  
لتي لا علاقة لها بالمجتمع المعاصر ، حين تفعل ذلك ، تعود بالضرر على  
تلاميذها . ولهذا يجب ألا تنقطع بتاتاً عن الاتصال بالمجتمع .

وقيمة المدرسة عند ديوى تقاس بدرجة ما تخلفه في التلميذ من الرغبة  
في النمو . وهذا النمو هو في النهاية تجدد ذاتي ، وهو دؤوب في التوسع الذهني  
الاستطلاع والاختبار والدروس .

وكان أول مؤلفاته كتاب «المدرسة والمجتمع» في عام ١٨٩٩ . واسم  
لكتاب يدل القارئ على الاتجاه الذي اتخذه ديوى في فلسفته الاجتماعية .  
في هذا الكتاب يصف النشاط الذهني بأنه لا يختلف من أي نشاط  
آخر نؤديه بعضلاتنا أي أنه تفاعل مع الوسط . هو أقرب الأشياء  
لي الرؤية . فلإننا حين نرى شيئاً بعيوننا لانحس أن الرؤية هي شيء  
أخلى فينا ، وإنما هي تفاعل بيننا وبين هذا الشيء . أي أنها حدث

قد حدث بيننا وبين هذا الشيء . وكذلك الشأن في التفكير فإننا لا نفكر إلا لأننا قد التفقنا إلى شيء خارج عنا أو اهتممنا به .

ولإذن ليست التربية ادخار المعارف ، وإنما هي غرس العادات الحسنة في التفكير حتى نصل إلى أحسن النتائج . وأحسن النتائج هي استخلام المعارف كما لو كانت آلات لخدمة البشر أى المجتمع .

والهدف من التربية هو إيجاد التلاؤم بين الفرد والمجتمع .  
وليست الأخلاق عند ديوى شيئاً مطلقاً . وليست هناك أخلاق مثلى دائمة . وإنما هناك تغيرات اجتماعية تؤدي إلى تغيرات أخلاقية . وما دامت غايتنا هي سعادة العيش فإننا يجب أن نجعل الملاءمة بين الفرد والمجتمع غاية التربية .

ثم ينتهى بأن الأخلاق المثلى في مجتمع ما ليست سوى الأخلاق العلمية ، كما أن خير المجتمعات هو المجتمع العلمى .

وبالطبع هنا شطط . فإن ما يزعمه ديوى من أن غاية التربية يجب أن تكون الملاءمة بين المجتمع والفرد قد يحملنا على القول بأن هذه الملاءمة تقتضي أن نعيش فيه حتى ولو كان ظالماً . ورجل الثورة الذى يحتاج إليه رقى الأمم من وقت لآخر هو رجل لا يتلاءم مع المجتمع . ومن هنا ثورته ، وهى فضيلته .

والواقع . أن ديوى رأى قبل أن يموت شطط هذا الاندفاع فى التساوق مع المجتمع . فقد عقد مؤتمر أمريكى بلغ أعضاؤه نحو ٦٠٠ من خريجي الجامعات وأساتذتها . وعرض هذا الاقتراح على المؤتمرين :

أيهما أنفع ، أن نعلم الطلبة اللغة الإغريقية أم نعلمهم فن الرقص ؟  
فكانت الأغلبية الساحقة فى جانب الرقص .

وذلك اعتقاداً بأن المجتمع العصرى يحتاج الفرد فيه . كى يكون

متلائماً معه ، إلى الرقص . أما لغة الإغريق فيمكن الاستغناء عنها أو على الأقل تركها للمتخصصين .

لا ليست التربية الحقة أن نتلاءم على الدوام مع المجتمع .

والأغلب أن ديوى قد احتاج إلى الإكبار من شأن الاتصال بالمجتمع وإلى جعله الأساس للتربية كى يحمل المعلمين والمربين على أن يضعوا القيمة العملية فوق القيمة النظرية في التربية . وعلى أن يجعلوا من المدرسة مجتمعاً يتهياً فيه التلميذ أو الطالب لأن يكون فرداً اجتماعياً له عادات اجتماعية ارتقائية ، وليس محض خزانة للمعارف الكيماوية والرياضية والتاريخية والجغرافية .

عضو نافع متطور في مجتمع ارتقائي متطور .

وقد نجح في هذا الشأن ، فإن « المدارس الارتقائية » في الولايات المتحدة هي ثمرة فلسفته هذه . وهي جنات للصبيان والشبان يجدون فيها سعادة كان أسلافهم يحرمونها بالدؤوب في دراسة واختزان المعارف .

أعتقد أنني انتفعت كثيراً ، في تربيتي الذهنية ، بـجون ديوى .

وأول انتفاعي به أنه ألح على مراراً وتكراراً بضرورة الالتزام للأسلوب العلمى في المشكلات الاجتماعية . وبالطبع كلنا يعرف قيمة الأسلوب العلمى ، ولكن هناك من الأفكار ما نحتاج إلى أن نكرر القول فيه ، ونبدى ونعيد ، حتى يصير عادة ذهنية ثابتة وليس فكرة عابرة أو طارئة .

\* \* \*

« هل هناك إحصاءات عن هذا الموضوع ؟ »

هذا السؤال الأمريكى الذى سألتني « كليفلاند » هو ما يسأله جون ديوى في كل مشكلة ، ولذلك هو لا يفتأ ينشد التجربة التى تصحح منطق

الفكر المجرد وتوضح ما لعله قد أهمله هذا المنطق .  
التجربة في كل شيء : في الفاسفه ، وفي الأدب ، وفي الموسيقى ، وفي  
الأغاني ، وفي الاجتماع . . .

ولم لا ؟

أذكر أنه عندما عملت لإحدى الوزارات الماضية إلى إلغاء البغاء  
بالأحكام العرفية أنى طالبت التجربة . فقلت إننا نستطيع أن نلغي البغاء  
الرسمى فى القاهرة وندعه فى الإسكندرية مدة عام . ثم نقوم  
بتحقيقات بشأن الصحة الجسمية والنفسية بين فريقين من ألفين من السكان  
آخر هذا العام ، فإذا ثبت لنا أن الإلغاء فى القاهرة قد نقص من الأمراض  
الزهرية ولم يؤد إلى تفشى الأمراض النفسية وتفشى الشذوذات التى نشأ  
من التوترات الجنسية ، فإننا نعمم الإلغاء فى القطر كله . أما إذا ثبت  
العكس فإننا نعيد البغاء الرسمى

هذه تجربة اجتماعية نحاول بها حل مشكاته معينة فى مجتمعنا حلاً عاجلاً  
يقوم على الإحصاءات .

وقل مثل ذلك فى الفاسفه التى تنشد صلاح العيش وتحقق السعادة  
للإنسان ، بل كذلك فى الفن الذى ينشد سعادة النفس وجمال الذهن  
وجلال العاطفة . تجرب أحياناً وما يحدث فى نفوسنا من إحساسات  
الشجاعة والشهامة أو الخسة والدعارة . ونجرب أشعار شوقي أو حافظ أو  
أبى نواس أو المعرى ، نبحث نجعل أحد الفصول فى الأقسام الثانوية يدرس  
واحداً من هؤلاء ويستغرق فى إحساساته وقوافيه ، ثم نحقق آخر العام  
أثر هذا فى النفس والذهن والعاطفة ونخرج بالنتيجة التى توضح لنا  
ما نجهله .

بل كذلك التجربة فى أغانيها وموسيقانا بالمقارنة إلى الأغاني

والموسيقا الأوروبية ، أنهما تبعث على الانتماء الروحى والصحة النفسية والإحساس الفنى ؟

أجل . ليست التجربة فى الكيمياء والطبيعات وما إليها فقط ، إذ هى يجب أن تشمل حياتنا الاجتماعية كلها . نحرب فى نظام الدولة ، ونحرب فى نظام المجتمع . ونحرب فى الزواج والطلاق ، ونحرب فى طرق التعليم وفى معاش الناس حين يمارسون الزراعة أو الصناعة .

هذه واحدة مما تعلمت من جون ديوى . وأخرى هى أن المجتمع هو الذى يربينا . ولذلك هو بقول إن المجتمع كان يمكن أن يكون هو المربي الوحيد لنا بلا مدارس . ولكننا نحتاج إلى المدرسة كى نجمع الاختبارات المختلفة التى تزيد قيمتها على غيرها فلمنفذ إليها دون غيرها مما هو أقل خطورة . وبذلك نستطيع أن نكسب الطالب من هذه الاختبارات المختارة فى عام ، أكثر مما يستطيع أن يكسب من المجتمع فى سنين حين ينتظر طرء هذه الاختبارات عليه حزافاً .

التربية للمجتمع والمجتمع للتربية ، وإذا انفصلت المدرسة عن المجتمع ، وإذا انفصل إنسان ، رجلاً كان أو امرأة ، عن المجتمع فهو ، تقار هذا الانفصال ، تنقص أو تنعدم تربيته .

“ ” “

وقصة صغيرة أخيرة أروينا عن جون ديوى لأنها تكاد تلخص لنا إيماءة حياته وهدف فلسفته . فإن هذا الرجل كان يحيا كى يفسد الاختبارات فى هذه الدنيا ، وهو يختبر كى يفلسف ويستقطر الحكمة والسعادة من اختبارات

ولذلك نجده قبل نحو ست سنوات يقصد إلى قرية أو مدينة صغيرة يعيش فيها آخر أيامه بعيداً عن صخب العواصم وهرولتها . وهو يحب

حتى في سنى شيخوخته في هذا المعكثف أن يؤدي عملاً أو خدمة للمجتمع ،  
فهو يربى البقر ويستدر اللبن ، فإذا جاءت طلائع الصباح حمل اللبن على  
عربته وهرع إلى البيوت يوزعه بالثمن المجزى . وهو يقص علينا في فداها ،  
أن إحدى السيدات التي فتحت له الباب كي تسلم منه زجاجة اللبن الملبت  
منه ألا يقرع هذا الباب ، وإنما يقصد إلى الباب الخلفي الذي يؤدي  
إلى المطبخ . . .

فيلسوف لا غش فيه . .



## سارتر زعيم الانفرادية



الفلسفة الوجودية ، المذهب الوجودي ، بول سارتر . . .  
كلمات تجرى على الألسنة للمناقشة والمداعة . . .  
تجرى على ألسنة الأساتذة الذين تعمقوا الفلسفة ، أو العلميين الذين  
ينشدون ديناً أو مذهباً يتفق مع الثقافة المادية التي تغمرهم .  
وتجرى على ألسنة الشبان والفتيات الذين وجدوا في مذهب الحرية التي  
تدعو إليها الوجودية ، أو تضطر إلى الاعتماد عليها أساساً قوياً تنهض  
عليه ، وجدوا فيها ما يقارب الإباحة . فاستهزؤا ، ولكنهم لم يخذعوا  
أحداً بأنهم فلاسفة أو أن بول سارتر يؤيدهم . لا . هم شبان يضحكون  
ويعرجون لا أكثر .

حضرت درامة لبول سارتر في باريس ، ولم أستطع الحصول على

تذكرنى إلا قبل مياعداها بخمسة أيام لفرط التزامى على رؤيتها . وكان ثمنها جنياً كاملاً ، وهذه الدرامة هى : « إبليس والله الطيب » . وهى تموى من الزندقة أو الهرطقة مالا يطيقه مؤمن . ولكن المتفرجين أنصتوا وكأنهم كانوا فى قاعة جامعية يتعاهون .

لأنهم شعب قد تعلم معانى النساءج ، وهو أن تتقبل فى يسر وصمت ما تتألم منه لأنك تعرف أن لغيرك الحق فى أن يعتقد غير ما تعتقد . ولقد رأيت أحد الممثلين ينظر إلى أقدم شخصية عند المسيحيين فيقول : أنت أصم أنت أبكم !

ثم يقف ممثل آخر فيقول : « الناس متساوون ، الناس إخوة ، وهم جميعهم فى الله ، والله فيهم . والروح القدس ينطق من جميع الأفواه . وجميع الناس إنما هم كهنة وأنبياء ، وكلهم قادر كفاء لأن يقوم بالتعميد وأن يشهد بالزواج ويعلن بالبشارة الطيبة ويغفر الخطايا . وكلهم يحيا الحياة العامة على الأرض فى مواجهة الناس كما يحيا الحياة الخاصة مع نفسه فى مواجهة الله » .

وهذه كلمات يستطيع القارئ المسلم أن يتحمل الكثير منها دون معارضة ، ولكن المسيحي يجد فيها المناقضة للمبادئ الكنسية إن لم نقل للمبادئ المسيحية المعروفة . ومن هنا الصدمة التى أحدثتها هذه الدرامة فى باريس للكثيرين من المؤمنين .

ولكن حتى هنا نجد سارتر رقيقاً مهذب الكلمة لطيف الإيماء . أما فى كتبه فإنه يصارح بالإلحاد ، بل يجعل الإلحاد أساساً لفلسفته ومذهبه . وهذا على الرغم من أن هناك وجوديين ، مثل جاسبر ، وجبرائيل مارسيل ، يأخذون بمذهب الوجودية مع الإيمان بالله .

وعندى أن وجودية سارتر ليست شيئاً جديداً على أوروبا إلا من حيث لهجتها الهجومية . وهى عندى أيضاً ليست فلسفة ، وقصارى ما أفهمه منها أنها مذهب أخلاقى هو فى النهاية ثمرة النزعة المادية فى العاوم ، كما هو ثمرة النزعة الانفرادية التى كانت تسود القرن التاسع عشر فى السياسة والأخلاق .

ما هى الوجودية ؟

هى أنك وجود . هى أنك قد وجدت .

ولكن وجودك هذا لم يكن ليزيد على سائر الأشياء الموجودة مثل الحجر والشجرة والملح والسكر . ولكنك أنت تختلف عن هذه الأشياء بأنها هى تبقى « موجودات » لا تزيد على ذلك ، أما أنت فلأنك تتناول وجودك هذا بعقلك ويدك فتصوغ نفسك وتستخرج أو تستخلص جوهرك . أنت وجود أولاً ثم جوهر ثانياً .

أنت تولد وتحيا على هذه الأرض سبعين أو ثمانين سنة . ونحن نعرفك وأنت فى السنة الأولى من عمرك مثلاً شيئاً « موجوداً » لا أكثر . ولكن بعد أربعين أو خمسين سنة نجد أنك قد « تجوهرت » فظهرت خلاصتك وأصبحت لك دلالة ، فأنت وزير أو مؤلف أو نرى أو محام أو فيلسوف . وهذا هو الجوهر بعد الوجود .

ومن الذى أحالك من الوجود إلى الجوهر ؟

أنت نفسك . لأن كلا منا يتناول حياته من حيث يدرى أولاً يدرى ، كأنها « مشروع » يقوم بإتمامه . وقد يشرع أحداً فى بناء بيت أو متجر أو غير ذلك من المشروعات ، ولكن حياتنا « مشروع » أيضاً . إذ نحن نبنينا منذ طفولتنا تقريباً إلى أن نموت ، وعلى قدر مهارتنا فى البناء تكون حياتنا سامية أو متوسطة أو دون المتوسط .

وما دامت الحياة مشروعاً ، وما دمت أنت تقوم بإنجاز أو إتمام هذا المشروع ، فأنت مسئول عن حياتك . عن جوهرك .

أنت مسئول لأنك حر في اختيارك للأشياء التي انتهت بك إلى هذا الجوهر . وواضح أنك قد أخذت أحسن ما وجدت في هذه الدنيا . وهنا يقول سارتر بالحرف :

« ليس الإنسان شيئاً أكثر من أن يكون المشروع الذي سرعه وخططه لنفسه . وجوده نفسه ليس قائماً إلا على الحدود والقياسات التي يحققها لنفسه ، وهو إذن ليس شيئاً أكثر من مجموع أعماله ، ليس شيئاً أكثر من حياته » .

نحن أحرار ، إذن نحن نختار أحسن ما نجد فنخطط مشروع حياتنا . وإذن نحن نختار شخصيتنا . أجل ، إن سارتر يقول إن الإنسان يختار الإنسان . ويقول بالحرف : « ليس الإنسان شيئاً آخر غير مجموع مشروعاته ، هو مجموع علاقاتها الواحد مع الآخر » .

وهو يلحظ هنا أن هذا المذهب يكرهه كثيرون ممن لم يعميوا نجاحاً في الحياة ، ولكننا نجعلهم مسئولية فشلهم لأنهم أساءوا الاختيار حين اختاروا عملاً معيناً يرتزقون منه ، أو أنشأوا معينة اتخذوها للسلوك العام أو الخاص ، أو حين اختاروا زوجاتهم أو أصدقاءهم أو نحو ذلك . ويقول :

« هالك رجلا يرتبط بعمل ويؤدي خدمة ، وهو بهذا قد رسم حياته بل ليس هناك من حياته ما يزيد على ذلك . وواضح أن هذه الفكرة تبدو قاسية عند أولئك الذين لم ينجحوا في الحياة . »

\* \* \*

ما هي النقطة البؤرية عند سارتر ؟

هى إلهاده ، هى أنه يقول إننا ، نحن البشر يتأى فى هذا الكون ليس لنا سند نستند إليه فى اتخاذ الأخلاق أو تعيين الأهداف « نحن همل » نحن سدى ، قد حكم علينا بالحرية . هى حكم علينا وهى ليست ميزة لنا .

ولذلك ، لأننا أحرار . نحن فى قلق ، نحن فى حيرة ، كيف أختار ؟  
كى أنخطط حياتى ؟ كى أنجز مشروع حياتى ؟  
ويتذكر سارتر هنا قول دستوفسكى :

« إذا لم يكن الله موجوداً فكل شيء ”يجوز“ . أى أن الإنسان عندئذ يصبح مجزماً يرتكب ما يشاء من جرائم كما تمليها عليه شهواته » .  
ولكن سارتر يرد فيقول : لا ، إنما الإنسان حر لأنه مسئول . وهذه الشهوات لا تفقد الإنسان ، إنما الإنسان هو الذى يقودها ، وهو مسئول عن التصرف بها .

هذه المسؤولية هى التى تدفعه فى النهاية إلى أن يكون مسئولاً عن المجتمع ، لأنه ما دام يختار أحسن الأشياء لنفسه فهو أيضاً يختار هذه الأشياء ذاتها للمجتمع الذى يعيش فيه . وهو يقول بالحرف : « إننا حين نطلب الحرية لأنفسنا نجد أنها تتوقف على حرية الآخرين كما تتوقف على حريتنا » .

وهذا عنده الرد الكافى على دستوفسكى .  
وإليك منه هذه المقتبسات المثيرة :

« يجب أن نجعل الاختيار للأخلاق مثل صياغة العمل الفنى ،  
نصوغ حياتنا كما أو كانت تحفة فنية » .

ثم يقول : « يصف الوجوديون الرجل الجبان بأنه هو المسئول عن جبنه . وهو ليس جباناً لأن له قلباً أو رئة أو نخاعاً ، ليس جباناً لأن

له نظاما مسبوحيًا معبها ، وإنما هو سبحانه لأنه بنى نفسه على هذه الصورة بأعماله » . . . وأيضاً « الإنسان قد صاح نفسه بالجنس . والدليل قدام صاح نفسه بالعاقله » .

وهو ما هو انفرادى بمعنى فى الانفرادية . ذات الجميع . مسؤلاً عن الفرد . وأن الفرد ليس مسؤولاً عن الجميع . وما دام الشأن كذلك فأنت مضطرب إلى أن تقول إنك حر وإناك نعا . وإناك صانع حياتك . وإناك مسؤول عن كل ميزانك أو تقاضياتك .

اعتبر كلماته هذه : « أنا محتاج إلى أن أعين القيم الأخلاقية . وإدب يجب أن نعتبر الأشياء كما هى فى الواقع . وإذا قلنا إننا نختار هذه القيم الأخلاقية فعنى هذا أنه ليس للحياة ، أولاً . معنى أى قبل أن نولد أنت لم تكن الحياة شيئاً له معنى . والقيمة الأخلاقية ليست شيئاً أكثر من هذا المعنى الذى تكسبه أنت للحياة ، وإذن تجد أنه من الممكن إيجاد مجتمع بشرى على هذا الأساس » .

أصبح هذا ؟ هل يمكن إيجاد مجتمع بشرى إذا كنا نؤمن قبل كل شيء أن كل إنسان حر وأن يختار أخلاقه بنفسه أم لا ؟ إن هذا إيمان فى الانفرادية التى قد تنهى الفرد عن الاجتماع والأخلاقية .

• • •

إنى عندما أتأمل الوجودية التى طلعت على الباريسيين هذه الأيام . أرائى أفتقد فيها الفلسفة فلا أجدها . وأنتهى إلى أنها « مذهب » ولكنها مذهب ضار .

ذلك أن الفلسفة تمتاز بأنها يمكن البرهنه على صحتها وقواعدها . ولكن الوجودية تلقى بقواعدها كما لو كانت عقائد دينية . وإن خلت من

الأساس للأديان الكبرى من حيث الإيمان بالله .

أما أنها ما ذهب نهار فذلك لإسرافها في الفردية . فالإنسان عند  
الوحيديين مسئول أمام نفسه ولمسه فقط . وليس مسئول أمام المجتمع  
ولا أمام الله .

ثم هي مع ذلك تفرض للإنسان حرية الاختيار . كأن المجتمع  
بعاداته ولغته ، وسنن الطفولة التي نكون فيها المركبات وتكاد تنجمد ،  
والوسط الثقافي والاجتماعي . وولأه الحوادث وتنوعها ، كل هذا لا يؤثر  
في تكوين الفرد أو توجيهه . إذ هو حر في الاختيار . وينسى سائر أنه  
اختيار الضرورة . احسار الجبر .

ولكن السؤال هنا : لماذا نجحت الوجودية في فرنسا بل في أوروبا ؟  
اعتقادي أن نجاحها يرجع أولاً إلى التفكير المادي الذي عم أوروبا  
وجعل الأوروبيين ينفرون من الغيبيات بأنواعها جميعاً . ويرجع ثانياً  
إلى إحساس الزهو الذي تضيفه الوجودية على المؤمن بها . من حيث إنه  
مستقل في هذا الكون . له حق الاختيار دون أية قوة أخرى . ويرجع  
ثالثاً إلى اليسر البديع في أساليب سارتر الذي يجعل الأستاذ والطالب  
والخوذة والسمندري . يفهمونه بلا استعلاق . ولعل الوجودية أول  
ما فهموه من أنواع الرتلانة الفلسفية . وهم بهذا الفهم سعداء مزهوون .  
ويرجع هذا النجاح أنشيراً إلى أنها تناقض الأخلاق الاشتراكية التي  
تقول ، أول ما تقول . بأن الإنسان قد تكون بالمجتمع ، ثم هو يجب أن  
يكون المجتمع الأمثل .

ومعنى هذا أنه أصبح للوجودية معنى سياسي . حزبي . فهي لذلك  
تسلسل إلى المنابر وأندية الخطباء بالقدح والمدح وتذكر كلماتها وعقائدها  
أيام الانتخابات البرلمانية . ولذلك هي أكثر من « فلسفة » . هي كفاح ،  
هي سياسة . هي حزبية .

\* \* \*

ولو كنت أخطب السبان وأنشد لهم القوة والمجد لدعوتهم إلى الوجودية وعندئذ أكون معتمداً على ما يسميه القانونيون «أكذوبة ترعية» أى أكذوبة أهداف منها إلى أن أجعل الشاب يحس أنه مسئول ، وأنه يستطيع أن يتسلط على القدر ويصوغ حياته كما يشاء . وأن عاياه أن يأخذ حياته بالجد والبصر إذ هو مسئول ، وهو حر ، وهو قادر ، إذا شاء ، أن يصل إلى أعلى قمة في المجتمع الذى يعيش فيه .

وحين أقول هذا القول أعرف أنى ، من حيث الفلسفة والسيكولوجية والاجتماع ، كاذب . إذ أن الإنسان ليس حراً ، وأن الحقيقة أن المجتمع يصوغه .

وهو قفى هنا لا يختلف من موقف القضاء . فإننا نحاكم المجرمين «كما لو كانوا» مسئولين ليس للمجتمع تأثير عليهم . وعلى هذا الأساس نعاقبهم .

وهكذا الشأن أيضاً في الأخلاق . يجب أن نقول إن كل إنسان مسئول عن أخلاقه ، ونعامه كما لو كان حراً فد اخنا هذه الأخلاق . وإذن لا تزيد الوجودية على أن تكون مذهباً ارتقائياً في الأخلاق ووسيلة إلى بعث النشاط والحياة والجد .

" " "

سبق أن قلت إن «الإلحاد» بول سارتر يعد نقطة بؤرية في فلسفته ولكننا يجب أن نبين هنا أن هذا الإلحاد ليس هوى وليس طارئاً . لأنه إما يتفق ويتناسق مع فلسفته . إذ هو يقول إننا نوجد أولاً ثم نتجوهر ثانياً

أى الوجود ، الظاهر لنا ، نعرفه أولاً .  
ثم الجوهر ، أو الماهية ، أو الأصل ، حلف الوجود ، نعرفه ثانياً ،



إذا استطعنا ذلك . وإذا عددنا أن الله هو أصل الكون فمحاولتنا لأن نعرفه يجب ألا تكون بداية البحث .

لأن بداية البحث هي الوجود الظاهر وليست الماهية المستترة ، بل ليست هناك عند سارتر ماهية لأي شيء ، وإنما هناك وجود فقط . وقد نقول إنك تتجوهر بعد أربعين سنة ، ولكن هذا المعنى يجازى هنا ، لأننا نقصد منه أنك تتكامل وتصل إلى أقصى كفاءاتك وميزاتك . ولذلك سارتر ينكر الإيمان بالله ، بل هو يكافح هذا الإيمان .

\* \* \*

ويجب أخيراً ألا ننقل من إقدام سارتر على أن يكتب الفلسفة للشعب ، أو على حد قوله إنه قد أدخل الفلسفة في السوق . فإنك تقرأه فلا تجد تلك الكلمات النابية أو العبارات المعقدة التي تجدها عند من كتبوا قديماً حين كانت الفلسفة تكتب للفلاسفة وليس للشعب ، أو كما كان يكتب الفقه للفقهاء وليس للشعب .

وهو هنا مبتكر ونافع وجرىء ، ولكن الأدباء العصريين قد سبقوه بأن صاروا يكتبون منذ نحو مائتي سنة للشعب أيضاً .

وهنا فرق عظيم بين الأدب الأوربي والأدب العربي ، أو على الأقل الأدب العربي القديم . فإن أمثال المتنبي والجاحظ والفرزدق وابن الرومي كانوا أدباء يكتبون لأدباء مثلهم وليس للشعب . بل إن المتنبي كان يفخر بأن الأدباء أنفسهم لا يفهمونه ، إذ يختلفون عن معانيه ويناقشونها وهو قاعد هاني .

وهذا التغير إنما يعزى إلى أن « الشعب » لم يكن موجوداً عند الأمم القديمة . والذي أوجده في أوروبا هو الحركة الصناعية الجديدة التي عممت الثراء بين أفرادها ثم عممت التعليم ، فصار الأدباء والفلاسفة يكتبون للشعب وليس للأدباء والفقهاء والفلاسفة .

الصفحة	فهرست
٧	المؤلفون يغيرون الدنيا .
٢١	فولتير : محطم الحرافات .
٢٩	چيته : الشخصية العالمية .
٣٩	داروين : عار العائلة .
٥١	فيسمان : المؤلف الذى أفسد ذهنى .
٦١	هنريك إبسن : داعية الشخصية .
٧٣	نيتشه : فتنة الشباب .
٨٧	إرنست رينان : داعية البشرية .
٩٥	دستوفسكى : ذكاء العاطفة .
١١١	ثورو : نداء الطبيعة .
١٢٣	تولستوى : فليسوف الشعب .
١٤١	فرويد : تشريح النفس البشرية .
١٥٣	إليوت سميث : أصل الحضارة .
١٦٥	هافاوك إليس : الزواج الانفصالى .
١٧٧	چوركى : الأديب المكافح .
١٩٣	شو : رفيق حياتى .
٢٠٧	غاندى : داعية الاستغناء .
٢١٩	ويلز : فيلسوف الصحافة .
٢٢٩	شفايتزر : صديق الإنسان .
٢٣٧	جون ديوى : فيلسوف العلم .
٢٤٧	چان بول سارتر : زعم الانفرادية .

١٩٨٥ / ١٨٢٩	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-١١٨٥-٠٠	الترقيم الدولى



# اقرأ

بهذا الفعل الحميل ( اقرأ ) : ندعوك  
دار المعارف إلى فراءه تراث هذه السلسلة  
العريقة بأقلام كبار كتابنا لتعيش  
معهم كما عاش الاء والأحداد  
وتكوّن في مكتبتك موسوعة متفرقة في فروع  
المعرفة المختلفة  
وإيماناً منا بأن القراءة هي أقصر  
الطرق إلى الوعي والثقافة فقد يسرنا لك  
ذلك في إخراج جيد وسعر رهيد